

بسام شمس الدين

عصفور الحقل



رواية

بسام شمس الدين

عصفور الحقل

بسام شمس الدين

عصفور الحقل

رواية

الجزء الأول

لوحة الغلاف للفنانة التشكيلية د. آمنة النصيري

للتواصل مع الكاتب عبر البريد الإلكتروني:

bassamshmsaldn@gmail.com

توطئة قبل النشر

بينما كان رفاقنا الطبيعيون ينظفون نفايات ومخلفات الحضارة البشرية الأخيرة عثرت إحدى مجموعات التشجير على أربعة مخطوطات رثة قرب بقايا أطلال عاش فيها أسلافنا البشر، أحييت تلك النصوص الرثة إلى لجنة الفحص والمراجعة، معظم الأعضاء قرروا أن تحرق لأنها كتبت على الورق المستخلص من لحاء الشجر، لكني طلبت منهم مهلة لأقرأ بضع صفحات من كل مخطوط، لأنني كنت مخولا بقراءة وفحص المخطوطات التي تكتب بالعربية القديمة، أخذتها دون حماس، وقرأت عليها العناوين التالية: (عصفور الحقل، نداء منتصف الليل، غروب الشياطين، قواعد أخرى) رغم ذلك لم أتوقف حتى أنهيتها. وبدلا من حرقها قمت بترجمتها إلى لغة الطبيعيين، وأوصيت في تقريرتي بنشرها في كل مكان، وبعد أن عرضت على لجنة الإناث القائدات استحسنن نشرها، ورشحتني لنيل وسام الطبيعة.

وترجع أهمية المخطوطات الأربع إلى أنها أخبرتنا عما حدث للسلالة البشرية الأخيرة، بحيث أتت على شكل قصة باللغة الغريبة تبدو غير حقيقية، لكن الأسلحة والآلات التي استعملها أسلافنا البشر لسحق بعضهم البعض عثرتنا عليها منتشرة بكثرة وتوشك معالمها أن تنطمس، كنا من وقت سابق نبحث عن بقايا الآلات والمعدات البشرية ونضعها في متاحف طبيعية مفتوحة للفرجة مثلما كان يفعل أسلافنا مع المتحجرات وهياكل الديناصورات، بعضها ضخمة والبعض الآخر صغير جدا، ولم نكن ندرك الغرض من معظمها، حتى الساحر

سعد نفسه لم يكن يعرف كثيرا عن الأسلحة الخطيرة، وحين كشف له الشيطان الأكبر عنها بدا عليه الاندهاش.

كانت الحيوانات في هذه النصوص تختلف في مسمياتها وأشكالها عما نراه في طبيعتنا الآن، فقد كانت متوحشة كالبشر تماماً، كانوا يمقتونها ويقتلونها وهي بدورها كانت تهاجمهم بعنف، وتدافع عن نفسها بضراوة، أعرف إن هذا يبدو رهيباً ويصعب تصديقه، لأننا نعيش والحيوانات معاً لا نهاجمها ولا تهاجمنا ولا نأكلها ولا تأكلنا، والطيور تحط على أكتافنا دون أن تفر، ربما لأننا لا نملك ما يسمى أسلحة، أو سكاكين، أو أي شيء مما يجرح أو يقطع أو يثقب الأجساد، لذا نسمى الطبيعيون أو أبناء الطبيعة.

ببساطة كان أسلافنا البشر يؤمنون بأشياء لا يرونها ويكفرون بالطبيعة التي يعيشون في كنفها. وها نحن نكتشف أنهم كانوا مقسمين إلى سلالات وأعراق وطوائف متخصصة، يعيشون وسط منازل حصينة، حدود بلدانهم مغلقة بالسيارات والجنود، يحشدون الجيوش ويوجهون مدافعهم نحو جيرانهم، أسلحتهم تنتج بواسطة مصانع عملاقة في الغرب، ويتهاقت الحكام المتعطرسون في الشرق على اقتنائها، ولا ندري مدى صحة المعلومات التي تشير إلى سلاح يسمى قنابل نووية وهيدروجينية كانت تهدد بتحويل الطبيعة والحياة إلى فتات، لكني لم أسمع أحداً في لجان تنظيف النفايات البشرية يجزم أنه رآها أو وجد بقاياها، لعل هذه الأسلحة أتلفت أو تحجرت، على كل حال، لا أنصح لجان التنظيف بالبحث عنها أو حتى التفكير فيها. من ناحية أخرى، كان الذكور هم المهيمنون على الجنس البشري، وكانوا يقيمون ما يسمى الزواج على وثائق تكتب على ورق رخيص الثمن، ويكون الذكر هو الذي

يختار الأنثى وليس العكس. وبوسعنا أن نلومهم ملياً، وذلك لأنهم لم يؤمنوا أن الطبيعة هي أنثى وأم رؤوم، وأن الحياة كذلك أنثى، لكنهم أفرطوا في استخدام عواطفهم أكثر من عقولهم، وأيقنوا أنهم أكثر قداسة وتفوقاً من الكائنات الأخرى، مع ذلك لا أظن أن كل ما جاء في هذه المخطوطات الغريبة كان صحيحاً، إذ رأى سعد أن القصص يجب أن تكون غريبة ومثيرة، وأن والده بالغ في سرد الأحداث، وهكذا تستمر الغرابة بالتصاعد، ونعرف أن البشر مارسوا السحر الأسود، واستخدموا التعاويذ الغريبة، وذلك ربما يبرر بقاء المخطوطات بضعة آلاف من السنين دون أن تتلف.

وتكشف لنا المخطوطات أن الساحر سعد كان أول شخص من الطبيعيين، إذ رفض المال، وعاش في حضان الطبيعة على شجرة عملاقة تسمى التالق، متمنياً أن يعيش جميع البشر في قلب الطبيعة كما نعيش الآن، كذلك رعد ومارتا وغيرهم من الأبناء والأحفاد الذين أنقذتهم الدلافين من الغرق، لم يكشف لنا المخطوط الرابع إلى أي مكان حملتهم تلك الحيتان اللطيفة، وهل عاشوا بعد ذلك سوياً أو متفرقين؟ ويبدو أن كاتب المخطوط الأخير حبذ أن يدع النهاية مفتوحة على الخيال، وأن بوسع كل قارئ أن يشارك في توقع الأحداث ومن ثم يصنع نهاية خاصة لأبطاله، إننا هنا أمام أشخاص من سلالتنا عاشوا بين أولئك البشر الأشرار، بل إننا جئنا عبر سلسلة من الأطفال المميزين الذين قاوموا الانقراض والشياطين واستبدلوا القواعد البشرية القديمة بقواعد أخرى مختلفة. كيف حصل كل ذلك؟ هذا سؤال منطقي، لكنني لن أجيب عليه، اقرؤوا بأنفسكم ما جاء بالمخطوطات، وتابعوا

قصة البشر، والشياطين والأشخاص المميزين، لتدركوا كيف عاشوا
وانقرضوا تاركين لنا ممرا للعبور إلى رحم الطبيعة الأم.

المترجم

ابن الطبيعة

(1)

طغى الطابع الأنثوي في المنزل الصغير، الملابس، الأحذية، وكل شيء تقريباً، حتى الأصوات، صوت رجل واحد لم يعد يسمع، وتصرفاته لم تعد تُحس، في كل يوم يمر، يلاحظ سرحان الطحّان أن مساحته صارت منكمشة، حيث يحتل زاوية صغيرة، بينما تحيط به أربع نساء، أو بالأحرى ثلاث فتيات وأمهن سلطنة، لا يدري متى سيرزق بمولود ذكر يكون أميراً مدلاً في العائلة يزهو به.

في السابق، وبالتحديد بعد الطفلة الثانية، أمسى أكثر غضباً وعدائية، وبدأ يتخذ إجراءات فعلية كثيرة. زار وزوجته قبور الأولياء في طول البلاد وعرضها، أقام في يفرس مدة شهر وفي زبيد شهرين، ظل يخدم وينظف الأضرحة ويبخرها كل يوم وليلة، والتزم بالطقوس والابتهالات التي كان ينصح بالقيام بها مهما كانت. وقد نصحه أحد الدراويش المتصوفة أن يقذف في رحم امرأته عند مزار مولانا تاج الدين، فانتظر حتى خلى المزار من الزوار، وفعلها هناك. شخص آخر أوصاه أن يغتسل وامرأته ثلاث مرات بماء زمزم المقدس، وأن يقرأ على عضوه آية كذا وكذا من سورة فاطر، ثم يعاشرها.

لقد هجر مطحنه، وأنفق كل ما اكتنزه من مال لأوقات الشدة والمحن. ظل ينتظر قرب بطن سلطنة مراقبا تحركات جنينها وأهاتها، وبالغ في رعايتها وتدليلها، وبالغت هي في مطالها حتى صارت تبعثه إلى كل الأسواق ليحلب لها اللحم وقفاع السكر والفواكه والخضر، ولو طلبت لبن العصفور لن يتردد في

جلبه إليها من أي بقاع الدنيا. أخذ يفكر في اسم لائق جميل يطلقه على الولد، ودخل معها في شجار حارٍ حول الاسم المناسب، أقسم أن اسم "مسعد" هو أجمل الأسماء، بينما أصرت أن يطلق عليه اسم "سعد"، وبلغ النزاع مداه حتى انكسر أمام رغبتها، معللاً لنفسه أن حرف الميم الزائد لا يستحق كل ذلك النزاع، ولن يجرح خاطر سلطنة أو يهد عزيمتها قبل الوضع من أجل حرف واحد.

لم يصدق بالخبر حين بشر بالمولودة الثالثة، فأمسك بتلابيب المرأة المتعبة، وتأهب على نحو مسرحي أن يضربها، ثم انهار باكياً على صدرها كما يفعل الممثل معلناً عن خاتمة في أحد المشاهد الحزينة، وهكذا وافته حالة قنوط وهياج، مضى يشتم الأولياء والصالحين، ويلعن الذكور والإناث وأهالي القرية. كان الناس هناك يحشرون أنوفهم ويراقبون ويبحثون عن الأسباب، وأشد ما كان يفطر سويداء قلبه هو أنه الوحيد في قرية الرباط الذي يحدث له ذلك. أتفه قروي لديه أكثر من ولد ذكر، ناصر حنشات الذي يطلقون عليه المخبول المرتعش لديه ولد وبنت، أي شيء ينقصه عن هذا الرجل المصاب بالرعشة والبله. من ذا الذي يقوم بتحديد النوع في الكائنات؟ أهو الله أم الأعضاء التناسلية. أم شيء آخر يجهله الجميع؟

أخذ فأسه وذرع طرقات القرية متخطياً حي اليهود إلى الحقول الممتدة خلفه، وهناك عثر على ناصر حنشات عند حقل خصيب، تقدم نحوه شاهراً الفأس، وخاطبه والشرر يقده من عينيه:

.أرني عضوك يا ناصر أو أفلق رأسك كالبطيخ.

زاد ارتعاش ناصر وأجاب بتلعثم:

.ماذا تقول يا مجنون؟

.هب أننا طفلان يتبولان.

.ولكننا لسنا كذلك.

.هيا، افعل ذلك، لنفعلها معاً.

تبولا سوياً على العشب الأخضر، نظر سرحان بسخرية إلى ذلك العضو الصغير البائس، وفكر في سخف الأعضاء وبشاعتها، اكتشف أنها لا تستحق قطعة القماش التي تغطيها. تمنى لو عاش الإنسان معطل العقل عارياً مثل معظم الكائنات الحية، أمسى يلوب في أرجاء منزله وطرقات القرية زاعماً أنه حيوان يمشي على قدمين، ولكي يؤكد صحة قوله، أضحى يطلق أصوات الحيوانات التي يعرفها، ويهذي بترهات حول إمكانية تحوله إلى حيوان عارٍ لا يستر عورته شيء. وقعت زوجته سلطانة في حيرة من سعادته وضحكه المفتعل الغريب، استاءت من وضعه البائس، رأت أن ما أصابه هو شيء يفوق الجنون. كانت تفضل أن تراه شاردًا صامتاً أو هائجاً يدق رأسه على جدار، أو عدوانياً يقذف الناس بالحجارة، على أن تراه ضاحكاً سعيداً بلا أسباب، يظن نفسه كبشاً وحيناً ذئباً برياً، لذا أطلقت سلطانه صيحة استغاثة في القرية، فأقبل القرويون يخفون كأحصنة سباق، وربطوا سرحان بالسيور الزبيدية التي صنعها يهود تهامة من سعف النخل وسيقان اليرع والخيزران، وحملوه على بغلة الإقطاعي نجيم التي يهبها في مثل هذه الأوقات. طلبت من الرجال أن يذهبوا به إلى قاسم الوضري الذي يكشف الأسحار ويطرد الشياطين من

الأجساد، لكن البغلة السريعة في مشيها تجاوزت قرية "عبوم" مسقط رأس هذا المعالج الداهية، سائرة في طريقها باتجاه مدينة يريم، حاول القرويون إيقافها بشتى الكلمات والإشارات التي يعرفونها، لكنهم استخدموا الكلمات التي تقال للحمير والثيران، وندموا لأنهم لم يطلبوا من الإقطاعي معلومات عن كيفية قيادة هذا الحيوان الراقى الصعب القيادة، وصاح أحدهم باستهتار:

هل تريد الخبيثة أن تتسوق في المدينة؟

.البغال أكثر الحيوانات غباء.

.أعيدها بأي ثمن قبل أن تضيع، إنها أثيرة لدى صاحبها.

.اخفضوا أصواتكم كي لا يشعر الذين في الوادي بما يدور. سنصبح مثلاً يروى على كل لسان.

تجراً أحد الشبان الأقوياء رافعا عصاه في الهواء ليضربها، لكن أحد الفلاحين تلقف الضربة المؤلمة بذراعه، ثم نزع العصا من الكف الفتية، وكسرها إلى قطع صغيرة وألقاها تحت أقدام الحيوان، وانساقوا وراء البغلة باستسلام تام. لم يتوقعوا أن تكون متكبرة ومجنونة إلى هذا الحد، بحيث صارت تقودهم نحو المجهول.

أثناء ذلك أطلق سرحان ضحكة صاحبة مجلجلة، وصهياً طويلاً، فاستبد بهم الغيظ والحنق، أحسوا أنه يعبت بأعصابهم، ويزدري صبرهم، ولا يكثر أن يقطعوا آلاف الأميال سيراً على أقدامهم مادام راكباً، ولولا البغلة الرفيعة الشأن لتركوه يضحك على خيبته وعادوا إلى ديارهم. مع

مرور الوقت شعروا بالإرهاق يثقل على أرواحهم، وهذّ اليأس والضجر عزمهم، سخطوا على وضعهم السخيف، وفكروا في استخدام العصا أو حتى الرصاص الحي -إذا لزم الأمر- لإيقافها، لكنهم ما زالوا بمحيط أملاك صاحب البغلة المجنونة، ومنزله هناك يلوح شامخاً فوق أحد التلال القريبة، ولا يستبعد أن يصل إليه الخبر في اليوم ذاته، كان الأجراء النمامون ينتشرون في الحقول أو يعبرون بجانبهم ناظرين إلى الحيوان بإعجاب، دون أن يلقوا في وجوههم نظرة، لحسن الحظ، اقتحمت البغلة حقل برسيم وجعلت تأكل بشراهة، ما سمح لهم أن يلوذوا بظل شجرة مشمس عند طرف الحقل، انبطحوا تحت ظلها متفيئين قليلاً من الراحة، قاطع سكينتهم فلاح جاء صارخاً مهرولاً من الطرف الآخر للحقل، فخشوا أن يصاب الحيوان بمكروه، ووقفوا في وجه الفلاح الغاضب رافعين حجّتهم الكبرى.

. هذه بغلة الإقطاعي نجيم.

رفع الفلاح حجة أقوى قائلاً:

. وهذا حقلي وبرسيمي، ليس حقل نجيم.

أسقط من أيديهم، فتراجعوا وقد صعقوا أن يكون هناك حقل في هذا القاع الفسيح غير مملوك لنجيم. راح الفلاح يطرد البغلة وهو يعاتبها قائلاً:

. هل ضاقت بك حقول نجيم حتى تغيري على حقلي الوحيد؟ سأطردك حتى لو كنت بغلة الله.

ابتعدت البغلة، فانطلقوا خلفها مرغمين وهم يتحدثون عن حقل البرسيم الذي أفلتت من ملكية نجيم، ويتكهنون الأسباب، ظهرت من بعيد المنازل الكابية اللون لمدينة يريم الصغيرة، ساروا على شارع طويل ممهد، ثم انحرف خط سيرهم يمينا ويسارا في أزقة ضيقة حتى خافوا على مصيرهم من الضياع. كانت عيونهم مثبتة على البغلة خائفين عليها من المصير ذاته، سمعوا طفلاً يهتف من باب أحد المنازل:

.بغلة نجيم تحمل مريضاً، وأناس غرباء وراءها.

وقفت البغلة من تلقاء نفسها قرب باب أحد المنازل، حركت أذنيها وخبطت حوافرها على الأرض، وصارت تحمحم وتصدر من أنفها صفيراً، خرج شخص حاسر الرأس، غريب الشكل، أزرق العينين، يرتدي ملابس عجيبه، راطناً بلغة غير مفهومة. أشار إلى سرحان وخاطب القرويين بكلمات مكسرة:

.تعال إلى الداخل.

سمعوا الطفل يهتف قائلاً:

.مريض في منزل الطبيب النصراني.

ومن طريقة تعامل الرجل عرفوا أنه يسعى إلى علاجه، فقد عبث بجسده، ومضى يحدق في وجهه وأطرافه، فجأة احمرت عيناه، وصرخ في وجوههم حين رأى آثار السيور عالمة على ظهره وذراعيه، أرسل نحوهم كلمات قوية غامضة تشبه الشتائم، ثم طلب من المريض أن يغادر الغرفة دون مساعدة، أشار إليهم أن الرجل لا يعاني من شيء، وظل يكرر بصوت متضخم قائلاً:

.تمام، تمام.

قال أحد رفاقه المسعفين:

.مولانا، اعمل له تعويذة، إنه مسحور.

غضب الرجل النصراني من تلكؤ الرجال، وأعطاهم سلة مليئة بالفواكه المتنوعة، وقال يخاطبهم بلغة مكسرة:

.أنتم مجنون، هو تمام، يأكل هذا.

ربط القرويون السلة على ظهر البغلة ورفعوا سرحان إلى جوارها، ثم ساروا وراءها على الطريق السابق، مازال المريض يضحك عالياً كما كان، لكنه الآن يقضم تفاحة حمراء، استغربوا أن تكون حصيلة رحلتهم الطويلة سلة فواكه. رغم ذلك باتت حالة سرحان أفضل بعد أن أجهز على جميع محتويات السلة. وهكذا عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي حينما صرف انتباهه عن موضوع الولد الذكر.

فكر في إصلاح المطحن الحجري المهجور، طلب من سالم النجار اليهودي أن يقوم باستبدال القطب التالف بأخر جديد، ثم انفتحت شهيته على الأكل والجماع وراح يعاشر سلطنة أينما وجدها، في أي موضع، وحين رزق بالطفلة الرابعة قال للطاحنات بلا اهتمام:

.سلطنة مصنع بنات، لم أعد أكثرث حتى لو تنجب شيطاناً.

انتقل القلق إلى امرأته سلطانه، التي أرهقها الحمل المتكرر، فغدت مثل شجرة مشمش مجردة من الأوراق في فصل الخريف، أقلقها هياج هذا الفحل

الذي كان يريد لها على الدوام أن تنجب ولداً، ويحرص على أن تكون مستعدة
لنزوته السريعة في المساء، لم يعد يعنفها أو يلومها، لذلك صارت في حيرة من
أمرها، حتى فقدت شهيتها للطعام والنوم.

كان سرحان يقضي مدة طويلة من اليوم في المطحن الحجري بين الطاحنات،
مراهقات، شابات، زوجات، وأرامل، وهذا يجعله ينزو ككبش عند عودته في
المساء إلى المنزل، فيستعجل المنام، ويقطع على بناته السمر، ويوشك أن يمزق
الرضيعة حين تقاطعها بالبكاء، يتشبث بامرأته بكل ما أوتي من قوة، لكن
الرضيعة ترفع من وتيرة بكائها، وتبقى المرأة في وضع صعب بين هاذين
المتطلبين، في النهاية تدفع زوجها بعيداً بشراسة غير متوقعة، وتلقم الصغيرة
ثديها، فتتصاعد شهقات سرحان الغاضبة، وتتجاهل تهديداته بالزواج من
زكية التي تقدم لخطبتها عدد من الرجال، لكنها كانت تقول بصراحة، إنها لا
تريد كسولاً آخر على الفراش، لا ينك ثلاث مرات في الليلة الواحدة، وهذا
القول المبتذل جعلهم يحجمون عن طلبها، خوفاً من التورط في فخ مطالبها
الجسدية التي لا تنتهي، فهي كما يتردد على الدوام، لا تريد الأكل والشرب قدر
ما تنشد الجماع الدائم، إنها نوع لاهب خطير من النساء ونادر جداً في
الأرياف، مثل بعض فصائل الطيور الزاهية اللون، بينما لا وقت للمتعة في
ظل الجهد المبذول في الحقول، ولا طاقة لقروي على الزواج من امرأة ناعمة
بضعة غير كادحة مثل زكية.

الرباط قرية متوسط الحجم تقع على طرف قاع خصيب، حولها هضاب كبيرة وصغيرة مكسوة بالنباتات والشجيرات البرية، يفوق رجالها ونساؤها حين تصيح الديوك ويأفل آخر النجوم في السماء، مع اندحار بقايا العتمة يتصاعد دخان التناوير الطينية والمواقد، بينما تنهض سلطنة لتعد الفطور لزوجها قبل ذهابه إلى المطحن الحجري، بعد ذلك تربط ابنتها الرضيعة بالقماط وتلقمها الثدي حتى الارتواء، ثم تتركها لتنام، وتذهب لجلب الحطب من الهضبة الكبيرة المطللة على القرية.

ذهبت هذا اليوم كعادتها، وجمعت مقداراً كافياً من الحطب، ثم أخذت تحزم ما جمعته بالسير الجلدي، مكثت منحنية قرب شجرة تالق معمرة ضخمة الجذع، وحين فرغت من عملها رفعت قامتها المتعبة متأهبة لحمل حزمها والمغادرة، فجأة تسمرت عيناها على شيء لامع وسط شجيرة "سنف" شوكية، تقدمت ومدت أصابعها بحذر، وانتزعت سلسلة ذهبية مقفلة بإحكام تنتهي بتميمة معقودة بقماش مزركش. عرفت من شكلها الزاهي أنها تميمة أطفال، تذكرت حلماً جاءها في المساء بأن لديها مولود ذكر. لم تجرؤ على إخبار سرحان بالحلم فقد غدا متشائماً قانطاً يغضب لأتفه الأسباب. أخذت التميمة وعادت وفي نفسها إحياء قوي بأنها ستكون من حظ وليدها القادم سواء كان ذكراً أم أنثى. لم تشعر بثقل الحزمة على رأسها في خضم أملها وتفاؤلها، عند مدخل القرية قرب المقبرة صادفت إمام المسجد عثمان يقرأ الفاتحة على أرواح الموتى لاسيما أقاربه. خطرت في رأسها فكرة عرض هذا الشيء عليه، فهو شيخ فتي ثاقب النظر مدور العينين كصقر جبلي، يصنع الأحراز القرآنية للأطفال المنفوسين على شكل تمائم تقيم شرور النفوس

الخبیثة، ویملك ما یقوله فی کثیر من الشئون. كانت القبور مبعثرة متشابهة الشكل، استغربت کیف یستطیع أن یمیز قبور ذویہ المتوفین منذ زمن غیر معروف، رآته منتصباً کتمثال قرب قبر عتیق ذی شواهد حجرية مغروسة بلا تنسيق على الأرض، ذراعاه ممدودان إلى السماء بإخلاص، لا یتحرك منه سوى شفתיه الجافتین، حین أنهى ابتهاله ألقیت علیه التصبیحة، فرد على تحيتها ومازال الخشوع على صوته وملامحه، كانت تبدو ذاهلة ومهیأة لقول شيء ما، فتطلع إليها مبدياً اهتمامه لسماع كلامها، فمضت تقول له بحماس:

تعال یا عم عثمان لأریک شیئاً غریباً.

اقرب الإمام عثمان نافضاً تهیبه بعيداً، بدا منبراً بهذه الدعوة آملاً مشاهدة شيء عجیب یتحقق الانتباه، وضعت حزمها جانباً، وأمسکت التمیمة بتوتر، نشرتها أمام عینیه الناہتین المحدثین، فتناولها باحتراس، وأخذ یقلبها بین أصابعه قائلاً باهتمام:

. تمیمة أطفال ذات سلسلة ذهبية، تبدو قديمة جداً، انظري إلى هذه البقع الداكنة على حوافها كأنها خرجت لتوها من كنز حميري.

وأضاف بجشع وهو یزدر لعاہه:

إنها باهظة الثمن، أين عثرتِ علیها؟

.قرب شجرة التالق.

فتح قماش التمیمة، وأخرج ورقتين مطويتين، فتح الأولى، كان خطها مكسراً غائراً، فقرب الوریقة الصغیرة من عینیه، وقرأ بصعوبة هذه الكلمات:

" هذه التميمة للطفل القادم الذي يعيد الناس والحياة إلى رحم الطبيعة، عرايا كما ولدوا، لا أمراء ولا قصور ولا منازل، يبيت الناس في العراء سواء بسواء وجميع الكائنات الحية، هذه التميمة حارسة وجالبة للنحس والحظ الحسن، ستظل حياته في ارتفاع وهبوط كموجة هائلة، تجري بسرعة كبيرة نحو الشاطئ جارفة كل شيء في طريقها، من يعثر على هذه التميمة يرزق بهذا المولود الذكر الشهير.. (أو الشرير، الكلمة غير واضحة هنا)، لا تفتحوا الورقة الأخرى" عوفان الساحر

لم أفهم شيئاً. قال العم عثمان بعجب.

قالت بحنق:

لم يصف هذا الساحر وليدي القادم بالشرير؟

لا تغضبي من أجل مولود لم يأت بعد، ناهيك أن الكلمة غير واضحة، ولعلها الشهير وليس الشرير. دعينا نرى الوريقة الثانية.

طابت نفس سلطنة، لكنها قالت بصوت حاد:

لكنه ينصح بعدم فض الورقة الأخرى.

وهل تصدقين كل هذا الهراء؟

أخذ يفض الورقة الأصلية للتميمة، بينما تنحت سلطنة جانباً متحاشية النظر فيها، ظهرت صورة عصفور حقل يقف فوق كوز ذرة شامية، تحيط بها كثير من الطلاسم والرموز، التفت إليها قائلاً:

انظري، لم يحدث شيء أيتها المسكينة، صورة عصفور....

توقف بشكل مفاجئ، اكتسى وجهه بالشحوب والفرع، وأخذ يحرك رمشيه ويدعك عينيه بباطن راحته كمن يجلو زجاجاً متسخاً، ثم رمى الوريقة أرضاً وهو يصرخ:

. خذي تميمتك اللعينة أيتها الساحرة، ضاع بصري.. ماذا جرى لي؟ لا أرى شيئاً.. ابعتي أحداً من أولادي ليعيدني إلى المنزل، اكتمي الخبر حتى لا يسخر مني الأهالي.

طوت الوريقتين، مشيحة نظرها جانباً، ثم أعادتهما إلى موضعهما الأول وهي ترتجف وتبكي، لم تحفل بالحطب، بل أسرعت إلى القرية، وأندرت عائلة عثمان، بعد ذلك سارت صوب المطحن الحجري، وترددت قليلاً قبل أن تدخل. كان بصيص من الضوء يضيء مكان سرحان، وبالكاد يسمح برؤية الطحين المنسكب من جانبي الحجرين المدورين، في المطحن لفيف من النساء متكئات بتقاعس على أكياس الحبوب المكومة في الزوايا الأربع، صوت المطحن الحجري المدور يهدر بشكل منتظم. اقتربت سلطنة من زوجها بما فيه الكفاية، كان قلبها ينبض بسرعة ويوشك أن يبوح بالسر، فكرت في كلام مناسب تطرحه. من أين تبدأ الحديث؟ من الحلم أم من التميمة أم من الوريقة التي تبشر بالمولود الذكر؟ هل يستطيع أن يتحمل هذا الخبر السار؟ لن تخبره بالأذى الذي لحق بالإمام عثمان، لأن ذلك سيفسد الخبر، ويلقي بظلال من الشؤم على قدوم وليدها.

لم تعتد أن تقف إلى جانبه مرتبكة ومبتهجة هكذا، كانت حين ذاك أقرب النساء إلى موضعه، لامست بأناملها رأسه لتلفت انتباهه إلى وجودها، ترك

قطب المطحن من يده، ومد راحته الشمال مستغلاً العتمة، وجس ردفها
بشهوانية وقرصها قائلاً:

.أخيراً جئت لمساعدتي يا صاحبة الردفين الكبيرين.

تقدمت سلطانة وقد أفرحها هذا الغزل الماجن، جلست إلى جواره، بحيث
غمرها ضوء النافذة الصغيرة، ورددت بقلق:

.أخشى أن تفيق الرضيعة، ومع هذا سأساعدك قليلاً، وأخبرك شيئاً ساراً.

.سلطانة، أهذه أنت؟ ماذا تفعلين هنا في المطحن؟

انتفضت من جلستها، وردت على سؤاله بسؤالين غيورين:

.من كنت تظنني؟ من هي صاحبة الردفين الكبيرين؟

.لا أحد...

رمت في وجهه المحتقن المحبط نظرة احتقار، وخرجت في الحال من المطحن،
التقت بزكية في الخارج، كانت المرأة القادمة تلبس قطيفة من المخمل الأملس،
يعتبر موضة صاحبة يومذاك، ولما تجاوزتها سلطانة التفتت لترى عجيزتها،
لمحت ردفي زكية البارزين المثيرين، ودار في خلدتها أن زوجها الشبق يقرصهما
ويحتك بهما في عتمة المطحن كلما عن له ذلك، ذهبت سلطانة مخلفة وراءها
جواً ملبداً بالحيرة، بينما اتجهت زكية إلى الداخل غير مكترثة لشيء، وجدت
المكان قرب المطحن فارغاً، فجلست، وجعلت تدير القطب الخشبي وتغني.

رسمت سلطنة خطة فرارها العاجل، جمعت ثيابها، طوت الرضيعة في خرقة محكمة شدتها إلى ظهرها، واتجهت بخطوات ثابتة صوب قريتها مزنة، رافقها الكلب دغمار حتى أعلى الهضبة، وهناك صار متردداً مهتاجاً يهز ذيله متمرغاً بين قدمي سيده الحانقة ليعوقها عن السير أبعد من ذلك، لكنها رفته بقدمها المتشنجة، رافضة الإصغاء إلى توسلاته، فابتعد عن طريقها وتسمر بمكانه، ظل يراقبها محتاراً وهي تبتعد رافعاً أذنيه المشتورتين باهتمام، جاء الخبر إلى المطحن، فأوقف سرحان العمل، وخرج لينفس عن غيظه في الخارج، وهناك رأى كلبه دغمار متوثباً على غير عادته، ما لبث أن أتى ودار حول سيده، فرفسه بقدمه وهو يقول بغضب:

.ابتعد يا دغمار، ليس هذا وقت اللعب.

عاد إلى الداخل بعجل، ووجد نفسه - بفعل اليأس - يمسك معصم مساعدته قائلاً بتوسل:

.هل تقبلين الزواج بي يا زكية؟

فوجئت زكية بهذا العرض، وكان ردها على طرف لسانها اللاذع على شكل سؤال محبط:

.وماذا أفعل بك يا عم سرحان؟

.تقولين يا عم سرحان! وكأنك لازلت في ريعان الصبا، ما هذا الكلام العجيب؟ نحن متقاربان في السن، واللون الأبيض الذي ترين على رأسي هو غبار الطحين، لازلت قوياً جامحاً كالحصان.

.لست صغيراً كما تظن، أنت غاضب الآن من سلطانة، فكر جيداً، لديك بنات صغيرات.

.نعم أيتها المخادعة، لكنك بحاجة إلى رجل يطفئ نيرانك المضطربة، فكري في ذلك.

. رجل واحد لا يكفي، أنت مخطئ حين تظن نفسك قادراً على إشباع مساعدتك زكية، أنت تمدح جسدك كثيراً، أنا أشفق عليك يا عم سرحان.
أجاب بغضب عارم:

. لا أريد منك بعد اليوم شفقة أو مساعدة، أنت سبب هذا البلاء، سأذهب لأصالح زوجتي.

سلك طريقاً مختصراً إلى منزله، وهو مهزوم من أعماقه، أطلق حماره نهيقاً عالياً حين رآه، وسمع خوار البقرة، قفز الكلب إلى أمامه متحفزاً للمرح واللعب، كذلك الفتيات الصغيرات نظرن إليه بصمت غريب. حاول أن يبدو طبيعياً، ويقضي ذلك اليوم بلا سلطانه، ابتلع غذاءه بارداً، وأراد أن يأخذ قيلولته المألوفة، لكنه لم يستطع إطباق جفنيه، مع مرور الوقت تكشفت ثغرة غياب امرأته واتسعت، وظهر القصور في أداء الأعمال واضحاً. لم يستطع أن يوظب التبغ في غليونه المحلي كما يجب، المسرحجة لم تعمل بسبب خلوها من الزيت، أشعل النار في الموقد ليعد القهوة لنفسه، وبعض الحساء للبنات الصغيرات، لا يعلم أي نوع من الطعام يتناولن كل ليلة، اضطر أن يجتهد ويبتكر، صنع حساء عدس يغلب فيه الماء، لكن الفتاة الأصغر رفضت طعامها، وظلت تبكي حتى أغاثتها جارتة روضة بعصيدة البطاطا، بدا المنزل

غريباً يشكو من خلل ما، كشخص يحاول الوقوف والقفز على قدم واحدة، إذ يختل التوازن ويميل الجسد ويوشك المرء على السقوط.

عند الفجر صحا بهمة عالية، كانت الديوك تهج من أماكن متفرقة في القرية، أخذ عصا السفر وسار إلى الخارج. رأى جارتها الطيبة تخرج من منزلها، ولاحظت هي خروجه المبكر، فقالت بعجب:

.أين تذهب يا سرحان في هذا الصباح الباكر؟

كان يعرف أنها ستقوم بواجب الجيرة حين تدرك غيابه، لكنه أجاب مستثيراً تعاطفها:

.إلى مزنه، البنات في عهدتك يا روضة.

.على الرأس والعين.

شكرها وسار باتجاه الهضبة، تبعه دغمار متحمساً متأهباً لرحلة طويلة. كانت مزنة تقع خلف الهضبة الكبيرة، ولما وصل إلى مشارفها كانت الشمس قد كستها بحلة بيضاء دافئة، ومع ذلك لم تستطع إضفاء طابع ايجابي على مظهر القرية المزري وأرضها الغبراء البركانية، صادف راعياً، فابتاع كبشاً ضخماً، وجره خلفه بواسطة سير جلدي متين تنازل عنه الراعي، اتجه بعزم نحو منزل قاسم، تمنى لو كان المنزل في طرف القرية، لكنه لسوء الحظ في الوسط وسيضطر إلى التوغل بين المنازل، فهو يعرف أصحابها من قبل، إنهم أكثر الناس -الذين رأهم في حياته- طمعاً وجشعاً، فقراء، كسالى، واديمهم غير خصيب، ومنازلهم مكتظة بشرادم بأئسة من الأطفال، مع ذلك يتنافسون

على إنجاب المزيد، وهذا يجعلهم يتصيدون المناسبات والولائم، ويبتزون الغرباء والأصهار، ولا يرحمون الأزواج الذين يقذف بهم سوء الطالع إلى أيديهم.

فكر سرحان أنه يستطيع التسلل خلسة قبل أن يفيقوا من النوم، حينئذٍ سيقدم الكبش لقاسم بعيداً عن الأهالي، وهو سوف يغمره الحياء والكرم، ويعيد إليه الحيوان قائلاً ما يقول الناس في مثل هذه الحالة: " مقبول ومرجوع"، وحين ذلك يصلح زوجته ويعودان والكبش بسلام.

أخذ يمشي بهدوء وحذر، منكساً رأسه للأسفل، يكلم نفسه ويمنيها بالعبور الآمن، اجتاز بضع بيوت غارقة في صمتها وفقرها دون أن يصادف أحداً في طريقه، لاح منزل قاسم قريباً وسط عدد من البيوت الصغيرة القذرة، غدّ الخطى نحوه متفائلاً، لكن كلباً ظهر من جانب أحد المنازل الصامتة، أطلق نباحاً صاخباً، وقابله دغمار بنباح أشد، واشتبكا بعراك صاخب، تعالت أصوات الكلاب من البيوت المجاورة، وهجمت مكشرة عن أنيابها، زعر سرحان، وشهر العصا في وجهها، ثم فر وكلبه من هجومها الشرس حتى دخلا منزل قاسم، أحاطت الكلاب بالمنزل وهي تطلق النباح الشديد حتى قام أولاد قاسم بطردها، كان الأهالي قد أفاقوا، وعرفوا أن هناك دخيل في القرية، ما إن انصرف كلابهم حتى أقبل سعد المليح وأولاده وكثير من الرجال، حاملين الفؤوس والعصي والخناجر، خرج قاسم رادفاً بندقيته الرهيبة، يتبعه أولاده العشرة الضخام الأجساد، إلى جانبهم ظهر سرحان منكشاً خائفاً، وهنا رأى كيف انكش الأهالي، وظهر الوجع في عيونهم، صاح قاسم بصوت صاخب:

.لِمَ تحاصروا منزلي؟ هل تريدون أن نتعارك وتطير الرؤوس والأطراف؟ نحن
أشرار وأنتم تعرفون ذلك.

ارتخت أشداق الرجال، وأسقطوا أسلحتهم مؤثرين السلامة، أجاب الكبير
سعد بتلطف:

.رأينا كلابنا تهر قرب منزلك، وأدركنا أن هناك غريب.

.ليس غريباً، إنه صهري سرحان الطحان، جاء ليسترد امرأته.

.هل ضربها أم أهانها؟ كان ينبغي أن يجلب ثوراً.

.لم يفعل ذلك، لكنني لن أعيدها سوى بكبش.

ارتبك سرحان وجعل يتلفت حوله قائلاً:

.نعم، لقد جلبت الكبش، لكنه فر من يدي حين هاجمتني الكلاب.

ضحك البعض وظنوها حيلة للتوصل عن القواعد المتبعة، استغل الكبير
سعد المليح ذلك وقال:

.في هذه الحالة يجب أن نسمع من بنت القرية.

أقبلت سلطنة تجر جسدها الرشيق الذي يكون في الغالب منتفخاً بالحمل،
ووقفت أمام الرجال قائلة بحياء:

.لقد حسبني امرأة أخرى.

لم يفهم الرجال شيئاً، وظهرت الخيبة على وجوههم، كأنما خافوا أن يفلت
العشاء من أفواههم، رد سعد المليح باستياء:

لكن هذا ليس ذنباً يستحق الترضية.

.أنت لم تفهم ما أعنيه.

تقدم قاسم نحو كبير القرية، وهمس في أذنه قائلاً:

.لقد جس الخبيث ردفها داخل المطحن المعتم، وهو يظنها مساعدته.

انفجر سعد المليح ضاحكاً ثم قال بتهكم:

.هذا الطحان الفحل، يجب أن يقدم ثوراً.

ضحك قاسم ورد بخبث:

.أي منا كان سيفعل ذلك لو أتيحت له الفرص، لذا اجلبوا أكبر كبشين في

القرية، واذبحوهما على العشاء.

هلل الرجال، و جلبوا كبشين أقرنين كبيرين، نظر سرحان إليهما باغتمام،

وفوجئ أن أحدهما هو كبشه المفقود، مازال السير الجلدي يطوقه.

.هذا كبشي.

صاح قاسم بسخرية:

.صه أيها الفحل، سأقرضك ثمن الكبشين، وبوسعك أن تأخذ امرأتك وترحل،

أو ابقَ إن شئت لتتذوق مرق كبشيك.

أحس سرحان بالنفور، وقرر المغادرة. كان الأهالي يتحركون بخفة ومرح، ودقوا

الطبول إيداناً ببدء طقوس الذبح وإعداد الوجبات للعشاء والسمر. ابتعد

وسلطانة ودغمار، لم تهاجمهم الكلاب هذه المرّة، ولم يعترض طريقه أحد،

لقد سخر منه أهالي مزنة، واحتالوا عليه، أولئك السفلة، إنهم كالخفافيش أو اللصوص، ينامون في النهار ويسهرون الليل مستمتعين بالولائم التي يسرقونها من أقوات المساكين. وهم من أجل ذلك يستكثرون من الأولاد، وأكثرهم وجاهة أولئك الذين يملكون أكبر عدد من الذكور. إنهم الآن يأكلون المال الذي كسبه من كد جنبه وعرق جبينه في المطحن، ربما كان الوضع مختلفاً لو كان لديه أولادا ذكورا يحفون حوله في مثل هذه الظروف، أو حتى ولد واحد يساعده في المطحن، أوجز كل مشاكله وغاياته قائلاً بنبرات حادة:

.أريد ولداً يا سلطانة.

أجابت بغضب:

.أتيت إليك سابقاً لأبشرك بالمولود الذكر، ولكنك كنت تعبت.

.كان بوسعنا التحدث في المنزل.

أكدت أن خيانتها لها هي سبب كل ما جرى له، ولو لم يعتمد على تلك الأرملة اللعينة السمينة في المطحن، لم يحدث شيء من ذلك، ولو لم يمد أنامله الخبيثة إلى الردفين الكبيرين لم يكن ليخسر كبشين سمينين، وإنها مازالت تتحمل رغباته الليلية، لذلك لن تتسامح البتة حين يقترب من امرأة أخرى، وستجعله يخسر عشرات الكباش، ولن يستفيد من هفواته سوى أهالي مزنة، ولخصت مشكلتها معه بحل قاطع قائلة بحزم:

.لا تفكر بامرأة أخرى وأنا في منزلك.

أتت بادرة حسن النية من سرحان حين أجاب:

.ها قد طردت تلك المرأة اللعينة، ماذا تريد من ذلك؟ هل يسرك أن أستعين بامرأة شمطاء لتساعدني في المطحن؟

ردت سلطانة بعناد:

.لا أقبل أن تساعدك أي امرأة، يمكنك الاستعانة برجل، أم لا يطيب لك ذلك.

.نعم، أوافق.

تردد قليلاً قبل أن يتمتم بحزم:

.إذا لم تضعي مولوداً ذكراً في المرة القادمة، ستكونين مطلقة، ولن يلحقني أي ملام.

قبلت سلطانة التحدي قائلة بثقة عمياء:

.أوافق على ذلك، أي نوع تريد من الأولاد، أسود، أبيض، ملاكاً، شيطاناً؟

.أريد ولداً ذكراً وحسب، حتى لو كان أكثر شراً من خاله قاسم.

.أوافق.

تعجب سرحان من ثقها بنفسها، لم تخبره شيئاً عن التميمة وما فيها، أرادت أن تصنع له مفاجأة مدهشة، صارت تمارس حياتها في المنزل كالسابق، ترعى فتياتها وحيواناتها، وتحتطب كل صباح، وبين حين وآخر تراقب الاتفاق المبرم بينهما، فتقوم بزيارات مفاجئة إلى المطحن، ولا تجد شيئاً مثيراً للشبهة، فقط سرحان وحيداً يدير القطب، جسده مبلل بالعرق، ووجهه أحمر من فرط

التعب، وكلما رآها يتجههم، ويهز رأسه ليوحى لها بالاطمئنان، لم تتغيب عن الحضور إلى المطحن إلا حين انتفخت بطنها وثقلت وأصبحت كالحجر، بدا القصور في أعمالها واضحاً، فهبت جارتها روضة لمساعدتها في رعاية الحيوانات والبنات، وكانت تقول لها مباشرة رغم أنها لم ترزق بولد:

.الحمل الثقيل ولد.

كان الجنين يتحرك ويضرب جدار بطنها حتى يوشك أن يمزقها، ومع ذلك بدت في غاية السعادة والعناء، على عكسها أمسى سرحان تعساً، ينامان جنباً إلى جنب كل ليلة، بحيث يسمع دقات قلبها، وتلفح وجهه زفرات أنفاسها الدافئة، يشم رائحة جسدها المتخم الثقيل، لكن كلما اقترب منها ليحتويها بذراعيه المكدودين، يرفس الجنين كالحمار الوحشي، حتى تهتز المسكينة وتحس أن جدار بطنها سينشق إلى نصفين، تصرخ من الألم، فيضطر إلى الانسحاب قليلاً، فتهدأ التقلصات وتعود الأمور إلى نصابها الصحيح، وهذا يشجعه على المحاولة، فيتسلل في الظلام كثعلب ماكر، يأتي من الأسفل، يتحسس الساقين حابساً أنفاسه اللاهثة، ثم يصعد إلى الفخذ، يمسده بهدوء وروية، يبدو كل شيء على ما يرام، يصبح جسده بأكمله مشدوداً مثاراً، يتخيل بأنه سوف يلحق بجسد امرأته الوديعه المتعبة دماراً لذيذاً، يستشري سلوكه الحيواني، ويرشح المني على سرواله، يتقزم جسده بين ساقها المستسلمين، ويمد كفه ببطء حتى يلامس عضوها الدافئ الدبق، يدعكه بمهل، يمسك به بأنامل راجفة حذرة، كأنه يخشى فراره، في تلك اللحظة الحاسمة، يتحرك الجنين مسددا ضربات مؤلمة إلى أسفل البطن، تصرخ المرأة الحامل بتوجع، فيسحب كفه بتوتر.

يتفجر غضب سرحان ويتوجه إلى بيت النار، يمسك مقبض السكين الحادة، يفكر أن يبقر بطن امرأته لينتزع ذلك الشيطان ويقطعه إلى أجزاء صغيرة، هناك تصفع جسده الموتور تيارات باردة تتسرب من فتحات التهوية في المنزل، يخفف ذلك من حرارته وينعشه. فيترك السكين تسقط من يده، ويأخذ غليونته ويشعله ويجلس القرفصاء عند مدخل المنزل، مطلقاً الدخان وسط العتمة بضجر، يفكر في أشياء كثيرة، حتى يتفحم التبغ كله، ويصبح جسده بارداً، فيعود إلى فراشه لينام وكأن شيئاً لم يكن، ويتكرر هذا الحال مراراً ومراراً، وذات مساء لاحظت سلطانه أن سرحان يتحرك في موضعه كذكر الماعز، توقعت أنه بين لحظة وأخرى سوف ينبت له قرنان ينطح بهما كل من حوله، خشيت أن يقوم لفرط هياجه- بقذف بناتها الأربع إلى الخارج.

أضحى ينفخ الهواء بغضب، عيناه مشتعلتان بالرغبة، مصوبتان إليها بطريقة فاضحة، لمحت سرواله منتفخاً، وما وراؤه يتحرك فيرتعش تبعاً لذلك جسده كاملاً، بدأت عضلات بطنها تتقلص، وبدأ الجنين يهيج هو الآخر، ارتابت في أنهما متصلان بخيط خفي، لا تدري أي سبب يجعل جنينها يضيق الخناق على والده، لم يحدث هذا في أي حمل سابق، كانت ألد اللقاءات تجري عندما تكون حاملاً، بدا هذا شيئاً غريباً، لذا فكرت أن تشغل زوجها بالحديث قبل أن يفقد صبره، فقالت متصنعة الفرح:

.انظر، صفية تكبر بسرعة، ألا تلاحظ ذلك يا سرحان؟

حدق النظر إلى ابنته خلال الضوء الخافت وأجاب بفتور:

.لا أرى شيئاً مختلفاً فيها.

. الأم تعرف أكثر، لقد غدت ملابسها قصيرة على جسدها، انظر إليها ما أحلاها، بعد أعوام قليلة سوف يزدحم فتیان القرية حول منزلنا طالبين يدها. ليذهبوا إلى جهنم.

كانت صفيية تتناول طعامها ببراءة، لا تفهم شيئاً مما يقال، نعمة شقيقتها تشاركها في الطبق، والأم تطعم سلوى وحليمة الأصغر سناً، كانت المائدة أمام الجميع، اكتفى بقليل من اللقيمات رماها على عجل في ثغره المفتوح، ثم أرجع ظهره إلى متكأه، لقد اقتصد في الأكل ليحفز المتعشيين على الشبع، كان يريد وجبة أخرى اسمها سلطنة، لهذا جلس يراقب الأكلة بقلب مستعر. تجار نفسه بالشكوى، البنات يأكلن كمية كبيرة من الطعام، وببطء شديد، سلطانه لا تعمل شيئاً حياً ذلك، حين رفعت آخر طفلة يدها عن الطبق، طلب منهن الاستعداد للنوم، نهضت سلطنة غاضبة، وأخذت بناتها إلى الغرفة الأخرى، ثم آبت إلى موضعها، كانت هناك طفلة تناديهما، فأسرع إلى المسرحية ونفخها ليعوقها عن العودة إلى الغرفة الأخرى، ارتد بخفة ثعلب إلى حيث كانت امرأته جالسة، أمسك الفراغ، كان موضعها دافئاً، أين ذهبت خلال تلك البرهة القصيرة؟ شعر أنها تريد أن تلعب معه الغميضة، لكن مزاجه لا يحتمل اللعب في هذا الوقت العصيب، أو لعلها على الأرجح تريد أن تلعب بأعصابه وحسب، وهناك احتمال آخر وهو أنها تريد أن تضاعف في جسده شحنة الإثارة، ومن ثم ترفع كلفة الحصول عليها، هل تصبو إلى إغرائه كطفل ينساق وراء قطعة حلوى؟ لكنه يخشى أن تكون قد قررت الهروب من واجها كامرأة لم تعد ترغب في معاشرته زوجها، هذا الاحتمال جعل الدماء تفور في جسده، فأصبح حاراً متعرقاً حتى وصل إلى درجة الغليان، وهي

اللحظة التي يظن أنه في طريقه ليرتكب مجزرة فيما لو سارت الأمور على نحو سيء، صار يقذف نفسه باحثاً عنها وسط الظلام، فيصطدم بالجدران والنوافذ كقط محبوس في حجرة زجاجية، ظل هكذا يتخبط وقد أعماه الغضب والشبق حتى سقط مجهداً مستسلماً في إحدى الزوايا، تمدد كجذع ميت، صار صدره يعلو ويهبط كالمصاب بالربو، زحف كحيوان جريح حتى أحس بنعومة الفراش تحت جسده، أرخى ذراعيه بإهمال وتقاعس على الجانبين، وقعت كفه بالمصادفة على عضو حي قاسٍ، تشبث به بأمل كغريق يتشبث في لوح خشبي، قدم بشرية عارية، سلطانة تنتظره منذ قليل على الفراش بينما هو يتخبط في الظلام كالمجنون، أفاقت كل خلاياه الميتة، وتحرك جسده تلقائياً، متخذاً الوضعية الصحيحة. كان طاغياً مسيطراً، فيما ظل الجنين يرفسها من الداخل، وهو يرعشها بلا توقف من الخارج، ظلت تصيح من الألم والمتعة، وهو يقول واللعب يذوب في فمه:

لن يدوم الأمر طويلاً، أعدك بذلك.

أجابت بصوت خافت كأن هنالك من تخشى أن يسمعها:

الجنين يوشك أن يقطع جدار بطني، إنه لا يريدك أن تلمسني.

ليفعل اللعين ما يشاء، لا ينبغي أن يكون حائلاً بيننا.

استمر عمله الحيواني الجامح بعض الوقت، حتى انطفأت جذوة ناره المشتعلة، فارتد عن جسدها المنهك مسترخياً جانباً، مضى يسترد أنفاسه المتقطعة وقواه المبعثرة، أحس في البدء بالارتياح والغرور، أخيراً استطاع أن يقتحم جسد سلطانة، ويقهر الشيطان الصغير الكامن في أحشائها، اعترف

لنفسه أن ذلك ألد لقاء حظي به منذ زمن طويل، في تلك الأثناء، أحس بلسع مؤلم بين ساقية، مد أنامله بحذر، حتى لمس عضوه الرخو الذابل، كان الألم الحاد يقرصه في منطقة الحشفة، أحس بسائل لزج كثيف يغطيه ويقطر منه. قام يمشي مفرشخاً ساقيه صارخاً بذعر، كانت الغرفة معتمة والسراج بمكان ما على الرفوف، والبحث عنه لن يجدي في ذلك الظرف البغيض. سألته سلطنة عما جرى له، لكن الألم لم يسمح له أن يجيب عليها، تلمس طريقه إلى خارج المنزل، وسار متخبطاً عارياً تلفح جسده أنسام الليل، وقف محتاراً تحت النجوم المضيئة، انحنى ونظر إلى فرجه، لم ير شيئاً واضحاً، نهض الكلب دغمار متعجباً من شكل سيده، وظل على مسافة آمنة يهز رأسه، ناصباً أذنيه الصغيرتين باهتمام، ظل سرحان متردداً محجماً عن طلب المساعدة، أين يذهب في ذلك الليل المهيمن، وهو بهذا الحال الشائن؟! كان الألم أقسى من أن يحتمله، فاضطر أن يقطع الدرب المؤدي إلى منزل الفقيه مرشد، لأنه الوحيد الذي يقوم بمداواة جروح الأهالي، كما يصنع التمام للأطفال، ويشاع إنه يأخذ المال مقابل تعاويد سحرية للحب أو البغض بين الرجال والنساء، لكنه يخفي كل مهاراته، خائفاً أن يطير خبره إلى العامل أو قاضي القضاة في قضاء يريم. لا يدري هل يقبل الفقيه مرشد أن ينظر في جرحه الفريد من نوعه، أم سيوصد الباب في وجهه بمجرد أن يراه عارياً؟ في الأول والآخر، كيف يمكنه أن يفسر ما حصل له؟

لحسن الحظ لم يصادف أحداً في طريقه، تسلل إلى جوار منزل الفقيه مرشد، وبالكاد أستطاع أن يرفع راحته ويقرع الباب، ثم سقط فاقداً وعيه، وهذا أعفاه ساعتها من عبء الشرح والتفسير. عندما أفاق في الصباح، كان ممدداً

على فراشه، رأى سلطانة تظهر فجأة ثم تختفي، كان رأس العضو ملفوفاً
وسط قطعة كتان أبيض أو شيء ما ناعم، بعد قليل من الوقت، سمع صوت
الفقيه مرشد يستأذن بالدخول، ما لبث أن دخل إلى الغرفة، واستقر قرب
رأسه هامساً:

.هذا جزاء عادل لمن يجبر زوجته على لعق ذكره.

.لِمَ تقول ذلك؟

.الأمر واضح، الأسنان اخترقت رأس العضو، لا تظن الجرح تافهاً، لقد نزفت
كثيراً من الدم.

.أنت تمزح، لا ريب في ذلك، لم يحدث شيء مما تظن، لقد وضعت السيف في
غمده وحسب.

.وكيف تفسر آثار الأسنان؟

.لا أدري، لقد حدث كل شيء في الظلام.

.اسمع جيداً، إننا نشارك الشياطين في مساكننا وأجسادنا، وأحياناً ندوس
على أحدهم دون قصد، وهم بدورهم لا يقفون مكتوفي الأيدي.

.آه، أظن هذا صحيحاً، إننا نمشي كالمهائم، لا ننظر إلى تحت أقدامنا، لذا
يمكن أن ندهس أي شيء يصغرنا في الحجم، لكن كلامك هذا يوحي أنني
ضاجعت فرجا شيطانياً. أليس كذلك؟

.العكس صحيح يا سرحان، في حالتك هذي يبدو أن لامرأتك عشيق شيطاني،
وأنها حامل من هذا الشيطان، ولا شك أن عضوك التقى بعضو هذا
الشيطان عندما كان يركب امرأتك.

ظهر الغضب على ملامح سرحان، وسكت وهلة، ثم زفر قائلاً وهو يهز رأسه
باستنكار:

. أرجوك، كف عن المزاح القبيح، ها قد أوشكت على بلوغ الأربعين دون أن
أعرض لشيء فظيع كهذا.

انتفض جسد الفقيه مرشد كأنما أندھش من وجود تفسير آخر وأجاب:

.أنا لا أمزح يا سرحان، هيا، أخبرني إن كان لديك تفسير آخر لما حدث.

. اسمع، أنا اتفق معك أن سلطانه حامل بكائن بغيض، ومنذ أن أستطاع
تحريك أطرافه أعلن الحرب عليّ، وما إن أدنو منها حتى يرفس بقوة، مفسدا
عليّ كل الليالي، لكني البارحة فقدت صوابي، وقد رأيت بعينيك كيف كانت
العاقبة. حتى صرت أخشى مولده وأتخيله يمسك بتلابيبي ويقذفني أرضاً أو
يخنقني، ولا أدري بعد أهو ولد أم بنت أم شيطان؟

. رأيت.. هذا الجنين من صنع الشياطين، إنهم يشاركوننا في نساءنا أيضاً،
ولعلك لا تستعيد بالله منهم قبل الممارسة.

. بالتأكيد، أنا لا أبتهل، لأنني في تلك اللحظات لا أملك شيئاً من العقل لأفكر في
الله أو الشيطان، ثم أي شيطان غبي أو أعمى سيفكر بمشاركتي في سلطانه!
ليذهب إلى أرملة بضعة مشتعلة مثل زكية.

تأوه الفقيه مرشد حين سمع اسم زكية، وأجاب:

. لا أحب أن تتحدث عن زكية هكذا، سلامتها من كل شر، آه، ليتها تلين وتقبل بي، لكنها تنشد الكمال، وكما يقول المثل: المتشرط¹ يخرج من السوق خاوي اليدين، آه، آه، قلبي يؤلمني عليها.

مكث برهة يتأوه ويصيح عمامته، ثم تابع:

. لا عليك من هذا، الأجدرك بك أن تدهن جسد امرأتك بدماء كبش أبيض خالص مبخر، ثم تغسلها من مياه سبعة عيون تحيط بالقريّة، فهذا سوف يبعد عنها الشر، يفضل أن تقوم بذلك في شهرها الأخير.
. ماذا عني أنا؟ عضوي ...

. أنت، لا شيء، عضوك سيعود كما كان، ابتعد عن زوجتك الحامل، اشغل وقتك بشيء ما، ضاجع نفسك، ضاجع امرأة ما، أو خيال امرأة. لا شأن لي...
قاطعها سرحان هامساً:

. اخفض صوتك، لا أريد أن أعود ثانية إلى قرية مزنة لتطاردني الكلاب، سلطانة لن تسمح أن تدخل امرأة إلى حياتي ولو بالخيال.
واستدرك هامساً بصوت ضارح:

. أرجو أن تفعل معروفاً آخر، اكنم هذا الخبر، لا أريد أن يعلم أهالي الرباط بما حل بي، سأكون مضغّة في الأفواه، هذا أمر مخجل.

¹ الشخص الذي يضع شروطاً عالية للسلعة التي يريد أن يبتاعها من السوق.

. أيها المخبول أتمنى ألا تكون سعيدة قد أفشت الخبر، لأنها هي التي فتحت الباب وعثرت عليك ملقى على العتبة، مع ذلك سأوصي أهل بيتي بالكتمان كما يجدر بالطبيب أن يفعل.

.ماذا.....؟

خرج الفقيه مرشد تاركاً سرحان ممتقع الوجه مشوش الذهن، تذكر أن عليه أن يبحث عن الكبش الخالص البياض، ولا يجب أن ينسى أنه مدين لصهره قاسم بثمان كبشين، قال في سره بضيق: إنها سنة الكباش، ولا أدري أيضاً ما يخبئه لي القدر هذا العام..

استعد للخروج إلى المطحن الحجري ليشرف بنفسه على سير العمل، سيمضي إلى هناك دون تردد أو خجل، لا شك أن الأهالي يتوقون إلى رؤيته، فالأحداث في قرية الرباط تنتشر عند حدوثها، وأحياناً يكون هناك من يتنبأ بها قبل وقوعها، إنها البقعة الوحيدة في الأرض المأهولة بالسكان التي تخلو من الأسرار. إنها قرية صغيرة هامشية وسط هذا العالم المضطرب، وهذا يجعل أهاليها القلائل يلتقون مرات عديدة في اليوم، أو على الأقل يصادفون بعضهم بعضاً، يحدث هذا في الظروف العادية، أما في حالة حدوث شيء ما، فإن النوافذ تفتح وتطل منها رؤوس الجارات، ويومئ لبعضهن، ثم يجتمعن لدى الجارة التي تحمل أكبر قدر ممكن من المعلومات حول الحدث، يجمعن رؤوسهن ويتحدثن بخفوت، ثم تنصح كل جارة جارتها أن تكتم السر، وتكون هذه إشارة مبطنة بالإسراع في إذاعته، عند ذلك لا يغمض لهن جفن في المساء حتى يسمع به الصغير والكبير في القرية، في صباح ذلك اليوم، أخرجت

سعدية رأسها وأشارت إلى صديقتها فاطمة امرأة الكبير عون، والأخيرة أشارت
لزكية، وأطلت رؤوس أخريات وسمعن بالاجتماع، وهكذا أفاقت قرية الرباط
على خبر إصابة عضو سرحان الطحان، واتفقت الأنباء حول الموضوع الذي
أصيب فيه، وتضاربت حول ما جرحه، وكل شخص جاهل أو وغد ماكر يأتي
ليسأل النساء عن الحادث، وأول سؤال يتبادر إلى الذهن، في أي موضع
أصيب سرحان؟ كانت الشابات يتبسمن وينظرن إلى بعضهن بمكر ويبادرن
بالإجابة: "لا أدري"، أما النساء المسنات فكن ينطقن اسم العضو دون
مواربة، لكن بعض الأوغاد مثل عاطف ابن الكبير عون، جاء يسأل أكثر
النساء شبقاً وجرأة وهي زكية، فأجابت بغضب:

. اسأل أمك فاطمة.

وبعد وقوع الحادث، كانت زكية هي المخولة للعمل في المطحن الحجري، وقد
رشحتها سلطنة ووافقت على عودتها للعمل في المطحن، حتى سرحان المصاب
استغرب، وسألها عن سبب تراجعها عن قرارها السابق، لكنها لم تجب، بدا
سلوكها مريباً، فقال هو الآخر ناكثاً عهده السابق: وأنا لا أريد ولداً ذكراً، بل لا
أريد هذا الجنين، ولن أتخل عنك.

عادت زكية إلى العمل بكل بساطة وغموض بعد انقطاع دام بضعة شهور،
كانت سعيدة وهي تطحن وتغني، فيتخرج جسدها البض مع إيقاع هدير
المطاحن، راحت تفكر في رب عملها الجريح، وفيما جرى له، الأهالي يقولون إنه
تعرض لعضة قاسية في عضوه، لكنهم لم يتفقوا على نوع الكائن الذي جرحه،

ولما حضرت اجتماع الجارات سمعت إحداهن تزعم أنها عضبة شيطان، وأخرى أكدت أن الجنين هو من عضه أثناء الجماع، وهذا أثار سحابة من الضحك والسخرية. أفصحت هي بكل جرأة عن رأيها الخاص حول الموضوع، أشارت إلى أن فرج سلطانة لم يعد رطباً فعلاً، إذ حولته الولادات المتكررة وصروف الزمن ونزوات سرحان إلى عضو قاسٍ مسنن، بحيث صار من الأعضاء الأكثر تلفاً في جسدها، وبالكاد تستطيع بواسطته البول وإثبات أنها مازالت أنثى، بدا واضحاً من حملها الأخير أنها أضحت خاوية كعجف نخلة جافة، لا تحوي شحمة ولا لحمة، ممتصة ناشفة وخشنة كإسفنجة، لا يظهر منها سوى بطنها المتكورة باستمرار، حتى بات جماعها من الوسائل التي يعذب بها سرحان نفسه وضميره كمن يقترف ذنباً.

وهنا في المطحن تمننت لو استطاعت أن تجيب على رغبته في الزواج من أول وهلة. لكن المرأة جبلت على المناورة والمساومة، وعلى من يريد أن ينالها أن يطاردها ملياً، لكن في حالتها وسرحان لم يعودا في العمر أو المزاج الذي يساعد على مثل هذه الألاعيب. لقد حل العقل محل القلب. في ذلك النهار تحدث إليها وهو غاضب، باغتها بطلبه أمام حشد من النساء، لم يكن من اللائق أن تجيب بنعم، أو تقول هيا بنا إلى الفقيه مرشد لنكتب عقد الزواج. كان ينبغي أن يستغل فرصة أخرى تكون فيه بمزاج جيد، لكنه بدلاً عن الإلحاح أغلظ لها الرد، وأعفاها عن مساعدته، ثم مضى إلى مزنة ليعيد سلطانة، ناهيك عن وجود أربع فتيات في منزله وعدد من الحيوانات، مع ذلك لا شيء أقسى من البقاء في وضع أرملة، تحاصرها الظنون السيئة والليالي الجدباء، في يوم ما فارقها والداها، وذهبا إلى المقبرة، تاركين لها منزلاً كبيراً،

وعدداً من الحقول تعيش من محاصيلها، ولأنها وحيدة وكسولة اضطرت أن تؤجرها، في سن العشرين، زفت إلى محمد عوض، لكنه مات بمرض مجهول بعد عام واحد فقط، ثم تزوجت سعيد قطن، الذي سرعان ما خاضت معه مواجهة ضارية وصلت إلى حد التقاضي في يريم، وما لبثت أن أذاعت أسرار عجزه وذبول عضوه الدائم أمام الجميع، ففر في أحد الأيام من القرية واختفى خبره، ومنذ ذلك الحين، قررت أن تعيش حرّة وحيدة، ناهيكم أن المتقدمين للزواج لا يخلون من العيوب الكبيرة، إما كبار في السن، أو شباب فقراء يطمعون في جسدها ومالها، وكان آخرهم هو سرحان. وقد بعثت إليها سلطانة إشعاراً بالابتعاد عن زوجها وعن العمل في المطحن، لكنها كانت قد ابتعدت عنه قبل هذا الإشعار، ولم تجد ضرورة لإنذارها بذلك، لأنها لم تفكر في رب عملها كزوج، بل كانت تظنه - رغم تحرشاته - ذابلاً خاوياً، لكن الجرح الذي أصابه جعلها تنتبه إلى أن هذا الرجل في عوز شديد إلى امرأة مشتعلة مثلها، علاوة على ذلك، فهي عاقر لن تثقل منزله بالمزيد من الأطفال، إنها امرأة مناسبة لرجل شبق يصبو إلى المتعة والحب.

أصبحت الآن تعمل بتصريح من سلطانة، لا تدري لماذا عدلت الأخيرة عن قرارها! انقطعت أفكارها حين أقبل سرحان إلى المطحن، كانت مشيته متزنة طبيعية، جلس على كيس حبوب في الزاوية، مضى يراقب سير العمل، ويتسلم الأجرة، بل وساعد زكيه في الجزء الأخير من اليوم، في آخر النهار، كانا وحيدين ينظفان أحجار المطحن مما علق بها من نثار الطحين، حلق عليهما الصمت بعض الوقت، صار كل منهما ينتظر أن يتكلم الآخر، بادرت هي تقول بصوت متعب:

.تبدو اليوم في حال أفضل.

أجاب موافقاً:

.نعم، لقد عاد كل شيء إلى طبيعته.

على نحو مفاجئ مالت باتجاهه، وضربت صفحة كتفه بدلال ومضت تقول:

.أنا مساعدتك المخلصة، ولا أدري بعد ما أصابك.

بدت في تلك اللحظة مهياة تعرض نفسها عليه، فجذبها بلا شعور وضمها إلى

صدره وأجاب مشيراً إلى الأسفل إشارة لم ترها:

.إنها مجرد عضة صغيرة هنا تحت، فرج سلطانة غدا مسنناً غير صالحاً

للاستخدام، لقد بدت أخيراً تتصرف وكأنها تريد أن تقول: ضاجع من تشاء،

دعني وشأني وحسب.

.ولكن هل مازال يعمل؟

.لا أدري، هل تريد أن أجرب هنا؟

أشار إلى وسطها، وتشبث بها أكثر، فمدت أناملها خلسة ولامست ذكره كما لو

كان ذلك عفو الصدفة، ثم أبعدها بذعر مقصود، لأنه كان منتصباً، وسألت

بمكر:

.هل مازال عرض الزواج قائماً؟

أجاب بلا شعور:

.نعم..

.أوصد الباب إذن ولتسقط السماء على الأرض.

فعلاها فوق أكياس الطحين والحبوب، كائنان محرومان أستبد بهما الشبق حتى حولهما إلى حيوانين هائجين، ظلا يتماوجان حتى تناثرت الحبوب على الأرض وتطاير غبار الطحين وغمرهما تماماً، علا الصراخ والشهيق، وسمع إلى الخارج، وازدحم بعض الفضوليين عند باب المطحن، وحاولوا عبثاً اقتحام الباب الموصد، ثم انتظروا بيأس، وفجأة فتح الباب وخرج كائنان أبيضان مخيفان، رافعين أيديهما في الهواء باستسلام. لكن الأشخاص الواقفين أمام الباب فروا صوب منازلهم، وقد اختلط في أذهانهم ما رأوا قرب المطحن، وما سمعوه عن أسطورة الأشباح الملتخبين بالطحين الذين يهاجمون الأطفال المبذرين العابثين، أولئك الذين كانوا في الحكاية يرمون قطع الخبز ويدوسونها بأقدامهم، ترددت في القرية قصة الشبحين الأبيضين اللذين يخرجان بعد غروب الشمس من المطحن الحجري. وهذا جعل المكان آمناً مغلفاً بالأمور الرهيبة.

في يوم، وبينما سرحان يعمل في المطحن الحجري كالعادة، أتى من أخبره أن سلطانة مريضة، فذهب إلى منزله للتو، ووجدها على الفراش مستلقية تتلوى أماً مثل دودة منتفخة. وقف حائراً، وسمعها تصرخ في وجهه:

.لا تقف شاردأً كالأبله، افعل شيئاً.

.ماذا أفعل؟

.اجلب الحجة بدرة، هيا، تحرك، إنه شهري التاسع.

وجد نفسه خارج المنزل، استمر يدور حول نفسه للحظات، ثم عرف ما عليه أن يعمل، فانطلق مسرعاً إلى الحجّة بدرة، واستدعاها، فهرولت خلفه رغم ضخامة جسدها، استقام متردداً عند مدخل الحجر، فدفعته جانباً طالبة منه المغادرة، فالرجال لا عمل لهم في مثل هذه الظروف. وفرح بهذا الشأن، وسار وسط القرية، حتى وقف قرب منزل الفقيه مرشد، وهناك تذكر أمر الكبش الأبيض، ومياه السبع العيون، كيف نسي ذلك؟ تساءل في سره، هل فات الأوان؟ عاد إلى الزريبة، وأخذ الحمار وجراب الماء المطاطي الأسود، وإناء صغيراً، سار بلا حماس يبحث عن العيون المحيطة بالقرية. كانت المهمة شاقة، وبعض العيون تحتاج للوصول إليها أن يسير في طرق وعرة، رغم ذلك، اغترف من كل عين قليلاً من الماء، ولم يبق سوى عين واحدة بعيدة، وهي العين السابعة، وجدها تسيل من وهدة قاسية وسط مرتفع صغير يدعى قطام، حاول أن يضع قدمه على أول نتوء يؤدي إلى الأسفل، لكن ساقه تصلبت، ودب الذعر في جسده، بحيث خائته شجاعته. وندم أنه لم يجلب سلالم خشبية تساعد على الارتقاء.

كان يعرف أن الاستمرار في المحاولة هو نوع من العبث وإهدار الوقت، حتى لو تمكن من الوصول إليها بمعجزة، فإن النزول منها يكون مستحيلاً، وهكذا عاد يائساً متمنياً أن تنفع مياه العيون الست التي جلبها، رغم ذلك كان هناك جانب مظلم خبيث مختبئ في أعماقه، فهو يتمنى أن يحقق حلمه في الزواج من زكيه، لكن سلطنة تبقى حجر عثرة في طريقه، لن يستطيع أن يقول لها بكل بساطة أن ترحل من منزله ليتزوج بامرأة أخرى، لقد عاشا معا في ظروف قاسية، وزارا الكثير من الأولياء والسحرة من أجل أن ينجبا ولداً ذكراً. ماذا

تفعل أكثر من ذلك؟ عشرة أعوام من العيش المشترك تحت سقف واحد هي عائق كبير، ولا يمكن نسفه بسهولة من طرف واحد، ودون أسباب وجيهة. ناهيكم أن الاتفاق السابق بينهما ألغي، لقد تركته وشأنه، وهو وعدّها ألا يتخلى عنها حتى إن أنجبت فتاة خامسة. ماذا يملك من المبررات للانفصال عنها؟ ربما يقف أمام الكبير عون أو الفقيه مرشد ليكتب وثيقة الطلاق، ويقول متذرعاً:

"نضب الحب بيننا، لم نعد نلتقي على الفراش"

وقد يجيب أحدهما هازئاً:

"ومن هذا الذي مازال يحب زوجته أو يعاشرها أيها المخبول؟ إننا نعيش معاً لأسباب أخرى"

وفي غالب الظن، لن توافق سلطنة على الطلاق بالتراضي، لن تأبه أن يعيشا العمر كله في غرفتين منفصلتين، وفي جفاء دائم، ناهيكم أن شقيقها قاسم وأولاده، محترفون في صناعة المشاكل في الظروف العادية، فكيف في أيام الخصام! وهم يملكون بندقية تشحن بالبارود، لها صوت رهيب يصم الأذان، وتطلق ناراً مميتة محرقة، ليس هناك سوى خيار البقاء وسلطانه تحت سقف واحد، وما دامت علاقته وزكية قائمة، فهذا هو المطلوب، هو الآن بمنتهى السعادة، وزكية، وسلطنة أيضاً. ولكن ماذا يفعل لو ضغطت عليه زكية ليتزوجها، سيفعل ذلك عن طيب خاطر، لتكون الثانية، نعم، لن يكون مجبراً للانفصال عن سلطنة، الناس هنا يتزوجون بأكثر من امرأة رغم سخف الأمر، وإن رفضت زكية، فهذا شأنها، وإن رفضت سلطنة، فذلك شأنها، في

النهاية هو من يتخذ القرار. لِمَ يشغل نفسه بالتفكير بهذا الشأن؟ مازال لديه متسع من الوقت، لم تحن المنغصات بعد. ماذا عليك أن تفعل الآن يا سرحان؟ نعم، الكبش، الكبش الأبيض المبخر الناصع البياض.

أخيراً وقف عند زريبة حمود الذيب، وابتاع كبشاً أبيض، أطلق حول جسده البخور، ثم مر على الفقيه مرشد، وقال له بقنوط:

.ها هو الكبش، وها هي مياه ست عيون، لقد تعذر عليّ الوصول إلى العين السابعة.

.مياه العين السابعة ضرورية.

.لقد فعلت كل ما في وسعي.

اقترب الفقيه مرشد من الكبش بلا حماس، وتلا بضع عبارات غريبة عليه، ثم ذبحه وجمع دماءه في طشت معدني كبير، وتلا عبارات أخرى على الدماء، صار جسده ينضح عرقاً غزيراً، وجبينه يلمع كالمرآة، قال أخيراً بصوت ضعيف محبط:

.اذهب لتدهن جسدها كله بالدماء، ثم اغسلها بالماء، وهذا كل ما عليك فعله.

سار سرحان على عجل، كانت القابلة تضرب وجهها وتقول إنها عجزت عن توليدها، أمست تغدو إلى منزلها لتجلب شيئاً وتعود إليها بين فينة وأخرى، ظلت سلطنة تصرخ باستمرار، فخلع ملابسها ودهنها بالدماء ثم غسلها بالماء. وخرج ليمارس عمله تاركاً مهمة رعايتها لجارته روضه والقابلة.

أخذ سرحان يحاول أن ينتزع حصاة علقت بين الحجرين الكبيرين المدورين دون جدوى، ثم جاء نفر من الأهالي، ورفعوا الحجر الأعلى بجهد بالغ، مد يده لينتزع الحصاة، فانزلق الحجر فجأة من أيديهم ووقع على كفه، أطلق صرخة ألم رهيبه، وأعتم وجهه حتى صار كمؤخرة قِدرٍ محترق. هب الرجال ورفعوا الحجر قليلاً، حتى تمكنت زكية من تحرير كفه المهروس، نظرت إليها برعب. كانت هناك طبقة أرجوانية من الدماء تغطي راحته وأصابعه الغليظة، تقلصت ملامحه ألماً بعد أن زال الأدرنالين والخدر المصاحب للحادث، وغمرت الشفقة وجوه المحيطين به، وراحوا يتأملون الكف المحطم بانقباض، ولا يدركون ما بوسعهم أن يفعلوا لمساعدته.

لسوء الحظ إن الأشخاص ذي الخبرة لا يتواجدون في وقت وقوع الحوادث، وقد يأتون متأخرين أو لا يأتون البتة. خرجت أصوات الرجال عالية مضطربة من حناجرهم، ترى أين يكون الفقيه مرشد في هذه الساعة المشؤومة من الصباح؟ صرخ الجميع على الجميع، انظروا في منزله، في حقوله، اجلبوا بغلة نجيم عوضاً عنه. الوقت ينفد. الجرح ينتفخ، والدم ينز من بين الأظافر. ينبغي فعل شيء لهذه الكف المجتهدة التي تطحن الغلال، لولا هذا الرجل ستضطرون إلى حمل أكياس الذرة إلى أماكن بعيدة لطحنها، أو تلتهمون الحبوب كالدجاجات حتى تتلف أمعاؤكم. جلب النداء المزيد من الرجال والنساء والأطفال، ماعدا الفقيه مرشد، طالما يحضر الناس عديمو الجدوى ليضيفوا عبئاً مضاعفاً وازدحاماً لا طائل منه.

أصبح الجو في غرفة المطحن لا يطاق، العرق يغشى الوجوه ويصب من الجباه والأذقان الكالحة. كانوا يتحركون في أماكنهم، يتصفحون الجريح، أو يخرجون

لاستنشاق الهواء، أو لمجرد النظر إلى الجهة التي سيأتي منها المعالج، المصاب هو الوحيد الذي ظل ساكناً ممدوداً فوق أكياس الحبوب واقعا في غيبوبة عميقة، لم يكن مرئياً كما يجب، لأن منافذ الضوء سدتها الأجساد، أحيانا تبرز حزمة ضوء عند تلاشي شخص أو شخصين عن المدخل، ثم سرعان ما تحجبها أجساد أخرى. لم يجرؤ أحد على لمس الكف الجريحة، لكنها ظلت محور اهتمامهم، يتناوب الجميع على حراستها من الدهس أو الاحتكاك الخشن، ظلوا يصرخون على بعضهم، احذروا، انتبهوا، أنت قريب جداً، حاذر يا رجل...

أخيراً أتى الكبير عون، يتبعه الفقيه مرشد، وهذا بعث الأمل في النفوس، تقدم الأخير لاهتاً مشمراً أكمام قميصه فاضاً الزحام بمنكبيه حتى وصل إلى سرحان، عند ذلك لطم وجهه تعبيراً عن غيظه وصاح:

.اجلبوا الجريح إلى الخارج أيها الحمقى، انظروا هل مازال حيّاً.

كان هذا الأمر الأخير باعث رعب، سرعان ما حملوه والخجل يكسو نظراتهم الفارغة المعنى، كيف نسوا أن يتأكدوا إن كان مازال يتنفس أو يتحرك. أسرعوا يضعون شيلانهم على الأرض ليصنعوا فراشاً ناعماً له تحت ظلال بناء المطحن، انحنى الكبير مرشد ملصقاً أذنه على الصدر الساكن، ولم يسمع شيئاً سوى خفقان قلوب الأشخاص المحيطين به وشهقات أنفاسهم، كاد أن يلتفت إليهم لينبئهم عن موت سرحان الطحان، لكن الكلمات وقفت على طرف لسانه، وبدلاً عن ذلك تناول بيأس كوب ماء من كف أحد الرجال، ودلقه في وجه الرجل الساكن، فأفاق سرحان وراح يسعل، ويتأذى كطفل خرج

للتو من رحم أمه، انفرجت أسايرهم وضحكت عيونهم، وساعده على الجلوس وسمعوه يصيح بصوت غائر مجهد:

.سلطانة في مخاضها منذ بضعة أيام.

أقفل الرجال عليه باب الحركة وأمسكوا ذراعه لافتين انتباهه إلى كفه المهروس، وهتف الكبير عون من وسط الحشد:

.رزقت بولد على ما أظن.

.أنت تمزح، أو تحاول التخفيف من ألمي وحسب.

بدأ الفقيه مرشد يضمم الكف ويقول:

.نعم، لديك ولد، لا تتلكأ الآن، وهات البشارة.

.لا أصدق ذلك.

قالها والفرحة تشرق في وجهه ببطء، رغم ذلك حرك يده الشمال، ومدّها إلى جيبه، أخرج بقشة دسها في كف الفقيه مرشد، وهو يتفرس في ملامحه ليستمد مزيداً من اليقين، تحرك الكبير عون متقدماً خطوة ليرز نفسه، قائلاً باحتجاج:

- أنا بشرتك أولاً، أين بشارتي؟

مد سرحان يده إلى جيبه وقذف بقشة أخرى في الهواء، فالتقطها أحد الرجال وساقها بغيرة واضحة إلى كف الكبير عون الممدودة، ظل سرحان يتعجل النهوض يكاد قلبه يطير من الفرح، لم يعد يشعر بالألم، ولما انتهى الفقيه

مرشد من تضميد كفه انتصب كالطود، وراح يركض باتجاه منزله يحدوه توك كبير لرؤية وليده الجديد، ذلك الولد الذكر الذي انتظره طويلاً. مازال غير مصدق تماماً.

وجد نفسه أمام منزله، دخل وقلبه يوشك أن يسبقه، كان هناك سرب من الجارات والأطفال الداخلين والخارجين، وفي الصالة الوسطى الطويلة، رأى جارتة روضة، تحمل طفلاً وليداً أحمر الوجه، مغمض العينين كجرو، يبدو غير مميز الملامح مثل كل الأطفال الرضع حديثي الولادة، لكن علامة التشاؤم من الحياة بادية على صفحة وجهه الضئيل، بدا وكأن ضوء النهار يؤدي جسده الطري الذي اعتاد ظلمة الرحم، تقدم الأب بدهشة نحو الرضيع فتعثر بشيء ما غامض، نهض متبرماً ولم يجد شيئاً معيقاً، فاستعاذ بالله من الشيطان، ومضى إلى وليده بعزم، فسارعت روضة تقول:

ولديا سرحان، ما شاء الله، مثل البدر.

نعم، أخيراً أنجبت سلطانة ولداً.

تأمله قليلاً كأنما يفحص صحة قولها، ثم فتح الخرقه ونظر إلى بين فخذه، وشع وجهه بشراً وفخراً، انحنى وطبع على عارضه قبلة وحيدة وقعت على معظم وجهه، ثم رفع رأسه سريعاً خوفاً من أن تفسر جارتة الطيبة طول زمن القبلة بقرب رأس الرضيع من ثديها البارز. رمق إلى جارتة بشيء من الأسف، بحيث فهمت أنه كان يود أن يحمل الولد لولا كفه الجريح. انتبه باستغراب إلى وجود الصغير بعيداً عن أمه، التفت ناحية الغرفة التي حدث فيها المخاض،

وسأل عن حال سلطنة، ترددت روضة، كان القلق بادياً كشمس في ملامحها. واكتفت بالقول: مريضة، تنزف.

بدت الغرفة مكتظة بالنساء، وبأبها يبدو مسدودا، تذكر الزحام الخانق الذي كاد أن يهلكه في المطحن الحجري، فالزحام لا يفيد المريض كما يظن الناس الذين يأتون للمساعدة، لكنهم لا يفعلون شيئاً سوى الفرجة وشفط الهواء النظيف، وإفراغ عرقهم وروائحهم النتنة في الجو، وكلما زاد عدد المسعفين قرب مريض تقل فرصه في النجاة، سرعان ما صعد شيطان الغضب إلى رأسه، وراح يقذف النساء جانباً بيده السليمة قائلاً:

. اتركن للنفساء بعض الهواء، هيا، أخرجن.

بقيت أربع نساء على رأسهن الحجة بدرة، كن يجلبن الخرق ويحاولن إغلاق الفتحة التي يتدفق منها الدم، قام بفتح النافذة الوحيدة في الغرفة، فدخلت موجة باردة منعشة من الهواء، كانت النساء الأربع مغسولات بالعرق، وكذلك الجدران، وحتى النفساء الشاحبة المجهدة. كان واضحاً أنها تدبل وتدوي، وبالكاد أومأت برمشها الواهين إلى الخارج، صاح سرحان على روضة، فأقبلت ووضعت الطفل على صدر أمه، فأشرق وجهها قليلاً، ونظرت إلى زوجها نظرة انتصار، فهم سرحان مغزاها، فقال بنبرات مضطربة:

. سلامتك قبل كل شيء. سأكون سعيداً أكثر حين تتعافين.

لوت شفتها بسخرية مريرة وارتسم الأسى على صفحة وجهها الأصفر، نظرت إليه واهتزت شفتها كأنها تحاول أن تقول له شيئاً ذا أهمية، لكن حالها لا يسر، لقد كانت تحتضر، نقلت الكلام إلى عينيها اللتين مازال بهما رمق،

حدقت إليه باهتمام مشيرة إلى الأسفل، لم يفهم شيئاً، فارتسم الحنق في وجهها إلى جانب الألم واليأس، أعادت المحاولة، واستدعته بهزة ضعيفة من رأسها ورمشها فاقترب منها حائراً حتى وقف فوق جسدها الخامل المشلول، أمسك راحتيها الباردتين، حينئذٍ نظرت إلى صدرها وتصلبت عيناها وتوقفت نظرتها هناك.

إثر ذلك توقفت النساء عن العمل، وخرجن من الغرفة مولولات، فأطبق عينها وفكها وهو يغالب غصة ألم وحزن. وقال لنفسه بأسى: ماذا أرادت سلطانة أن تقول في لحظاتها الأخيرة، أشارت إلى صدرها! ماذا يوجد هناك يا ترى؟ مد أنامله برهبة إلى تحت قماش صدر زوجته الساكنة، فأمسك سلسلة ولما رفعها تجلت أمامه تميمة أطفال، نزعها وتأملها قليلاً، ثم وضعها في عنق الولد، جاءت النساء وسحبته من موضعه إلى الخارج، وأتى الرجال وحفوا به، وراحوا يعانقونه وينطقون بكلمات مألوفة تنم عن المواساة والأسف، جعلوا يتحركون حوله بمتابرة محاولين تسليته وإلهائه عن مصابه وإشعاره أنه ليس وحيداً.

في ذلك اليوم، أتى قاسم وأولاده العشرة وأخذوا قريبتهم الميته قسراً إلى مزنة، لم ينظروا ولو بشكل عابر إلى الرضيع، ولم يقدموا كلمة عزاء أو مواساة واحدة للزوج وبناته، بل لم ينطقوا عبارة في ذلك النهار، حتى ظن أهالي الرباط أن تلك طريقة أهالي مزنة في التعبير عن حزنهم، لكن سرحان، وهو الأكثر دراية بهم، أحس بالشر جلياً في عيونهم، أقبل أهالي القرى المجاورة إلى الرباط ليحضروا الجنازة ويتلون الأذكار وسورة يس، وهناك وقفوا خائبين، ثم واصلوا سيرهم إلى مزنة. سار أهالي الرباط إلى مزنة أيضاً، يتقدمهم الكبير

عون وسرحان، إذ ليس من اللائق ألا يحضروا التشييع، استقبل قاسم وأولاده التعازي، وقفوا في صف واحد طويل لمصافحة المعزين، بينما وقف سرحان في آخر الصف كقريب من الدرجة العاشرة، لم يسلم من نظرات الازدراء في مزنة. كان أهاليها لاسيما قاسم وأولاده ينظرون إليه بغضب وكأنه تسبب في موتها، سرعان ما عاد إلى قريته عقب الدفن.

أتت زكية إلى منزله للعزاء، ومسحت على رؤوس اليتيمات الأربع، أرادت أن تقول بضع كلمات للزوج المحزون، لكنه رفض أن يستقبلها، أو يلقي في وجهها نظرة خلال أيام العزاء العشرة. رآها بعد ذلك تنتظر قرب المطحن الحجري، مر جوارها صامتاً، وفتح الباب ودلف إلى الداخل، دخلت وراءه دون أن تنطق شيئاً، كانت هي الأخرى واجمة شاردة تظن أنه بدأ يخلق الذرائع للتنصل من وعده بالزواج. بدأت أكياس الذرة والشعير والحبوب الأخرى مكدسة تنتظر دورها في الطحن. جلس في موضعه المخصص أمام قطب المطحن، واستعد للعمل قائلاً بوهن:

لو تصبى بعض الحبوب يا زكية، ينتظرنا عمل كثير.

أفرغت كيس حبوب على وعاء المطحن، واستعدت في موضعها المخصص لاستقبال الطحين. فتمهد وأضاف كأنه يبرر تصرفه معها:

قبل أن تموت هزت رأسها بسخرية، كأنها تقول: أفهم ما يدور حولي، يمكنك أن تضحك على امرأة أخرى.

لم تجب زكية بحرف واحد، فأردف مخففاً من نبرته المتشائمة الحزينة قائلاً:

. رغم ذلك لست نادماً على كل لحظة ممتعة قضيناها معاً، لم تكن الفريدة
تستطيع تحمل نزواتي. لذا لم أخنها إلا مضطراً.

ومض الشك والحنق في عيني زكية الكئيبتين، نكست رأسها إلى الأرض دون
جواب، فاستطرد غاضباً:

. أرجوك، أفصحي عما يجول في نفسك.

. ماذا أقول أنتم الرجال تقولون كل شيء وتفعلون كل شيء، ثم تتحولون في
النهاية إلى أنبياء وقديسين، النساء فقط هن القحاب.

ضحك بصوت عالٍ، ثم أمسك فجأة حين تذكر حزنه، وأجاب بعجب:

. ما هذا الكلام الغريب الذي أسمعته؟ إنك حقاً جريئة، وتتقنين حرفة الكلام.

. وهل كنت غير ذلك! لكنك ستحولني إلى امرأة خرقاء.

. وكيف سأفعل ذلك؟ أنا لا أفهم شيئاً.

. هيا، حرك القطب، ستفهم في يوم ما، مازال لدي أمل في ذلك.

حرك القطب بالكف الأيسر، وبدأ العمل، لكنه في عالمه الباطن كان يقوم
بأعمال أخرى افتراضية.

(2)

أصبح منشغلاً بنفسه وطفله الرضيع، وبما أنه يقدم خدمات الطحن للأهالي، ويمر بمأساة الترميل، عرضت عليه عدد من المرضعات احتضان الصغير، أولى هؤلاء هي تقوى المرضعة الممتلئة التي تظن أن حليبها يكفي عدداً من الأطفال، جاء الطفل اليتيم إلى منزلها مثل حمل وديع غريب، حين ضج بالبكاء أفاقت رضيعتها من نومها ومضت تبكي بحرقه، غضب رب المنزل ولم يغمض له جفن في تلك الليلة، ما سبب له نوبة من الخمول والتثاؤب أثناء عمله في الحقل، حين عاد إلى المنزل، طلب من زوجته أن تعيد الطفل الدخيل إلى والده، لكنها استثارت عطفه قائلة:

. إنه يتيم يا ناصر، يمكنك أن تصبر بضع شهور، من العار أن نعيده لمجرد أنه يبكي، فالأطفال في هذا العمر يبكون.

. بكاء هذا الولد له رنة خاصة مزعجة، أخشى أن يكون إرضاعه فأل شؤم علينا كما كان على والده ووالدته.

. اصبر، ولا تتشائم، نحن جميعاً كنا أطفالاً، أنت نفسك كنت طفلاً بكاءً مزعجاً.

أثمرت مزحتها ولطفت الجو، حتى إنه تبسم وهو في عمق حنقه، في يوم عاد من الحقل مبكراً، ووجد الطفل هادئاً يرضع بهناء، فمال نحوه وجعل يقرص خده بخبث وغيره، ويناغيه قائلاً بسخرية:

. أيها الماكر الصغير، هل صحيح أنك فأل شؤم على عائلتك؟ لا أصدق أنك
قضمت عضو والدك، لأنك ببساطة لا تملك أسناناً.

ما كاد يرفع إصبعه عن وجنة الصغير حتى ندت صيحة ألم من امرأته،
وأوشكت أن ترمي الطفل أرضاً. كان ثديها الأيسر يقطر دماً، جن جنون الزوج
وهو يرى خدشاً على حلمة الثدي، أنبأها عن صدق مخاوفه، باتت ترعبها
فكرة عودته إلى قضم حلمة الثدي ثانية، أسرعته به إلى منزل سرحان في
المساء، وانتظرها زوجها خارج المنزل ريثما ترمي به إلى حضن والده دون أن
تلقني على الأب تحية المساء، لكنها ألقّت التحية على سرحان، ووضعت
الصغير بحذر إلى جانبه، قائلة بأسف:

. كنت أرغب في الاحتفاظ بالرضيع، لكنك لن تصدق إنه عض الثدي حتى
سال الدم.

نظر إليها بأسف وأجاب بارتياح:

. يا للعجب، كيف يفعل ذلك؟

. لعلك لا تيقن بعد، انظر حتى لا تظن أنني امرأة لا تملك قلب الأم.

أظهرت ثديها، وامتلك سرحان من الجرأة ليرفع السراج إلى قرب الثدي
المصاب، ثم مد أنامله وجسه برفق بالغ كطبيب. كان هناك خدشاً حول
الحلمة الحمراء، أبعده السراج وقال مهوناً عليها:

. أشعر بالأسف لأجلك يا تقوى، لكن ما حدث لك لا يقارن بالعضة الرهيبة
التي أصابتني من الولد، مازالت آثار الأسنان بارزة إلى الآن. هل أريك العضة؟

ضحكت، ونظرت إلى ابنته صفية التي كانت تنظر إليهما بفضول الطفل الحاذق، أجابت بارتباك:

. في المرة القادمة، ابنتك هنا تنظر إلينا، وناصر ينتظرنى في الخارج. لقد تأخرت.

انسلت إلى الخارج وهي تضحك، لماذا تضحك؟ سأل سرحان نفسه بعجب، وحين أدرك سبب ذلك غمره الخجل. كيف نسي أنه أصيب بالعضة في موضع حساس لا يجوز أن يراه أحد.

وعرض الصبي على مرضعات أخريات، لكن الخبر تسرب في القرية، وخشيت كل امرأة على ثديها، وجد سرحان نفسه مع الطفل العاثر الحظ وحيدين، وضع كفه على خادعه، وراح يفكر في قصص الأولين والآخرين عسى أن يجد شيئاً مشابهاً لما يحدث له، لكنه لم يعثر على شخص وقع بهذه الورطة التي هو فيها الآن. في محاولة أخيرة، طلب من روضة أن تجلب للرضيع حليباً من بقرته، وأجدى هذا نفعاً لمدة شهر كامل، حتى عثر على بقرته نافقة في مأواها، لمحت روضة أنياب أفعى الهضبة المرقطة على ساق الحيوان. وتحولت إلى بقرة سعدية فحلبتها، وزودت الصغير، ثم انتقلت إلى بقرة أخرى، وفي يوم ثالث سارت إلى بقرة ثالثة في منزل آخر، أمست تحرص على تنويع الأبقار حتى يتوزع الشر ويتوه في دوامة التنقل والاختيار العشوائي، لكن نفوق الأبقار أضحى عشوائياً مثل اختيارها تماماً، وراحت النسور تحوم في سماء القرية بشكل دائم، حتى ظن الأهالي أن هناك أفعى واحدة ترصد أبقارهم، فظلوا بدورهم يترقبونها دون جدوى، فكر آخرون بالبواء، لكن روضة كتمت السر عن

الجميع، ثم باحت لسرحان أنها تخشى أن يربط الأهالي بين الطفل ونفوق حيواناتهم، وهذا جعله ينفر من كل شخص يحاول الاقتراب منه، لم يشأ أن يصاب أحد غيره بالنحس، أخبر زكية بالحقيقة، وبعد أن سمعت ذلك، قالت بصوت مستهين:

.كل هذه الأشياء يمكنها أن تحدث، ولا تعني شيئاً.

أجاب بصوت حازم:

. أرجوك، ابتعدي عني بعض الوقت، لن أسامح نفسي إن حدث لك مكروه. انظري ما حل بسلطانة.

. لا أكثر.

. ابتعدي أيتها الساذجة.

فر سرحان الطحان من أمام مساعدته مثل أرنب بري، ونال منها اليأس، فقررت أن تبتعد عن هذا الرجل المجنون المرتاب الذي يبالغ في الشكوى، ومع مرور الأيام تنفق علاوة عن الأبقار، المعز والشيء التي تُحلب من أجل الولد اليتيم، وأوشك الأب أن يفشي السر لأرباب الهائم النافقة، لكنه خشي أن يطالب بأثمانها وهو لا يملك في منزله مالاً يستحق الذكر، لقد ذهبت أمواله خلال رحلاته السابقة إلى قبور الأولياء والصالحين، وإلى أيدي السحرة والمعالجين من أجل الحصول على هذا الولد الذكر، وآخر ريال أنفقه في مزنة مقابل كبش الترضية، راح يتعامل مع طفله بخشونة ظناً منه أن الأشخاص الذين يتعاملون معه بلطف يمنون بالخسائر والأضرار، لكن على العكس لم

تفلح هذه الوسيلة، بل تفاقم الشر أكثر، وأتى نحوه فاغراً فاه حتى كاد أن يودي بحياته.

في يوم قريب هجم قاسم وأولاده على القرية، جاءوا بشكل مباغت من إحدى الطرق الخلفية، اقتحموا المطحن الحجري، واقتادوا سرحان صوب منزله بصورة مهيبة، كانت البندقية الموزر المتهاكة مصوبة إلى ظهره، كان ذلك أقصى تهديد يمكن أن يطال إنسان أو قرية أو حتى مدينة، غدا ذلك السلاح العتيق بمثابة كارثة وشيكة الحدوث، انتشر الخبر سريعاً في القرية، وولدت النساء، وحُشر الأطفال داخل منازلهم في الزوايا الآمنة البعيدة عن النوافذ، وأوصدت الأبواب، جعل أهالي الرباط يلطمون وجوههم لهول المصيبة، ثم زحف الرجال بحذر نحو منزل سرحان الطحان، اختبئوا خلف جدران المنازل المجاورة، وراحوا يختلسون النظرات الحذرة نحو المنزل المحاصر.

كان أولاد قاسم يحرسون الطرقات خوفاً من هجوم مباغت من الأهالي بينما ظهر سرحان مربوطاً على عتبة باب منزله، وقاسم يصوب فوهة البندقية إلى صدره ويهز الماسورة ويصيح:

.أريد ثمن الكبشين، ادفع عشرة ريالات كي أحرك.

سد الأهالي آذانهم وانحنوا نحو الأرض لاتقاء صوت الانفجار الرهيب، كان المشهد مرعباً وقاسم وأولاده يضيقون الخناق على غريمهم الساكن المائل الرأس، بدا إنه فقد وعيه منذ وقت مبكر، مُد أشهرت البندقية إلى صدره، أو حالما سمع المبلغ الكبير الذي سيدفعه ثمناً للكبشين، لم يكن هذا المبلغ في

حوزته، ولا يملكه أحد من الأهالي، ولعل الموت أرحم في مثل هذه الحالة، سأل أحد الفلاحين باستغراب:

.متى ارتفعت أسعار الكباش إلى هذا الثمن؟ لعله يقصد ثورين وليس كبشين.

أجاب فلاح آخر قائلاً:

. بغلة نجيم بستة ريالات، آه، لو يظهر الإقطاعي الآن، ويقرض سرحان الريالات العشرة.

وفي هذه اللحظة خف ارتعاشهم، وصاروا يفكرون جدياً في إنقاذ صاحبهم، نظروا إلى الكبير عون، لكن وجهه الأصفر وجسده الراجف أفقدهم الأمل، سارت نظرات الاستغاثة إلى وجه الفقيه مرشد، فرد بصره إلى قدميه قائلاً بانكسار:

. الأسحار والتعاويذ لا تعمل في الحديد، بارود البندقية أسرع من التعويذة وأفتك من السحر.

اقتربت اللحظات الحاسمة التي وعد قاسم أن ينفذ تهديده بإطلاق البارود على وجه سرحان الطحان، تلفت الأهالي حولهم بيأس، ونظروا إلى كل شيء في محيطهم، لكن زمن المعجزات ولى إلى غير رجعة، وبقي الواقع بمرارته ولؤمه، ردوا أبصارهم بيأس إلى الحقيقة الماثلة بين أيديهم، وشرع البعض منهم يقرأ الفاتحة على روح سرحان، لأنهم لن يستطيعوا قراءتها فيما بعد، فالانفجار سوف يصم آذانهم أو يشل أفواههم وعقولهم، وأتى صوت قاسم المهول:

.انتهت المهلة، ولا أحد يحبك يا سرحان ليسدد دينك.

وشحن البندقية بواسطة سنارة رقيقة خاصة، ثم رفعها في الهواء، فانبطح القرويون أرضاً، وأخذوا يسدون آذانهم ويصرخون بذعر، فارتفعت فوهة المسورة إلى وجه سرحان، ولكن فجأة صدر صوت غاضب:
.انتظر أيها النذل.

رفع الأهالي رؤوسهم، ولما رأوا الشخص القادم عضوا شفاهم، ونظروا إلى بعضهم بدهشة، وصاح الكبير عون بغضب:

.ماذا تريد زكية أن تفعل؟ فليمسكها أحدكم قبل أن تتسبب بكارثة للقرية.
لم يجرأ أحد على اعتراض طريقها حتى وقفت أمام قاسم، ما لبثت أن قذفت الريالات العشرة إلى كفه وهي تقول:
ريالاتك.

أمر أولاده بفك وثاق سرحان، ثم تملى جسد زكية بافتتان، وسألها بعجب:
من تكوني أيتها المليحة؟

.لا شأن لك من أكون، لقد أخذت مالك، فخذ أطفالك وارجل من قريننا.

شهر أولاده فواريعهم في وجهها، فأوقفهم قائلاً:

.لا، إنها امرأة، مازال لدينا مهمة أخيرة، هاتوا الصبي الذي قتل عمتمكم سلطنة، لكي أحرق جسده بالبارود.

صعق أهالي القرية مما سمعوا، وأفاق سرحان عند هذه اللحظة، وحاول أن يمنعهم، لكنه لم يتمكن من النهوض، أمسك قاسم البندقية، وصوبها إلى

جسد الطفل بلا رحمة، وضغط الزناد، لكن البارود لم ينطلق، رفع البندقية بيأس، وتجمع أولاده حول البندقية لمعالجتها، امتدت أيديهم إليها بعجلة وتهور، فدفعهم والدهم صارخا:

.ابتعدوا أيها البغال. البنادق غادرة...

قاطع حديثه صوت البارود المرعب، وسقط أحد الأولاد محترقاً، بينما انبطح الأهالي وساد الهلع والصراخ، عوى قاسم مسرعا إلى ولده، وطلب أن يحمل إلى طبيب لإنقاذه، لكن الفقيه مرشد أقبل من خلف أحد المنازل، وفحص الجسد المحترق، ثم نظر إلى قاسم بيأس، تشجعت زكية وفكت وثاق سرحان، وسحبت الصغير بعيداً، في تلك الأثناء، خرج الأهالي من مخابئهم، وانتشروا في المكان، شجعهم على ذلك خلو البندقية من البارود، وانهبوا معنويات قاسم وأولاده، الذين ما إن وجدوا أنفسهم محاصرين بالفلاحين الغاضبين، حتى أخذوا الجثة إلى مزنة مؤثرين السلامة.

بدأ سرحان يفكر جدياً في الزواج بعد بضع شهور، لكن المشكلة تكمن في الملل والعيش الرتيب الذي يتسلل إلى الحياة الزوجية، في مقابل ذلك هناك فراغ شاغر في منزله، وكلما دخل يكون الجو هادئاً وبناته يتحركن بكآبة، جارتهم روضة تبدد طاقتها وتتكبد كثيرا من العناء في منزلها، ثم في منزله، تبذل جهداً ملموساً مضمناً دون شكوى أو منة، توزع نفسها ووقتها بين المنزلين بطريقة عجيبة، تعد الطعام، تطعم البنات الصغيرات، تغسل الصحون، تكنس المنزل، وترش المدخل بالماء حتى لا يطير الغبار إلى الداخل، فضلاً عن غسل

الملابس، تحميم الفتيات، وأعمالاً أخرى صغيرة تظهر في ظروف وأوقات مختلفة، الولد الرضيع وحده بحاجة إلى شخص يقف بجانبه على الدوام، والبحث عن الحليب شاق جداً بعد نفوق الحيوانات، لا يدري كيف تقوم المسكينة بكل هذه الأعمال، حتى الحمار تهتم به والكلب أيضاً، أصبح يخشى أن يقتلها العمل في منزله، بات من أجلها في عذاب، راح يفكر جدياً في تحريرها من عبء الواجب الثقيل الذي تعجز عن حمله جميع الجارات، صار زواجه عملية إنقاذ لروضة، زكية هي المرشحة الوحيدة في نفسه، يهفو إليها كعشيقة لا كزوجة، يظن أن العلاقة بها أجمل خارج عقد الزواج، إذ تتبدى العيوب لدى الشريكين عقب الزواج، ويصاب الطرف الأقل خشونة بالأذى، لكنه لم يعد يخشى على نفسه بعد الآن، لأن حياته أضحت مليئة بالمنغصات والأخطار، ولا ضير من إضافة خطر آخر.

في المطحن الحجري خاطبها قائلاً:

.أنا مدين لك بحياتي يا زكية.

أجابت مازحة:

.وماذا أفعل بحياتك؟ أنت مدين لي بعشرة ريالات هي كل ما لدي من ثروة.

.عشرة ريالات قدر كبير من المال، كيف استطعت جمع هذا المبلغ؟

. ستة مهر الزوجين السابقين، والأربعة الريالات الأخرى لملتها باولة باولة

وبقشة بقشة من غلال حقولي ومن أجر العمل في مطحنك.

فكر قليلاً ثم قال بجندل:

لو كنت زوجتي كنا وفرنا هذا المبلغ.

ضحكت وأجابت:

لماذا الزواج؟ أنا أعطيك جسدي كلما تريده وأنت تسلمني جسدي وأجر العمل.

نعم، هذا صحيح ومغري، ولكن أليس اللقاء أجمل على الحصار والخطط الناعمة، أم أنك أدمنتِ المعاشرة فوق أكياس الحبوب.

نعم، أدمنت ذلك، وأحببته، ولكننا حقا نريد أن نفعلها في كل وقت، ونتجرد من ملابسنا ...

هذا صحيح، لقد أفزعنا أهالي القرية وظنونا شبحين.

ضحكت بغنج وسكتت، بعد ذلك ناقشا المسائل المالية للزواج، الحلية، الخاتم، عقد الفضة الموشى بحبات الكهرمان الحمراء، ثوب الزفاف، ثوب من الدمس الأسود والخز المكشكش المزين بالألوان المشرقة، عصابة الرأس، وجزمة جلدية مرتفعة الأرضية مقبقة الكعب، أغلب هذه الأشياء يمكن استعارتها توفيراً للنفقات، ويمكن استعارة بغلة الإقطاعي نجيم لتركبها العروس لإضفاء نوع من الهيبة على موكب الزفاف، طعام الوليمة يتكفل به الجيران كما جرت العادة، ومن الضروري ذبح كبشين للضيوف المحتملين، وآخر يذبح عند عتبة المنزل لكي تدوس العروس على دمائه قبل أن تدخل، كما يجب أن تكون ساعة الدخول مليحة يحددها الفقيه مرشد، لكنه للأسف لن يبارك هذا الزواج لأن عينيه كانت على العروس، لذا لا يمكن الركون إليه في

عمل حساب الساعة السعيدة للدخول، بل يُخشى أن يصنع للعروس شيئاً سحرياً يمزج في قهوتها لتكره العريس، ولا تسلم له جسدها.

الأقارب يمكن الاستغناء عن دعوتهم ليبق العرس يسيراً هادئاً، غير أن نجيم لا يفارق بغلته، عليهم الانتباه إلى ذلك، وهو برفعة شأنه لا يمشي وحيداً، بل يحف به الأتباع وعدد من الأجراء والمتملقين الذين يطيب لهم السير مع الإقطاعي الشهير لسبب أو من دون سبب، وفي هذه الحالة لن تكفي ثلاثة كباش للغداء، إذن من الأفضل الاستغناء عن البغلة، فالمسافة بين منزل العريس والعروس قصيرة، وبوسع موكب الزفاف أن يتقدم سيراً على الأقدام، هناك ثلاثة ريات تدفع من أجل المهر، وهذا المبلغ سيُسلم إلى كف العروس، لأنها لحسن الحظ لا تملك أقارب من الرجال، لديها فقط شقيقات متزوجات إلى قرى بعيدة، ويمكن دعوتهن لتبرئة الذمة، ولتحاشي أي عتب، ولا يمكن لومهن في حال تخلفن عن الحضور، لأن الزواج سيقوم على أبسط الوسائل، والتخلف عن حضوره يعد نعمة لا أكبر منها، فالضيوف لهم مطالب ينبغي أن تلبى، وستقدم لهم وجبات مجانية كالطعام والشاي، لذا ليس من الضروري دعوة أي ضيف للحضور، لأن هذا الزفاف هو الثاني للعريس والثالث للعروس، ومثل هذا النوع من الأعراس يتم بشكل صامت وسريع، ومع ذلك يجب الاحتراس من ضيوف الغفلة، وبعض هؤلاء الأشخاص من الأصدقاء والمعارف الذين يظنون أنفسهم بمنأى عن الدعوات، ويزعمون أن صداقتهم أكبر من أن يُدعَون، وأن الواجب هو الذي يدعوهم للحضور لتشريف العريس أو العروس، وإدخال البهجة إلى نفوس أهل العرس، لكنهم لا يعلمون أو يتجاهلون إن عدم حضورهم هي البهجة ذاتها، وفي هذه الحالة، يجب

التكهن بعدد هؤلاء، وتأمين كبش إضافي يركن جانباً في إحدى الزرائب القريبة، ويكون هذا أكثر حصافة من تجاهل الأمر، لأن البعض منهم يكونون أقارب من الدرجة التاسعة أو العاشرة، تكون الصلة بهم قد اضمحلت أو انتهت منذ زمن، لكنهم يستدعونها في مثل هذه المناسبات، ويكون هؤلاء وأولئك عادة من الشطار والفهلويين طليقي اللسان، حتى يقال إن لهم قرابة مع الشيطان الأكبر، والفقير مرشد نفسه يروي أنهم مثل شطار بغداد في حكايات ألف ليلة وليلة، يسرقون الكحل من العين، والخواتم من أصابع اليدين، يفعلون ذلك أمام الجميع وهم يضحكون ويمرحون، لكن ما يقال في الكتب ليس كله حقيقياً، ومهما يكن من أمرهم، لا يجب أن يعطون وزناً أو اهتماماً، لأنهم لا يمكن أن يعيقوا العرس، وهم رغم ذلك قلائل ولطيفون أحياناً، وفي العادة لا يأتون إلى الأعراس الصغيرة، بل تروقهم الولايم الكبيرة، ولا يرمون أجسادهم إلا على الفُرُش الوثيرة في المجالس الواسعة.

مسألة أخرى لم يتم التطرق إليها، وهي ملابس العريس، بل إنها ليست ذات أهمية، ويمكن استعارتها، يكفي مقطب مصبوغ بالنيلة الزرقاء أو الحمراء، وحزام يتوسطه خنجر باهظ الثمن، وعمامة بيضاء تحف بها مشاقر الريحان، وشال يتربع على الكتفين، ونصف هذه الأشياء متوفرة لدى العريس، وعند غسلها وتجميلها ستبدو جديدة مؤهلة للاستخدام، ولا يجب أن ينسوا أن العروس ينبغي أن تستحم وتزين، ويمكن أن يعدوا المزيينة بمقدار بقشة تدفع في وقت لاحق، وستهتم بالعروس وتجعلها مثل الأميرات في الحكايات الشعبية.

لقد نوقشت غالبية الأشياء المادية التي تبادرت إلى الذهن، وهناك أشياء أخرى لا ريب لم تخطر في البال بسبب النسيان، وغيابها لا يؤثر، بقي مجموع المال الذي يحتاجون إليه، عشرة ريالات تخميناً، هناك عَجَل في زريبة العريس سرحان سيتم بيعه، وشراء كبشين صغيرين، علاوة عن توفير ريالين، كما يمكن اقتراض ريالين، وتفتيش الخزانة المظلمة لتجميع البقش المنسية والمهملة والضائعة، ولعلها تبلغ ريالاً ونصف على أكبر تقدير، والعروس ستساهم من أجل جهازها بثلاثة ريالات لم تفصح عن مصدرها، وبعض الأهالي يتعاطفون في مثل هذه المناسبات، وقد يتبرعون بريال أو ريالين، والبعض يدفعه ضميره لتسديد جزء من أجرة الطحين التي يدين بها للمطحن، في الخطوبة، على سرحان أن يطلب يدها من الكبير عون، لأنه كبير القرية وولي من لا ولي له، ولن يكلفه هذا شيئاً سوى خاتم فضي بنصف بقشة، وبقشتين سيدفعها للكبير عون الذي سينوب عن والد العروس الميت، وبقشة للفقير مرشد ليكتب عقد الزواج، ومن المحتمل ألا يقبل لأن عينه كانت منذ زمن طويل على العروس، وهذا الزواج بالنسبة له كارثة. لقد تم تحديد كل شيء، وأغفل الطفل الرضيع الذي لم يحمل اسماً حتى الآن، وهو مجرد رضيع عاجز، لكن يجب أخذ النحس المحيط به في الحسبان، لذا اقترح العريس أن تذهب العروس لتسلم على الصغير، وتأخذ إذنه في الانضمام للعائلة، وإلا فإنها ستعرض لمكروه.

عند هذا الجزء ضحكت زكية من كلامه حتى دمعت عيناها، وعندما رأت الوجوم في ملامحه كتبت ضحكها، فأصر على أن تنجز مهمتها في وقت مبكر من ذلك النهار، إنها مهمة يسيرة، قُبلة صغيرة صادقة في خد الطفل، وبضع

كلمات تخبره فيها أنها سترعاه وتعتني به أعظم اعتناء، حبست زكية ضحكها ثانية حتى لا تغيظه، واستمرت تباشر عملها وهي تظن أنه يمزح، ومع ذلك ستجاريه وتزور الصغير من أجله، ومضت تفكر في أمور أخرى، فجأة دخل بعض الأهالي المطحن، وطلبوا أكياس طحينهم، لكنها مازالت في الانتظار ولم تطحن بعد، فآثار هذا غضبهم، وجعلوا يسألون عن سبب تأخرها، أشار سرحان إلى كفه المهشم الذي لم يبرأ تماماً، ومازال يؤلمه حين يقبض على قطب المطحن، كان يجب تذكيرهم ببعض الأحداث التي أعاقت سير العمل في المطحن، كان البعض يتفهم، والبعض يتهم سرحان ومساعدته بالانشغال بأمور أخرى غير الطحن، ويهددون بنقل حبوبهم إلى مطاحنهم الصغيرة المتربعة على دكاك منازلهم، فأبرما وعداً صريحاً بسرعة طحن حبوبهم، ليس عليهم سوى الانتظار يوماً واحداً فقط. اندفع سرحان أمامهم يحرك القطب بسرعة مستخدماً كفه الأيسر، وكذلك بذلت زكية جهداً مضاعفاً، وترتب على ذلك كثيراً من الإرهاق لهما، وهذا كله من أجل الحصول على المال اللازم للزفاف، واتفقا على أن يأتي هو والكبير عون في الغد لخطبتها وكتابة عقد الزواج، ليتم الزفاف في نهاية الأسبوع، ولعل يوم الخميس هو المفضل عند سائر الناس.

بدت زكية متعبة جداً حتى أنها غفلت أن تمر على الصغير، علاوة على أنها لم تكن تؤمن إن المرور عليه أمر في غاية الأهمية، وحين تذكرت ذلك في منزلها، قالت في سرها: أوه نسيت أن أمر على الشيطان الصغير. ونامت للتو لكي تصحو في وقت مبكر لترى الصغير، ثم تتأهب لاستقبال الخاطبين.

نام سرحان قرير العين، وصحا عدة مرات خلال الليل، وفي آخر مرة قرب الفجر، قام واغتسل وتطيب بمشاعر الريحان المتربعة على أصص طينية فوق سطح منزله، وشغل نفسه بشرب القهوة التي أعدتها له جارتة روضة، فهي تنهض في الغالب مع غبش الفجر لتعد له القهوة والفتور، واستغربت من نهوضه المبكر، وزينته، قالت بعجب حين قدمت له الفتور الساخن:

.تبدو اليوم متزيناً متطيباً.

أجاب بفرح وقد سره اهتمامها:

. نعم، تعرفين أنني لا أطيق العيش بلا رفيقة في منزلي، الرجل هنا بحاجة إلى امرأة تعتني به وبأطفاله.

انبلجت أسايرها وقاطعته بارتباك:

. أنا هنا إلى جانبك أعني بالصغيرات وأقوم بكل الأعمال في منزلك، هل سمعتني أشكو أو أخل بواجباتك؟

. أنت ترهقين نفسك كثيراً، لديك منزل وبنات وحيوانات، لا أدري كيف تقومين بأعمال منزلين بجسد واحد وذراعين.

. هذا سهل جداً، لدي فاطمة في الرابعة عشرة دربتها على أعمال المنزل منذ وقت مبكر، ويسعدني أن أحل مكان صديقتي سلطنة وأهتم ببناتها وبك أيضاً.

فوجئ بتلميحها وتبريرها للبقاء في منزله، فأجاب بتلبك:

. لكنك أرملة يا روضة، والنميمة تنهش أمثالنا، لذا يجب على كل أرمل أن يتزوج قبل أن يدنس، وقد وقع قلبي على امرأة عاقر لن تنجب لي مزيداً من الأطفال.

انتفضت روضة وصاحت بحدة:

.زكية، أهي المرأة المقصودة؟

.صحيح، إنها هي، أليست مناسبة لي؟

.لكنها اعترضت على طلبك يوماً ما في المطعم.

.اعترضت أمام الطاحنات، لكنها قبلت حين حدثها على انفراد.

. إنها امرأة مغناج تهتم بجسدها أكثر من أي شيء آخر، حقولها مؤجرة للآخرين، أتظن هذه الكسولة مناسبة لك؟

. سأجرب حظي معها، لقد أهلكت زوجاً، وشردت آخر، وأنا الثالث، مازال مصيري مجهولاً، انتظريني يا روضة، إن نجوت منها ستكونين عروسي، فأنت مناسبة جداً وغير متطلبة.

ضحكت وأجابت بجزع وهي في طريقها للخارج:

. حالما تنجو أو تهلك قد أكون عند رجل آخر، لكن الأعمى يبحث عن الماء وهو بين يديه.

لم يهتم كثيراً بجزع جارتها، لأنه لم يعدها قبل ذلك بشيء، أخذ فطوره وشرب مزيداً من القهوة، كان الوقت مازال مبكراً على الخروج، لذا راح ينتقل من

.ماذا تريد يا سرحان من صباح الله؟

.أريد أن أتزوج زكية.

.لِمَ لا، نزوجكما على الرأس والعين.

ثم فكر قليلاً واستدرك:

.هل تريدها هذه الليلة؟

.اليوم نخطبها من نفسها، وتزف إليّ ليلة الخميس.

سارا صوب منزل زكية، هناك وجدا مجموعة من النساء يدخلن دارها بخطى سريعة مخيفة، فانبعج قلب سرحان نصفين، وعندما دخلا كان الفقيه مرشد يضمذ ذراعها الأيسر، وهي بالكاد تستطيع الحركة، سمعا أنها تعثرت على السلالم، وتدحرجت حتى أسفل الدرجات، ما أدى إلى كسر في المرفق وأضرار في الأضلاع والساقين وفكشة في الرأس سال منها الدم، ويتم معالجة وتنظيف الجروح الظاهرة، أما الأضلاع والساقين فلم يجرؤ طبيب القرية على النظر إليها رغم أنه بدا راغباً في ذلك. توقع سرحان أنها لم تقم بزيارة الصغير كما نصحتها، ونظر الكبير عون إلى وجهه المكفهر بيأس، لكن سرحان لم يشأ أن يتأخر موعد العرس مهما كانت الظروف، فأخرج بقشة أخرى ودسها في كف كبير القرية على غفلة من الحاضرين، ولاحظت زكية ذلك. فتبسمت على مضض ولانت ملامح سرحان، وشع الأمل في نفسه، وهمس في أذن الكبير عون قائلاً:

.انظر، إنها تبسم، هيا افعل شيئاً.

ثم وضع بقشة الثالثة في كفه قائلاً بإصرار:

لن أفوت ليلة الخميس القادم، ولو كانت ميتة.

لوى الكبير عون شفطيه متبرماً، ثم نفش جسده ليبدو مرئياً، وتقدم نحو الموضوع الذي ترقد فيه زكية، فأفسح الجميع له مجالاً للعبور، وسأل بصوت أجش:

هل تستطيعين النهوض يا زكية؟

أراد الفقيه مرشد أن يجيب، فأجابت بألم:

لا أدري، سأحاول.

مد لها ذراعه فاستعانت به، وقامت ببطء وحذر، وخطت بضع خطوات، فهال ذلك الجميع الذين ظنوا أنها ستظل طريحة الفراش بضعة أيام بفعل الأضرار الظاهرة على جسدها، وقال الكبير عون بفرح:

إنها في صحة تامة، يا للبشرى، بالإضافة إلى إنها ليلة الخميس ستكون عروساً، وستزف إلى منزل سرحان الطحان، زغردن يا نساء.

زغردت النساء بعد لحظات من الدهشة، واكتسى وجه سرحان بالبشر والفرح، وهربت زكية من أمامهم كما تفعل الفتيات المخطوبات في الأرياف، بديا سعيدين مندهشين كما لو كان ذلك زفافهما الأول، استغربت النساء من خطواتها السريعة المتزنة، وكأن ذلك الخبر كان الدواء السحري لجراحها. وفي الطريق قال الفقيه مرشد بحنق:

ألم ترى يا كبير عون ذراعها المكسور معلقاً بخيط إلى عنقها؟

نعم، لقد رأيتَه يا مرشد، لكنهما سيتزوجان، لن يتبارزا بالأيدي.

حدج الكبير عون سرحان بنظرة حادة وأضاف:

يكفي أن تضمها إلى صدرك برفق.

ضحك سرحان وأجاب مازحاً:

لن يسرها الرفق والبطء أيها الكبير، سأتعامل معها بخشونة كما أتعامل مع أحجار المطحن.

انتفض جسد الفقيه مرشد وصاح بغيرة واضحة:

لقد اعتنيت بعضوك الصلب كقطب المطحن، ولو كنت عرفت نواياك الخبيثة لكنت أزلته من موضعه ورميته للقطة.

ما ذنبي أنك كنت تريد تلك المرأة للزواج، لكنك لم تجرؤ أن تواجه زوجتك سعدية بالحقيقة.

أنت أكثر خبثاً يا سرحان، إذ تقاعست عن إيجاد مياه العين السابعة، لقد تعمدت أن تفعل ذلك لكي تهلك سلطنة، لكني لم أفعل مثلك رغم غزارة علمي وحيلي، لأنني إنسان ذو قلب رحيم.

كن عادلاً يا مرشد، لقد فعلت ما بوسعي لكي أنقذها، الطفل هو من فعل ذلك.

صاح الكبير عون بغضب:

ما هذا الذي أسمع؟ أي طفل تقصدان؟ ماذا يدور في قريتي دون أن أعلم.

رد سرحان رافعاً يديه بتوسل:

. أرجوك أيها الكبير، غض الطرف عن هذا الأمر، لا أريد أن تتورط بسماع شيء كهذا، أخشى أن يصيبك مكروه.

.لن يتم الزواج حتى أعرف ما يجري.

.وأنا لن أخبرك شيئاً حتى نكتب عقد الزواج وليسامحني الله.

وعادوا إلى منزل زكية وطلبوها للحضور، وكتب الفقيه مرشد العقد مكرهاً بخط مثل خربشة أقدام الدجاج، وطلبوا الشهود، وجاء اثنين من الجيران ووضعوا اسميهما على الورقة، ووضع سرحان الخاتم بحذر في بنصر ذراع زكية المكسور، ثم أخرج من جيبه حبيبات الزبيب ونثرها فوق رؤوسهم، ورفض الفقيه مرشد أن يتناول حبة زبيب واحدة احتجاجاً على هذا الزواج الذي كتب عقده مكرهاً، كان وجهه يتلبد ويتلون أثناء العقد، ويكلم نفسه أن سرحان قد خدعه، وسبقه إليها، لا شك أن الحياة غير عادلة، وبعد أن خرجوا انسل الفقيه مرشد والشرر يتطاير من عينيه، وسار نحو منزله بخطوات محتدة، وسمعه بعض الأهالي يصيح بهوس: لن أقبل أن يستغفني أحد أو يضحك علي، ومن يفعل ذلك لن يجد ما يسره، وسوف ينال النكد والنحس طوال حياته. ولم يعرفوا إذ ذاك سبب غضبه العارم، وما ينوي فعله.

كان الكبير عون في الشارع يسمع قصة الرضيع الذي بطريقة ما يصيب من حوله بالأذى، فضحك بشدة حتى ارتجت بطنه الضخمة، وارتفعت عدة مرات إلى سواء صدره، قبل أن تعود إلى موضعها في النهاية، وقال بعد أن هدأ هدير ضحكته:

.أمسى الأب يخشى وليده، لم أسمع بهذا من قبل، يا للعجب!

. لا تسخر أيها الكبير، أتوسل إليك أن تزور هذا الرضيع مادمت قد سمعت حكايته، ضع نفسك بين يديه وقل له شيئاً صادقاً.

.هل أنت جاد يا سرحان؟ هل تطلب مني أن أسلم نفسي إلى الرضيع؟

وعاد ارتجاج بطنه الضخمة، ومضى سرحان إلى منزله حزينا، وهناك وجد زكية واقفة أمام الصغير كما يقف المؤمنون المسيحيون أمام الصليب، سمعها تقول:

.يا ظنيني يا روحي سأعتني بك ما حييت.

تأملها سرحان بقلق، إنها زوجته الآن بالعقد، وما حفلة الزفاف إلا وسيلة لإشعار الآخرين أن هذه المرأة باتت مرتبطة بشخص ما. فكر سرحان أن هذه الإجراءات معقدة وطويلة، وظن أن من ابتكرها هو شخص معقد ومضجر، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يضع للتزواج شروطاً ومواقيت.

تساوره أحيانا مثل هذه الأفكار لاسيما حين يكون غاضباً، كانت زكية مازالت قائنة أمام ولده الصغير، ولم تنتبه لزوجها، وهذا أدهشه وحمل إليه نديراً

.أنا أصدقك يا طفلي العزيز.

.ابتعدي عن الرضيع، هيا، ابتعدي.

قامت زكية بتواضع وتسليم كأنها خرجت لتوها من المحراب، مضت إلى منزلها دون أن تنظر في وجه سرحان الممتقع، بعد قليل دب النشاط في روحه، وأحس أن عليه أن يفعل شيئاً قبل الزفاف، فاتجه إلى الخزانة القابعة على الجدار، وجعل يبحث عن البقش والهللات والباولات المهملة، عثر على عدد من العملات المتنوعة ونفض عنها غبار الأعوام الماضية، وحين حسبها كانت ريالاً وربع. ثم بعث إلى أصحاب الديون إشعارات بالسداد، وجلب من الكبير عون الحزام والخنجر والأدوات الأخرى التي يعيرها للعrsان، وجاءت روضة تعرض خدمتها بعد أن زال حنقها، فطلب منها أن تغسل ثيابه التي سيرتديها، ثم ابتاع كبشين متوسطي الحجم، واكترى أحد الأهالي ليطي جدران المنزل من الداخل والخارج، وشارك هو بأعمال الترميم والتنظيف الصغيرة داخل المنزل، وظل هكذا يعمل بانهماك تام حتى نبهه أحد الأهالي في وقت مبكر من صباح الخميس أن عليه ألا يعمل، لأنه غدا عريساً، فاغتسل وتطيب وقطفت المشاقر من أصصها المعدنية وكُللت بها عمامته، وجلب له أحد الأهالي سيفاً ليحمله على كاهله، وأضحى في ذلك اليوم مميزاً عن الجميع.

سرعان ما حف به الأهالي، وتربع على دكة مرتفعة نصبت وسط الباحة، انتبه إلى غياب الكبير عون، واستغرب أن يغيب عن حفل استقبال الضيوف المحتملين، جرت العادة أن يرقص الأهالي في الساحة على دقات الطبول، ويراقبون الطرقات في تاهب كامل لاستقبال القادمين، ورغم احتمال عدم

قدوم ضيوف في هذا العرس إلا أن وجود كبير القرية في الساحة أمر محتوم، فهو لا يتغيب البتة عن الأعراس أو الجناز، ولا يتأخر حتى ذلك الوقت، في تلك اللحظة، أتى أحدهم وأعلن أن الكبير عون لسبب ما لا يستطيع النهوض من موضعه، فهرع الأهالي يتوسطهم العريس إلى منزله، وهناك وجدوه في مجلسه مثبتاً على الأرض، وحين رأهم صاح بانفعال:

. اطمئنوا، أنا بخير، لا أشعر بأي ألم، فقط شيء ما يمسك قدمي من الداخل، ولا يريدني أن أنهض.

انحنى العريس ليرى قدمي الكبير، فنهز قائلاً:

. أنت عريس لا تنحني لأحد، بل الأهالي ينحنون لك ويخدمونك. لقد عجز الفقيه مرشد عن تفسير حالتي، ولم يبق هناك سوى حل وحيد.

وطلب من الرجال أن يحملوه إلى منزل العريس، إلى ذلك الطفل الرضيع الذي سخر منه، ولما كان جسده ضحماً فقد تطوع أكثر من عشرة رجال لحمله، وحف الآخرون للمساعدة في حال أصيب أحدهم بالكلل، حتى وضعوا الكبير بجانب الصغير، فيمم وجهه ناحيته قائلاً باحترام:

. يا بني، أيها الصبي المبارك، لم أتعرض لشيء مماثل في حياتي من قبل، لذا أبايعك كبيراً للقرية، مقابل أن تفك القيود القاسية التي تمسك عضلات قدمي.

. يا يyyyyyyyyyyyy

. ماذا يعني هذا النغاء؟

انبرى سرحان قائلاً بضجر:

.إنه يوافق أن يفك أسرك ولكن...

قاطعته موجة من الضحك، فصاح الكبير عون فيهم بنبرات حادة:

. لا تضحكوا يا مخابيل، إننا في حضرة ملاك أو شيطان، وسوف يرشدنا هذا

الرضيع إلى الصواب أو يتسبب في هلاكنا جميعاً، فتوخوا الحذر.

نظر الأهالي إلى بعضهم البعض باستغراب، لم يفهموا شيئاً، وهتف سرحان

قائلاً:

.لا تعطوا هذا الأمر وز..

قاطعه الكبير عون قائلاً بصخب:

.هيه، لا تشغل نفسك أمها العريس بهذا الشأن وإلا لن تكون أيامك وعروسك

هانئة. هيا، احملوني يا رجال.

في باحة القرية أحس بالقوة وتحرر من أيديهم، وسار بمشية عجولة حتى

جلس في الموضع المخصص له قرب العريس، وكأن شيئاً لم يحدث له، أمرهم

ألا ينشغلوا بأمر هذه المعجزة، لأن لديهم أعمال ووليمة يجب أن يعدوها

للضيوف المحتملين، وراح يوزع المهام والأدوار على الأهالي كما كان يفعل من

قبل، بعد ذلك قرعت الطبول، وبرزت رؤوس الراقصين، وهم نخبة مختارة

من كبار السن، وفي العادة تكون الرقصة الأولى للضيوف، وفي حال غيابهم

يرقص الأكبر سناً من الأهالي، ويقوم الأحفاد بتشجيع أجدادهم وتحميسهم،

هاتفين: "ياسمين للطارف، ياسمين للأوسط، ياسمين لصاحب الجرم الأسود،

ياسمين لصاحب الشال الأحمر....."، وعلى هذا النحو تتواصل الرقصات، والتهافتات، ويسود التنافس بين الراقصين للحصول على ياسمين المفترضة، وياسمين في ذاكرة القرية هي فتاة جميلة تنافس عليها زمرة من الشباب في زمن غابر، وساد بينهم التحدي، فالتقوا في الباحة، وكل واحد يريد أن يثبت أنه الأجدر بالفوز بها، أوشكوا على الاقتتال بالخناجر، صار أولئك العاشقون يدورون حول بعضهم بحذر، ولا يجرؤ أحدهم على الاقتراب من الآخر، أخذوا يدورون حول بعضهم ويقفزون، مرتجلين حركات قتالية هاتفين باسم ياسمين لأنفسهم، وأخيراً ظهرت ياسمين معلنة عن رفضها للجميع، ومنذ ذلك الحين سميت هذه الحركات رقصة ياسمين، وهكذا رقص الكبير عون ونخبة من الشيوخ الذين مازال لديهم القدرة على الدوران والقفز، وكل قريب لهم من الأهالي، يهتف بياسمين لتكون لوالده أو لجده أو لعمه أو..... فكانوا يرقصون بهمة وعزم كأن ياسمين الجميلة مازالت تنتظرهم.

كان ذلك الخميس يوماً من أيام الصيف، حيث بدأت الغيوم السوداء تتكدس في السماء، ثم هطل مطر غزير على القرية عند الظهر، احتموا من المطر خلف جدران المنازل المحيطة بالساحة، أحسوا جميعاً أن الطقس الممطر لا يشجع على قدوم أي ضيف، فرح الأهالي والعريس والكبير عون أيضاً، فهذا فال حسن للأهالي، لأن الوليمة ستكون من نصيبهم، بعد الظهر، قدمت الوجبات المحلية، والبخار الساخن يتصاعد منها، فأكلوا بنهم من دون إفراط، إذ مازال هناك الوجبة الأخيرة المفضلة التي ستقدم بعد وقت قصير، لحم الكبشين اللذين طبخا بعناية، وحشيا بالمكسرات، إنها آخر الوجبات وأشهاها، وستوزع في صحون نحاسية أنيقة، ويضاف إليها الأرز الأبيض لمن

يريد، وفي تلك البرهة أقبل الشخص المكلف بمراقبة الطريق على مشارف القرية، وهو يصيح:

.هناك أشخاص كثر قادمون نحو القرية.

صاح الكبير عون قائلاً بحنق:

.ارفعوا اللحم والأرز، لعلهم ضيوف.

رفعت الوجبة الأخيرة، وودعت عيونهم لحم الكباشين بحسرة شديدة، نهضوا بضجر لاستقبال القادمين. بعد قليل ظهر قاسم وأولاده وسعد المليح وأهالي مزنة. كانت البندقية الرهيبة على كتف قاسم، وبقية الرجال الآخرين مسلحين بالفواريع والفؤوس والعصي، أطلق الكبير عون نداء الترحيب بالضيف، وهو النداء الأكثر شعبية وإغراء في الأرض، بحيث يعجز عن رفضه أفضع المعتدين، ورد سعد المليح جواب النداء بالقبول، وغمز رجاله بحياء فاخفضوا أسلحتهم، بدا أن بينه والكبير عون صحبة ومودة وثقة متبادلة قديمة، لكن قاسم وأولاده لم يخفضوا أسلحتهم، وصاح بحنق:

. إذا قبل سعد الضيافة، فأنا هنا لأخذ حقي من الولد الذي تسبب بمقتل فردين من عائلتي.

رد الكبير عون بلطف:

. اسمع يا قاسم، والد الصبي عريس هذا اليوم، أرجوك، اخفض بندقيتك وتعال لتتناول الكباشين والأرز، فأنت وأولادك ضيوف.

. لا أبالي بالكبشين والأرز، لا بد أن أطلق النار على جسد ذلك الشيطان الصغير.

. احذر، لدى الصبي كرامات، أو لعله محاط بأسحار وتعاويد خطيرة، وكل من يقترب ليؤذيه تحصل له أمور سيئة.

. لا أخشى شيئاً، في المرة السابقة كانت صدفة بحتة، وسأريك جثة الصبي بعد قليل.

وشهر بندقيته في الهواء مثل فرسان العصور الوسطى، وأغار وأولاده على منزل العريس، كأنه يريد أن يحول العرس إلى مأتم، تفصد جبين سرحان عرقاً، وتحرك بجزع لإنقاذ طفله، لكن الكبير عون أوقفه قائلاً بثقة عالية:

. انتظر، لا تذهب، الصبي يدافع عن نفسه، شخص آخر يذهب لياتينا بالخبر، هيا إلى الوليمة، لا يجب أن ندع الضيوف ينتظرون.

تطوع بالذهاب ناصر البكر الذي لا يأكل اللحم، لأنه يصيب معدته بالآلام الشديدة، بينما اتجه الجميع إلى مجلس الوليمة، وشرعوا يلتهمون طعامهم، ونسوا تماماً أمر قاسم وأولاده، بحيث ذهب معظم اللحم والأرز للضيوف، والقليل للأهالي. فجأة دوى صوت انفجار رهيب لا يتصوره العقل، بحيث هز المنزل وقذف الأهالي والضيوف من أماكنهم، وعندما خرج الرجال، كان منزل سرحان الطحّان قد اختفى، ومكانه يتصاعد دخان كثيف من ركام أخشاب تحترق، زحف خليط عجيب من الرجال والنساء والأطفال، وأطفأوا الحريق بالماء والتراب، وانهار العريس أرضاً وهو يرى منزله قد سوي بالأرض، وراح يصيح مستغيثاً بصوت عالٍ:

يقترب أحد أبناء قاسم من الصغير، ليصرخ في وجهه، لكن والده يزجره صائحاً:

.ابتعد أيها الملعون حتى لا أصيبك كما حدث لأخيك من قبل.

يتراجع الابن مذعوراً، ويضغط قاسم الزناد، لكن العبوة لا تنطلق، ويصيح بسخط:

.اجلبوا صندوق البارود، لقد أفسد المطر بارود البندقية.. هيا، لا تقفوا هكذا جامدين.

جلب أبناءه التسعة صندوق البارود الكبير الذي يأخذونه دوما معهم على ظهر بغل ضخم، فتحو الصندوق، وأخرجوا عبوة جديدة، ثم أحكموا إغلاقه، وتركوه مكانه، أخذ قاسم البندقية ليفرغها من البارود، لكن إصبعه وقعت بالخطأ على الزناد، فانطلقت العبوة القديمة بشكل مباغت، وأصاب صندوق البارود، أبدى الكبير عون إعجابه بتفسير ولده عاطف، أخيراً وجد في شغفه بالأسلحة شيئاً مفيداً، ولكن ما لم يستطع أحد تفسيره هو كيف نجا الصغير من الحريق، والحطام.

في تلك الأثناء تذكر الرجال الطفل المعجزة، وتحرقوا إلى رؤيته، ولكن أين هو؟ استعادوا اللقطات السابقة التي شاهدوها قبل قليل، رأوا في إحداها العروس وهي تحمله بحذب وتبتعد وكأنها تحمل شيئاً ثميناً تخشى عليه من السرقة، تذكر الرجال ذلك، ثم ناقشوا الأمر بصوت عالٍ، هكذا إذًا، لقد استغلت النساء دهشتهم وشرودهم، وانشغالهم في رفع الأنقاض، وخطفن الطفل ليحظين ببركاته! فعلى كاللصوص الذين يسلبون أموال الآخرين ويتمتعون بها

دون وجه حق. الأجدد بالرجال أن يحتفظوا بالطفل الصغير، بهذا لخص الكبير عون موقفه، وشجع الرجال على استعادة حقهم المغتصب، فنهضوا غاضبين، وهجموا على منزل العروس، وحاصروه من كل جانب، وطالبوا بتسليم الصبي الصغير، واستعدت النساء للمعركة، وحملن السكاكين والأدوات المتاحة التي يمكن أن تستخدم كسلاح، لكن الرجال كانوا أكثر تسليحاً، والنساء كن أكثر فتنة ومكرًا، استخدمن ابتسامتهن وسحرهن الخالص وسلطتهن الأنثوية، وصارت كل امرأة تسدي إلى زوجها أن ينسحب بحق العيش المشترك والعشرة، فبدأ التأثر يسري في قلوب الرجال، وأخذوا ينسحبون، كما فترت عزيمة الكبير عون الذي وجد نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام زوجته فاطمة، وهي امرأة قوية الشكيمة من عائلة مرموقة في قضاء يريم، والدتها هي الأخت الشقيقة لوالدة الإقطاعي نجيم، ورغم عدم ظهور هذه القرابة، إلا أنها مؤثرة وتستدعي في مثل هذه الأوقات الحرجة، وعلى عكس النساء الأخريات، لم تستخدم فاطمة سحرها الأنثوي في إقناعه بالانسحاب، لأنها لا تملك شيئاً من ذلك، كما لم تستخدم غضبها وعنفها كله، بل اكتفت بنظرة حادة ذات مغزى خاص ألقته في وجهه، فارتد للوراء بقلق وندم واضحين، وأخذ يستعيد بالله من الشيطان، ثم أخذ يرفع صوته لتسمعه فاطمة مخاطباً الرجال الذين مازالوا متشبثين بموقفهم:

. هيه، عودوا يا مجانين، لا تكذبوا فرح النساء، ألم أقل لكم إن هذا خطأ فادح؟

ودهش الرجال من كلماته وموقفه الجديد، فهو من أوعز إليهم بالمجيء إلى هنا، وأوغر صدورهم ضد النساء! ماذا حدث له؟ وتحمل الكبير عون لوماً

كبيراً على بهتانه، وبرر موقفه بطريقة بدت أكثر إقناعاً، لقد أدرك أخيراً إن بقاء الطفل لدى النساء أكثر جدوى، لأن الرجال لن يطيقوا مهام إطعامه وغسل فضلاته وبكائه الدائم، ناهيك عن إرضاعه وهددته حتى ينام، وعند هذه الوهلة اقتنع الرجال بصدق هذه الحجة، وذهبوا لاستكمال مراسيم الزفاف.

كان العريس غاضباً، فقد تركوه وحيداً وذهبوا لاستعادة ولده الرضيع، لم يسمعه أحد منهم وهو يصرخ بأن هذا الصغير مثل غيره من الأطفال، أيريد الصغير أن يكدر عيشه ويسرق كل لحظة جميلة من عمره؟ غدا كل شيء يدفعه إلى كراهية ولده الوحيد، هؤلاء الرجال، زكية، الكبير عون، والنجاء اللعين. رغم ذلك بدأ يشك في الأمر، لاسيما بعد ذلك الانفجار المريع، أيكون هو المجنون وأولئك الرجال على حق؟ حين عاد الأهالي خائبين شُفي غليله ونسى الأمر، وأثناء ذلك ظهرت مشكلة أخرى عويصة، لم ينتهبوا إليها إلا حين اقتربت ساعة زفاف العروس إلى زوجها، تناقش الرجال حولها دون أن يجدوا لها حلاً معقولاً، فالعريس أصبح بلا منزل، ولا يوجد في القرية منزل شاغر يمكن أن تزف إليه العروس، وفكر أحدهم بشيء أثار حفيظة الأهالي، وهو أن يزف سرحان إلى منزل العروس الواسع، فكرة غريبة شاذة لم يُسمع بمثها من قبل! كأن الشيطان نفسه هو من اقترحها، وشطح الأهالي واستفاضوا بالحلول والآراء المختلفة، راحوا يتساءلون ويجيبون على أنفسهم في ذات اللحظة. هل نزفها لسرحان إلى مغارة في الهضبة؟ لكن لا، المغارات مظلمة، تسكنها الزواحف والشياطين، لم يعد هناك سوى مكان واحد وهو المسجد، فهو بيت الله، وهو سبحانه لا يمنع أحداً عن بيته، ولكن هذا لا يجوز،

الزوجان لن يذهبا إلى هناك لكي يقيما صلاة العشاء أو يقرأ القرآن، بل ليتضاجعا، لن نسمح أن يدنس حرم المسجد، لن ينظر الله إلينا أو يسقط علينا قطرة واحدة من المطر، أين نذهب بهما يا ترى! إلى الشارع؟

كانت الحلول جميعها عبثية والخيارات صعبة، حتى المطحن الحجري فكروا فيه كماوى محتمل، ثم ارتدوا عن هذا الرأي السخيف أيضاً. كان الوقت يضيق ويمر بسرعة، وعادوا مرات عديدة للفكرة الأولى، وهو منزل العروس، كانوا مترددين ويشعرون بالخجل أثناء الحديث عن ذلك، حتى حزم الكبير عون الموقف وصاح قائلاً باضطراب وتوتر:

. اسمعوا يا رجال، دعونا ننهي هذا الزفاف اللعين بأي شكل من الأشكال، فقد يبدو غريباً أن يزف العريس إلى منزل العروس، لكن العادات التي نراها اليوم، كانت غريبة في يوم من الأيام، فتوكلوا على الله ولا تترددوا.

ووافق غالبية الأهالي، على أن تكون تلك الحالة استثنائية ولا تتكرر في المستقبل، وزفوا سرحان الطحان إلى منزل عروسه زكية وسط صمت مطبق، وشعور بالذنب، فبدا حزيناً خجولاً، وعرف كيف يكون شعور الفتاة التي تزف إلى بيت رجل غريب عنها.

كان منزل زكية واسعاً مؤلفاً من ثلاث طبقات، أخذت بنات سرحان الطبقة الثانية، واستقر هو والعروس والطفل الرضيع في الطبقة الثالثة، وأحس بالحيوية والسعادة التي تخلقها حرية الحركة واستنشاق كمية كبيرة من الهواء النقي الذي تسربه النوافذ. في الصباح سارا إلى المطحن، وعملا فيه

حتى الغروب، وحال عودته مال إلى موضع حطام منزله القديم، وهناك بذل جهداً مضنياً لإقناع كلبه دغمار بالانتقال إلى مقر العائلة الجديد. كان الجوع قد أحرّه فتبع سيده في نهاية المطاف وبلا تردد.

عاد كل شيء إلى طبيعته، باستثناء علاقة سرحان والفقير مرشد، فقد تضررت كثيراً، كانت نظرات الأخير تكشف عن غيرة وحنق، وبات سرحان يخشى على نفسه من تعاويذه وأسحاره، سرعان ما لاحظ أن علاقته وزكيه قد فترت، وصارا يتشاجران في أغلب الأوقات، صار كلٌّ منهما ينام في غرفة مستقلة. بدأ يشعر أنه مقبل على كثير من المشاكل، ويجب أن يفعل شيئاً ليتلافى الأخطاء قبل أن تتفاقم، اضطر أن يذهب إلى الفقير مرشد لكي يساعده على تجاوز مشاكله، أو على الأقل يتقرب منه حتى يكسب وده ويرأف بحاله، لكن الأمور ظلت تسير نحو الأسوأ، وفي يوم أقبل الإقطاعي نجيم تحف به الأتباع والمرتزة، وتجمهر الأهالي والأطفال ليتفرجوا على شكل البغلة، بدأ يعاتب الكبير عون على عدم دعوته لحضور ذلك الزفاف الغريب، على الأقل كان سيشهد تلك الأحداث العجيبة، الانفجار، الطفل، وزفاف العريس إلى منزل العروس، وسينفخ صاحب المنزل المنكوب مساعدة مالية، ضرب الخجل وجه الكبير عون وأصبح بلون الطماطم، وبدت ردوده مقنعة، مع أنها لم تكن كافية لإرضاء غرور هذا الرجل الثري الذي بلا شك لا يبحث عن طعام الوليمة، بل يسعى وراء الإثارة والمتعة. في الأخير طلب الإقطاعي أن يرى الصبي الذي نجا من الحادث الرهيب، وقفز الكبير عون بتهور إلى أمامه قائلاً برجاء:

.أيها المالك العظيم الشأن، أرجوك، دع هذا الطفل وشأنه.

رد الإقطاعي بغضب:

.هل رأيتني اعتدي على الأطفال أو استعبدتهم كفرعون مصر في عهد موسى؟

.بل أخشى عليك من هذا الطفل، سيؤذيك لا محالة.

ضحك الإقطاعي وأجاب بلا اهتمام:

.هاتوا الطفل مقابل ريال لوالده.

.هل ذلك من أجل إعادة منزلهم المحطم؟

.هذه خمس ريالات من أجل الطفل والمنزل.

وسلم إلى يد الكبير عون خمس ريالات قشبية وسط دهشة الأهالي، وتردد الكبير عون قبل أن يمد إليها أصابع مرتجفة، وذلك لأن الإقطاعي نجيم بخيل جداً، وتلك سابقة تستحق التخليد والتدوين على الورق. بعد قليل أقبلت زكية تحمل الطفل بين ذراعيها، بدت تضمه إلى صدرها بقوة كشيء ثمين تخشى ضياعه، رفضت أن ترفعه عالياً ليراه الرجل الثري، فترجل عن البغلة ممتعضاً، وهبط إلى الطفل، أخذ يتأمل به بنظرات جشعة ويراقب حركاته برهة من الوقت، ثم رفع رأسه بئس وتأوه قائلاً بندم واضح:

.طفل عادي مثل كل الأطفال ولا يستحق النظر إلى وجهه باولة واحدة.

قذفت زكية الريالات في وجه الإقطاعي ومضت وهي تقول:

.الطفل لم يكن يريد رؤيتك، وقد أخذته قسراً وهو يردد نغاء الرفض.

جمع الأتباع الريالات المبعثرة وقال الإقطاعي نجيم بحنق:

.لا يهم، هذا سلوك غير لائق. كان الأجدد بهم أن يشكروني.

وذهب نحو بغلته الوديعة غاضباً، فابتعدت عنه، أمسكها الأتباع، فاقترب منها، وضربها بالعصا على كفلها بقسوة. فانتفضت فجأة قاذفة قائمتها الخلفيتين في الهواء، وأطاحت به أرضاً.

فجع الأتباع والأهالي، في البداية كان عليهم أن يتبينوا إن كان حياً، لأنه لم يتحرك. وحين أحسوا بنبضه فرحوا، وحاولوا أن يكتشفوا حجم الأضرار التي لحقت به، كان الدم الغزير يتدفق من فمه وأنفه، وبسرعة فائقة أجاب الفقيه مرشد النداء، وأحضر معه العقاقير والخرق، وجعل يمسح الدماء، ويضع العقاقير العشبية على الأنف والشفتين المنتفختين، ثم طلب نقل الإقطاعي الغائب عن الوعي إلى أحد المنازل ليرقد على الفراش. كان منزل الكبير عون هو الأنسب، هناك مكث راقداً أكثر من يومين، وفي اليوم الثالث أفاق، وسأل عن البغلة، ف قيل له إنها في إحدى الزرائب، في انتظار رأيه فيها، فكر الإقطاعي في العقوبة التي يجب أن تنالها، ولكن قبل ذلك يتحتم أن يعرف السبب الذي جعلها تنفر منه، وتتصرف بعدوانية، لم تفعل ذلك من قبل، بعد ذلك طلب سرحان وقال له بصوت مفعم بالأسف:

.شخص مجهول بعث إليّ رسالة طالبا مني أن أرى الطفل الرضيع، الذي خرج سالماً من الانفجار، وزعم إن له قدرات خارقة، وإن أهالي القرية يؤمنون بكراماته.

وطلب بغلته وأمسك مقودها وصعد إليها وأضاف وهو يضحك:

. ينعنون البغال بالغباء، لكني أظن هذه البغلة أذكي كائن عرفتته، فهي طالما تتجه نحو القرى والوديان التي أريدها، ولا تخطئ الطريق، لكنها تغضب حين أضربها أو أهينها وتتصرف كما رأيتم.

غادر الإقطاعي نجيم القرية وأتباعه، وخشي الكبير عون ألا يعود إلى القرية ثانية، ونظر إلى سرحان بقلق وقال:

. شخص ما هو من جعل قاسم وأولاده وأهالي مزنة يحضرون، فقد أنبأهم بالعُرس، وأن هناك كبشين وأرز أبيض، وأوعز إليهم أن يكونوا ضيوف الغفلة، وأشار على قاسم أن ينتقم من الطفل الرضيع.

. كيف عرفت ذلك؟

. سعد المليح أخبرني.

. هناك شخص يفشي أسرار القرية، من تظنه يفعل ذلك؟

. لا أدري، علينا الإمساك بهذا المتريص قبل أن يوقعنا في مشاكل أكبر.

. وأضاف الكبير عون فجأة:

. لا تشغل نفسك، لا تبدو وزكية على وفاق، هذا واضح، أراها شاردة على

الدوام، ماذا يحدث؟

أخذ سرحان يشكو ويفرغ ما في نفسه، ليرتاح قليلاً من عبء الكتمان، لا يدري كيف أصبح مزاج زكية سيئاً، أمست تضيق من تصرفات بناته وتغضب لأتفه الأسباب، لم تعد تنام معه على فراش واحد، تلك المتهيجة الشغوفة في

السابق، غدت باردة كالثلج، حزينة، وكثيرة الشرود، وقد جلب لها تعويذة من الفقيه مرشد لحمايتها، لكن حالتها ساءت أكثر!

هتف الكبير عون قائلاً باهتمام:

.انتظر، صحيح، الفقيه مرشد لا يحبك، أتظنه هو من يدبر هذه الدسائس؟

.لا أدري، لكنه كان يطمع في زكية.

.لا أقصد ذلك، أتظنه ذلك المتريص؟

.أششش.. انظر إلى الساحة، هناك جنود قادمون.

اقترب منهم جاويش وعشرة من الجنود بملابسهم البيضاء المهيبة، بنادقهم على أكتافهم، ومقاطعهم الحضرمية الرصاصية نازلة إلى تحت الركبة بقليل، أحذيتهم العرص الجلدية تفرع الأرض بثبات. ذهل الكبير عون وهم يتقدمون نحوهما، فنهض لاستقبالهم.

كان هدفهم واضحاً ومحددأ، فهم يريدون فتح تحقيق حول حادث الانفجار الذي حصد أرواح أحد عشرة شخصأ، أغلبهم من عائلة واحدة. ويطلبون مثل الطفل الذي نجا من الانفجار أمام صاحب السعادة عامل القضاء.

طلب الكبير عون مهلة يوم واحد ليذهب إلى صاحب السعادة عامل القضاء والطفل الذي نجا وعائلته، أخذ الجاويش منه بعض الأجوبة ثم انصرفوا. وقال الكبير عون باهتمام:

.سيوقعنا هذا الواشي في كثير من المشاكل.

ابتعدوا عن طريقه مندهشين، فسار إلى ركن دار زكية، وأخذ يرطن بكلام غريب، ثم دس يده تحت حجر وسحب ورقة طويلة مدون عليها خربشات سحرية أحرقها أمام الأهالي، وفي تلك اللحظة ارتفع صوت زكية المغناج الذي لم يعودوا يسمعونه:

.سرحان، ماذا تفعل عندك أيها الفحل؟ تعال إلي، هؤلاء الرجال عاطلون عن العمل.

عند ذلك نظر الكبير عون إلى مرشد بغضب، واقترب منه الأهالي متممرين شاهرين عصيهم في الهواء متأهبين لضربه، أحسوا أنه يقوم بأعمال فظيعة، وليس مستبعداً أن تكون المشاكل التي تواجههم في منازلهم ناجمة عن أسحاره، تحاشاهم الفقيه مرشد وعاد ثانية يرطن بلغته الغريبة، وذهب إلى الركن الآخر للمنزل، وأخرج تميمة أخرى أطول، أحرقها وهو يقول بنبرات مشدودة:

. هذه تميمة البرود والذبول الجسدي والتنافر، وهي تجعل الجبل المنتصب يذبل وينام، لا أدري كيف مازالا في منزل واحد.

عقب ذلك، ظهرت زكية وهي تضحك من النافذة، شعرها مسدول على كتفها كذيل الحصان، تداري جسدها العاري بستارة النافذة، أشارت إلى سرحان الطحان أن يصعد غامزة بشبق، فهول إليها كحيوان رأى أنثاه متأهبة للتزاوج، حاملاً الرضيع كجرو، بعد قليل صدرت التأوهات من الأعلى، وازدادت حدتها حتى شعر الرجال بالإثارة، وانفجر الفقيه مرشد قائلاً بصوت مشروخ:

. انظروا ما فعلتم أيها الأوغاد، إنهما سعيدان، وأخوكم مرشد يحترق كالفتيل،
سأصنع لهما أسحاراً طيّارة.

. احذريا مرشد، في المرة القادمة سنبعثك إلى محرقة السحرة في صنعاء.

(3)

في ليلة السفر، حلم الكبير عون أن عصابة من اللصوص هجمت على القرية وخطفت الطفل، لذا استدعى في الصباح ثلاثة أشخاص يطلق عليهم لقب الرجال الأشداء، والسبب في ذلك يعود إلى سواعدهم المفتولة وقدرتهم على حمل الأحجار الثقيلة والأخشاب الضخمة التي يعجز عن حملها الأهالي، وطالما يستدعون لأصعب المهمات، ولا يخشون المخاطر، فرحوا حين كلفهم كبير القرية بمهمة حماية الطفل الرضيع، كما سلحهم بالعصي والفؤوس الحادة، وأتحفهم ببعض النصائح الضرورية كالانتباه وعدم التهور والصمت وعدم التدخل بشئون المسافرين. تذكر الكبير عون أخيراً أنه وعد الجاويش بالحضور لمقابلة صاحب السعادة عامل القضاء، كما رأى أن وجوده ضروري لتعزيز موقف عائلة سرحان الطحان، وتفنيدي أي أخبار خاطئة وصلت إلى العامل عن قريته.

حتى الإقطاعي نجيم تضامن مع الطفل الصغير، وبعث بغلته لتحظى بشرف حمله إلى العامل. وصنع بعض الأهالي له هندولاً خشبياً صغيراً، وربطوه على ظهر البغلة، ثم رفعوا هودجاً من الأقمشة الثقيلة ليظل الهندول. وشيعوه بأنظارهم حتى توارى، كانت زكية قد أحاطت جسده بأوراق الكافور والحلثيت كي لا تصيبه العيون الشريرة، وحين كانوا يمرون على القرى والعزب كان الغمام يظللهم في ذلك الوقت من الصيف، وبات الناس يقفون في طريقهم، ويتمسحون بالهودج، طالبين بركات الطفل المبارك. كانت الأخبار تصل إليهم

أولاً بأول، ومع ذلك لا تخلو من الإضافات والتحليلات، وفي أحيان أخرى يكون الخبر غير مكتمل أو غير مفهوم، أو حتى كاذب، زعموا أن هذا الصغير يختلف عن غيره من الأطفال، بحيث جاء إلى الدنيا بفم مليء بالأسنان، ويتكلم بلغة فصيحة، وحين يغضب يتسبب بالأذى للأشخاص الذين يقفون في طريقه. وهكذا ظل الحديث عن الطفل هو الشغل الشاغل لأهالي القرى الواقعة على امتداد قاع الحقل، لاسيما حين عرفوا أن العامل طلب مقابلته.

وطار الخبر إلى مدينة يريم، فاحتشد سكانها لرؤيته خارج أسوارها القديمة، ازدحموا قرب البوابة، ووصل الطفل وجماعته إلى هناك قبل الظهر، ومنع الجنود الناس من الاقتراب منه، وساروا باتجاه القلعة القديمة المترعة على رأس الهضبة، وهناك حال حراس القلعة دون دخول البغلة إلى الهو المرصوف بأحجار الحبش المنضدة، وقابلوهم بالكلام الجاف القاطع، لا أحد يدخل ببغلته إلى هناك سوى الأمير الأكبر وولي العهد، العامل نفسه لا يجزؤ على الدخول بحصانه، حتى لا تتلوث الباحة بفضلات الحيوانات، ومع ذلك، ساومهم الكبير عون على دخول البغلة، وعرض عليهم مقتطفات من كرامات الطفل، محذرا من تجاهله، فسخروا منه ومن طفله.

كان الجندي المسؤول، جاويش قصير القامة جامد الملامح، تصرف مع الحيوان بوحشية ليجبره على المغادرة، لكن البغلة رفته بقائمتها الخلفيتين، ودخلت بسرعة إلى الفناء النظيف المرصوف بالأحجار النضيدة، نهض الجندي القصير الدائخ بفعل الرفسة، وطلب الدعم من رفاقه، فتداعى الجنود من كل جانب، وهرولوا خلف البغلة ممسكين أسلحتهم على نحو

خطير. كان الجاويش القصير أشدهم غضباً وحنقاً، حتى أنه شحن بندقيته
وصوبها نحو الحيوان الهارب، وصاح سرحان الطحان بفجاعة:
.أرجوك لا تطلق النار.

جثت زكية على الأرض وهي تصيح:

.افعلوا شيئاً، الجنود سيقتلون الولد.

هرع الرجال الأشداء وراء الجنود والبغلة المتمردة، لا يدركون ما يفعلون من
أجل الطفل المكلفين بحمايته، وكل ما أمكنهم فعله هو الركض في الباحة بلا
هدف، كان الجاويش القصير يأمر جنوده أن يوقفوا الحيوان بأي طريقة
ممكنة، واتخذ وضعية إطلاق النار، حين أوشكت البغلة على الوصول إلى باب
مقر صاحب السعادة العامل، فجأة خرج العامل وجنوده وبعض حُكام
النواحي والقضاة والوجهاء في قضاء يريم.

وفي تلك الأثناء، انطلقت عبوة البارود، ووقعت على عتبة الباب، وبث صوتها
الرعب في نفوس الخارجين، وانبطحوا أرضاً ظناً منهم أنهم يتعرضون لهجوم،
وشحن مرافقو العامل أسلحتهم، وتقدموا نحو الجندي القصير المصفر
الوجه، وقبضوا عليه وقادوه إلى سجن القلعة، وأخرجوا البغلة من الباحة
النظيفة، وأخذوا الصبي ومرافقيه إلى الداخل.

المجلس الفسيح، يملأه الضوء المتسرب من القمرات العلوية المترتبة فوق
العقود الحجرية القديمة، وتفترش الحصائر السوداء والبيضاء على طول

أرضيته المستوية، أما الدكاك المرتفعة فقد خصصت لأصحاب المراتب العليا، وفرشت بالخطط الصوفية الناعمة المزينة بالرسوم والخطوط الدقيقة التي صنعها الحرفيون اليهود، كانت الدكاك القريبة من العامل مخصصة للحكام والقضاة والوجهاء، والبعيدة لجباة الزكاة وكبراء العزل والقرى، وأما الأرضية فيجلس عليها عامة الناس، وحين دخلوا المجلس سار كل شخص إلى موضعه المعلوم. وأوقف سرحان ورفاقه على الأرضية، فيما انتصب الثلاثة الرجال الأشداء خلف الجنود الذين يظنون واقفين للخدمة والحماية كما هو حالهم منذ أن حملوا هذه الصفة، كان أصحاب الدكاك مازالوا مذعورين مما حدث في الباحة، ويتنفسون بصعوبة، أخذت أنظارهم تسقط بحدة على أجساد أهالي الرباط الواقفين بصمت، أشار العامل إلى الجميع أن يجلسوا بحركة حادة، فجلسوا، واستجمع طاقته ليقول لأهالي الرباط بصرامة:

. لقد تسببتم بالفوضى، ومكانكم الطبيعي هو السجن وليس في مجلسي، لا أدري كيف غفل الجنود عن ذلك.

تقدم جاويش وعدد من الجنود منهم بخطوات مشدودة حازمة، كأنهم يريدون تصحيح الخطأ الذين اقترفوه، فهتف الكبير عون قائلاً باحترام:

. نحن يا صاحب السعادة من الرباط، وهذا هو الطفل العجيب الذي نجا من الانفجار.

أوقف العامل الجنود بإشارة صارمة من يده، ورد باهتمام:

.أروني هذا الطفل.

اقتربت زكية التي غطت كل جسدها بثوب أسود مزركش الأكمام والصدر، وكشفت عن وجه الصغير بخوف، فألقى العامل نظرة خاطفة إلى وجهه، بعد لحظة وجيزة بدت عليه خيبة الأمل، وسأل بلا حماس:

لِمَ تظنون أن هذا الصبي مميزاً؟

أجاب الكبير عون باهتمام:

. لا أدري يا صاحب السعادة، كل ما في الأمر أن من حاولوا أذيته لقوا مصرعهم في الانفجار، وخرج الصغير من بين الأنقاض بدون جروح.

. هل هو هاشي؟

. ماذا تقصد يا صاحب السعادة؟ أنا رجل قروي لا أفهم بعض الألفاظ الكبيرة التي يتداولها سكان الحضر.

. هل هو من عائلة النبي؟

. لا أظن ذلك، إنه من فئة عشوائية من البشر، عائلته فقيرة، وهذا هو والده سرحان الطحان، ولا أظنه يعرف من مسلسل نسبه من يكون جده الرابع، لا أحد يأبه لهذا الهراء.

. أتقول هراء أيها القروي العفن؟ سلالة النبي هي المميّزة في الأرض.

. نعم، أظن ذلك، لا أدري حقاً، لعلها السلالة الأكثر حظاً.

. تأمل العامل أجسادهم باشمئزاز، ثم قال بضجر:

. لا أدري سر اهتمام مولانا الأمير الأكبر والأمراء بأطفال العوام الهزليين الذين تحيط بهم علامات غريبة غامضة، ثم سرعان ما يكتشفون أنهم مثل غيرهم سيكون ويغوطون.

ثم أشار إلى سرحان فجأة وتابع بيقين:

. أنت والد هذا الصبي الهزيل، أليس كذلك؟

أبرز سرحان نفسه وأجاب بارتباك:

. نعم، يا صاحب السعادة.

. كيف تفسر نجاته من انفجار مهيل أحرق الخشب والحجر وقلب المنزل رأساً على عقب؟

. لا أدري يا صاحب السعادة، الناس يعطون الأمر وزناً كبيراً، إنه طفل محظوظ، ولا ذنب له أن قام رجل مجنون بتفجير صندوق البارود، لا ريب أن هناك ملاك سماوي احتضن صغيري وقت الانفجار دون أن يسأل عن سلالته، أنا سعيد بنجاته وأنتم كذلك وأنت أيضاً.

قلب سرحان عينيه في وجوه أصحاب الدكاك، مستدراً تعاطفهم، ثم رد بصره المشفق إلى العامل، فهز الأخير رأسه قائلاً بيقين:

. نعم، كلام معقول، لا ذنب للصغير.

وساد الصمت وقليل من التأثر في المجلس، حتى أستأنف العامل الحديث بصوت قاطع:

يقود فيلقاً من الجيش، وقد رفض طلب الكبير عون بالسعي لاستعادة بغلة نجيم مركوب الصبي، كان الوحيد الذي يركب حماراً عالي القوائم، خمن سرحان أن الجاويش لا يريد أن يتفوق الصغير عليه في المركوب بسبب غروره، غدا يكلمهم عن حروب العامين التي خاضها في جبال مراد مع الجيش الأميري، لكنهم كانوا منشغلين عنه بالثرثرة عن أمورهم الخاصة، ولا يلقون له بالاً، ظل يصب لعناته على جندي كبير السن يمشي مفرشخاً مرتعشاً، ويخاطبه بتهكم:

.أليس كذلك أيها الهرم الأبله؟

فهمز الجندي المسن رأسه علامة الموافقة، بدا كأنه يتجنب الحديث معه، فتابع الجاويش مخاطباً أهالي الرباط الذين يمشون قربه شاردين مغمومين:

.يبعثوني للمهام العسيرة، لأن رصيدي كبير في الجندية، وقريباً سأتولى قيادة سرايا الشرطة في يريم...

يرغي طويلاً، ويعود ثانية ليلعن الجندي الأبله كما يسميه، ويسأله عن صحة ما يقوله عن نفسه، ظلوا صامتين لا يلقون لكلامه أذناً صاغية، يتناوبون على حمل الطفل، كان خفيفاً فضلاً عن الطريقة المريحة التي ابتكرها الكبير عون لحمله، طواه في شاله العريض، وعقد طرفيه وقام بحمله على ظهره، بحيث يضع المسافر العقدة في قمة صدره تحت العنق، هكذا كان أطفال الرباط يُحملون على ظهور آبائهم في الأسفار الطويلة أو القصيرة، هو نفسه تربع على ظهر والده منذ وقت مبكر من عمره، حين أصيب بمرض المالمط.

كان المؤذن ينادي لصلاة الظهر من أحد المساجد على قمة جبل سمارة، وهنا أعلن الجاويش المتباهي عن انتهاء دور الجنود، ثم رمى إلى كف الكبير عون

خمس ريات، وأشار إلى الطريق التي ينبغي أن يسلكونها، ولا يحيدون عنها، ما لبث أن قرر ورفاقه أن يرتاحوا قليلاً ويؤدوا الصلاة في المسجد القريب، نظر إلى الجندي الهرم وصاح في وجهه قائلاً بنزق:

.قف أيها العجوز الأبله هنا لتراقبهم حتى يغيبوا عن عينيك، احذر أن يعودوا أو يسلكوا طريقاً أخرى.

وقف الرجل مذعناً، بينما أراح المسافرون أجسادهم تحت ظل شجرة قريبة، فاحتج الجندي الهرم قائلاً:

.هيا، سيروا في طريقكم.

اقترب منهم ملوحاً بيده، فنهضوا بتثاقل، وزحفوا ببطء، ثم ساروا في طريقهم، بعد قليل بوغتوا بالجندي يصيح ويشير إليهم أن يترشوا، كان يسير بسرعة لا تتناسب مع سنه وسيقانه المتباعدة المرتعشة، حين وصل إليهم قال بصوت لاهث:

.لست أبلها كما يدعون، لقد كذب الجاويش، أنا من شاركت في الحروب التي تحدث عنها، وانكسر عظم خاصرتي وفخذي، لهذا تروني أمشي مباعداً ساقياً.

قال الكبير عون بتذمر:

.هذا واضح، هل جئت لتقول لنا هذا وحسب؟

التفت الجندي الهرم إلى خلفه بخوف وأجاب بنبرات حادة:

.هنالك شيء آخر يثقل صدري، أنتم لا تدركون ما أنتم مقبلون عليه، قبل
عامين رافقت طفلاً مميزاً سقط من نافذة الطبقة الرابعة، ولم يصب بأي
ضرر.

قاطعته الكبير عون بعجل:

.وماذا حدث بعد ذلك؟

.لا شيء، رافقناهم وجنود عامل ذمار إلى هنا، ولم يتسن لي أن أتحدث إليهم،
وبعد أيام سمعنا أنهم لم يصلوا إلى تعز، وتوقعنا أنهم فروا...

قاطعته سرحان بغضب:

.أتظن أننا سنهرب؟ هذا غير صحيح، لِمَ نفعل ذلك؟ أي شيء اقترفناه يجعلنا
نفكر في الفرار؟

.أنت الأبله أيها الرجل، وليس أنا..

وتابع رافعاً سبابته في الهواء للتأكيد:

.الحق يقال، أولئك المسافرون لم يفروا، وقد بحثوا عنهم طويلاً، ونادوا
للقبض عليهم من رؤوس القلاع والجبال، لكنهم لم يعثروا لهم على أثر.

رد الكبير عون بضيق:

.أين تظنهم ذهبوا إذا؟

.ماتوا.

ذهل أهالي الرباط وأخرست ألسنتهم، وتابع الرجل:

.هناك وحوش وأحراش وأخطار في طريقكم، وأي طفل ينجو منها لا يسلم من بطش الأمير الناصر.

صاحت زكية بصوت مخنوق:

.إنه طفل صغير، هل يعاقبونه لأنه نجا من الانفجار!

قال الجندي الهرم هامساً بحدة:

.لست أبلهًا، بل أنتم البلهاء، هناك سر أعظم، لقد خدمت في القصور الأميرية قبل أعوام، وسمعت الأمراء يتحدثون عن نبوءة ساحر قديم، وهي عن طفل مميز في عنقه علامة ما، وعن قطط متوحشة ستخرج من مدينة عدينة، أو ما نسميها اليوم تعز.

قالها الجندي الهرم، وجثا فجأة أمام الكبير عون الذي يحمل الطفل الصغير، وتابع بصوت ضارع:

.أرني هذا الطفل المميز قبل أن يفتقدني رفاقي.

قاطعته الكبير عون بنزق:

.ما هي النبوءة أيها الأبله؟

.هل تريني الطفل إذا حدثتك عنها؟

.نعم، سأريك إياه، أسرع وتكلم، الشمس تكوي أجسادنا.

.نعم، سأبدأ بالحلم الذي رآه...

في تلك اللحظة سمعوا أصوات الجنود تتردد عالياً وهم ينادون: " أيها الأبله العجوز".

همس بصوت خفيض حاد:

.لست أبلهاً، ها هم البلهاء.

ومضى محتداً نحو رفاقه. بينما تابعوا سيرهم على ظهر الجبل وهم يتحدثون عن ذلك، ابدى الكبير عون اهتماماً كبيراً بما قاله الجندي الهرم، وسأل سرحان عما إذا كانت هنالك علامة ما في عنق ولده غير التميمة، وكان الجواب بالنفي، لم تثر التميمة انتباههم، فطالما يحملها معظم الأطفال.

في أول قرية صادفوها تزودوا بالطعام والماء، وابتاعوا حماراً، وأشفق عليهم صاحبه بهندول صغير، كان لولد له مات بمرض الحصبة، كما نصحهم باجتياز الأحراش قبل حلول الظلام، نظروا يمناً ويسرة بقلق بالغ، لم يكن أمامهم غير طريق واحد، فساروا متتبعين آثار خط هابط رسمته أقدام مسافرين مجهولين مروا قبلهم منذ أمد بعيد، وكلما هبطوا زادت كثافة الأشجار على الشعاب، ولاحت الأفاعي ملتصقة على الجذوع أو متدلّية من بعض الأغصان المتشابكة فوق رؤوسهم، وأحياناً تتحرك فوق الأجمات وبين الشجيرات النابتة قرب أقدامهم، وأحس الرجال الأشداء أن دورهم قد حان، فقتلوا أفعى ضخمة حبلى بالبيوض، ثم عادوا لكي يقتلوا أخرى، لكن سرحان حذرهم من إثارة غضب الزواحف، كان متأثراً بقصة سمعها في طفولته، روتها له جدته صفية، عن فتى قام بقتل حرباء صغير في وادي الزواحف، ما جعل

الحرباوات تشكوه للأفعى ملك الوادى، فأمر جنوده بالهجوم على الفتى، وهكذا حوصر بآلاف الثعاين والحيات والعضاءات والسحالى.. ضحك الرجال الأشداء ساخرين من جدية سرحان وإيمانه بالخرافات، لكنهم رغم ذلك، صاروا يتحاشون الزواحف، وأخذوا يبعدونها عن طريقهم بأطراف عصيمهم، وظلوا يهبطون على منحدر طويل غريب متوغلين بين أحراش كثيفة الأشجار، عيونهم مفتوحة وأذانهم مصيخة مشرئبة، متوقعين بين لحظة وأخرى أن يهجم عليهم شيء ما.

اقتربت الشمس من المغرب، كانت القروود تزعق من رؤوس الأشجار والهضاب القريبة، كأنها تنذرهم بالمغادرة قبل حلول الظلام. ومع مرور الوقت يزداد في نفوسهم الخوف والقلق، وشرع الظلام يطبق فكيه على المكان، سمعوا خشخشة الأوراق وأصوات تكسرها تصدر من الأحراش القريبة، أحسوا أن هناك حيوانات وكائنات غريبة تسير معهم مستترة خلف الأشجار والفروع الواقفة على جانبي الطريق، لمحو عيوناً كبيرة تلمع هنا وهناك. بدا الحمار مذعوراً كأنه هو الآخر يرى ما يرونه في العتمة أو يشعر بأخطار أكبر، حتى ضوء الفانوس أخذ يتذبذب ويضمحل، وصاروا يخشون انطفائه.

ظهر ضوء في مكان جانبي أسفل النقييل، حين اقتربوا لاح طيف منزل تتسرب الأضواء عبر نوافذه العلوية، تنعكس بالقرب منه ظلال منازل صغيرة صامتة، وجدوا رجلاً قصيراً ذا ملابس سوداء متسلحاً بعصا، بدا كأنه حارس ليلى يحرس القرية من الوحوش والصوص، لم يستطع الضوء الطفيف أن يكشف ملامحه، سأله الكبير عون عن موضع مناسب للمبيت، أشار له إلى دار امرأة يهودية اسمها شمعة تؤجر الغرف وأشياء أخرى للمسافرين،

تقدموا بما تبقى لديهم من طاقة على السير حتى انتهوا أمام باب ضخم في دار عريض ذي ثلاث طبقات، بعد لحظات وجيزة لاح عبر شقوق الباب ضوء أصفر، فتحت لهم امرأة فتية تمسك شمعة مضيئة، سد جسدها الناحل الفتحة الصغيرة التي انفرجت من الباب، تأملتهم وهي تعلق شيئاً بين أسنانها، وتحرك حنكها بلا مبالاة، أفصحت أن الغرف المخصصة للإيجار ممتلئة، ولم يعد هناك سوى الطابق الأخير، الذي تحتله وشقيقتا زوجها العازبتان، عفراء وحمدة وهي اسمها شمعة، زوجها غائب يعمل نجاراً في سوق السحول، بدا الأسف في عينيها، وعلى صفحة وجهها المشرق المراوغ، أظهر الكبير عون رصانته ووقاره، واستدر شفقتها مشيراً إلى زكية وصغيرها، وكرر كلمتي "غرباء" و"منهكين" أكثر من مرة، تحدث عن الحيوانات والظلام والسراج الطفيف، انتهى بالقول أنهم لا يمكن أن يبيتوا في العراء بأي حال، ظلت واقفة بتأنٍ تحرك شديقيها، ترد بكلمة أو كلمتين، لم يكن في كلماتها ما يوحي بالرفض القاطع، هل تخشى من طمع الرجال وغرائزهم الوحشية؟

جريت زكية حظها في الكلام، وتحدثت إليها لتطمئنها بأنها إلى جانبها، وبكى الطفل الصغير وجعل يناغي في حجرها:

.خاخخخخخخخخخخخ

نظرت زكية إليه ثم ردت بصرها إلى شمعة وقالت موضحة:

.الطفل يقول: خطر أن نبقي في العراء.

كانت شمعة متسمة صامتة كأنها تستمتع بعذابهم وتوسلهم، وتابعت زكية بضجر:

.صغيري سيموت من البرد.

.سأمنحك غطاءً دافئاً.

غابت المرأة وعادت بغطاء صوفي ثقيل، رمته إلى حجر زكية، ووقفت متسمرّة، لم تطبق الباب في وجوههم، فخالج الرجال الأمل، لقد كانوا يكسبون من المساومة، وكأن المرأة صاحبة الدار تصبو إلى مزيد من الإلحاح، لذا أخرج الكبير عون خمس بقش، وقدمها بنفس راضية وقال:

.ثمن الدثار.

أخذتها المرأة دون تعليق، فزاد الأمل، أضاف ريالاً إلى كفها مردفاً:

.وهذا من أجل المبيت في أي ركن من أركان الدار.

لم ترفض هذه المرة، وسمحت لهم بالدخول، شعروا كأن الدنيا بأسرها فتحت لهم، فأودعوا الحمار في الزريبة، وصعدوا السلالم حتى انتهوا إلى حجرة واسعة. كانت هناك شموعاً كثيرة مضاءة، وبعد لحظات ظهرت شمعة في صورة فاتنة ترتدي درعاً من المخمل وعلى جيدها أنصاص من الفضة، لم يكن عليها أي أثر من الخوف أو التردد الذي واجهتهم به قبل قليل. أقبلت كذلك شقيقتنا زوجها، وقدمتا نفسيهما للضيوف بجرأة غير متوقعة، عفراء وحمدة، لم يكن عليهما خفر العازبات المعروف، واستمر الطفل يناغي محرراً يديه ورجليه بتوتر:

.خاخخخخخخخخ...

.كف يا صغيري عن هذا، أنت بأمان هنا.

لكنه ظل على هذا المنوال، فتجاهلوا إشاراته، وأفصحت زكية أن التجربة التي مر بها لم تكن سهلة، ولن يتوقف عن النغاء حتى تنتهي الرحلة، وانخرطوا في الحديث، الكبير عون والعازبتين وزكية. وانفرد سرحان بشمعة واقترب منها إلى الحد الذي رأت زكية أنه لم يعد طبيعياً، وأن المسافة بين موضعيهما لم تعد تظهر. كانت عيناه تلمعان لشدة التركيز والتحديق، وحاجباه مرتفعين باهتمام وحماس، بينما جلس الرجال الثلاثة الأشداء جانباً صامتين، أخذوا يراقبون وجوه اليهوديات الثلاث بعيون جائعة، وهم يعضون شفاههم حتى كادوا أن يمزقوها من فرط التهيج والرغبة، فجأة استأذنتهم شمعة والفتاتان بالانصراف لإعداد العشاء، وطلبن أن يرافقهن الحراس الثلاثة إلى جناح المسافرين من أجل الاطمئنان على أنفسهن من تحرش الأوغاد، نهض الحراس الثلاثة في الحال، وتبعوهن دون أن ينظروا إلى وجوه رفاقهم. بدا في عيونهم غرور كبير قبل أن يختفوا، انفجرت زكية في وجه سرحان قائلة بتهكم:

لم أرك متحمساً مرحاً كما أنت الليلة، وقد اقتربت كثيراً من الشمعة اليهودية حتى أوشكت أن تحترق.

أجاب سرحان بهدوء:

.أنا مرح في معظم الأوقات، لكنك لا تلاحظين ذلك إلا حين أتحدث إلى امرأة أخرى.

.اليهوديات ساحرات، يرثن عن أجدادهن كتب السحر، وأخشى أن تسحرك إحداهن إلى كلب أعور يحرس المنزل كما حدث لشاب مسلم كان يعشق يهودية.

فكر سرحان قليلاً وقال:

لا أظن ذلك صحيحاً، لأن السحر في الحكاية يعني أنهم جميلات حتى أن ذلك الشاب الوفي تحول إلى عاشق مخلص يقف أمام باب صاحبتة الحسناء كالكلب، لكن أحد أقاربها قذفه بحجر فأصاب عينه، لقد سمعت هذا من جدتي صفية.

قال الكبير عون:

أنا أيضاً سمعت الحكاية على هذا النحو، أحياناً يكون الجمال قاتلاً، وأظن هؤلاء اليهوديات أجمل ما رأيت من النساء.
من حسن الحظ لا يوجد أحد من أقاربهن هنا.

صمتوا قليلاً، كان الهدوء في ذلك الدار مريباً ومخيفاً. أضاف سرحان بعجب:
أليس غريباً الهدوء في هذا الدار الذي يجب أن يكون مكتظاً بالمسافرين، لم أسمع أي صوت أو أقل حركة في الدار منذ وصولنا.

كان قلقاً يكلم نفسه، قبل قليل كان الرجال الأشداء ينظرون إليهم نظرات نهمة، وفي هذا المنزل الصامت يمكن أن يحدث أي شيء فظيع، أخذ إحدى الشموع ونزل إلى الطابق الثاني، وهناك عثر على بيت النار، وغرف عديدة مكتظة بأمثلة مسافرين وملابس وأحذية وفوانيس، رغم ذلك لا أثر لأي إنسان. كان الغبار يكسو الممرات، وأدوات كثيرة مغبرة متناثرة بفضي هنا وهناك، رأى الحمام مهملًا كأنه لم يستعمل منذ سنوات. فعاد مسرعاً إلى حجرة الشموع وقال لهما وهو يلهث:

. هذا الدار مهجور، وأغراض المسافرين مبعثرة في الغرف، ولا أثر لهم في الأسفل.

حدج طفله بقلق، فسمعه يناغي:

. خا خخخخخخخخ

. نعم، إنه كذلك، انهضاً أيها الغيبان، لقد أخذن منا الرجال الأشداء، والآن يعدن إلينا برجال أشداء آخرين.

خرجوا من الحجرة مهولين إلى الطبقة السفلى، مستضيئين بسراجهم الذي يوشك أن ينطفئ، فكوا مقود الحمار، كانت مؤنهم الضئيلة قد اختفت عن ظهره، نظروا إلى بعضهم بحيرة واضحة، سمعوا خطوات كثيرة قادمة، فتواروا داخل الزريبة المهجورة، رأوا عبر شقوق بابها الخشبي العتيق مشعلاً مضيئاً وخمسة رجال مسلحين بعصي وفؤوس وبنندقية. قرعت أقدامهم القوية درجات السلالم وهم يصعدون نحو الأعلى، فتسللوا إلى الخارج وسرحان يمسك مقود الحمار، أوصدوا الباب الخارجي خلفهم بالمزلاج، وساروا في الطريق التي عبروها من قبل، عثروا على الرجل الذي أرشدهم إلى الدار، فأمسكه سرحان بكفه القوي الذي يحرك قطب المطحن، وسل الكبير عون خنجره ووضعه في عنقه، وجعل يقول له بوعيد وهو يرتجف:

. سأقطع رأسك إن لم تدلنا على مكان الفتيات.

قادهم الرجل إلى منزل صغير قريب، وطرق الباب، بعد قليل سمعوا شمعة تقول بصوتها المميز:

.أسرعت هذه المرة و....

فتحت الباب، وذعرت حين رأتهم، فأمسكها سرحان من شعرها وهو يقول:

.أين رجالنا الأشداء الأغبياء؟

كانوا في غرفة جانبية صغيرة مقيدين بسلاسل أفواههم سُدَّتْ بخرق، حررهم سرحان، فقاموا كالوحوش وانقضُّوا على النساء بوحشية، فصرخن وبكين، أمسكهم سرحان والكبير عون خوفاً من تضييع الوقت، وقادوا اليهوديات والرجل الرعديد إلى خارج القرية الصغيرة، وهناك اعترفوا أن معظم المنازل خالية مهجورة، وأن هذه المنطقة تسكنها الوحوش المفترسة وقطاع الطرق والعصابات والفارين من السجون، وكل شخص له قلب من الحجر، وهم جزء من عصابة تصطاد المسافرين، وتتهب أغراضهم وأموالهم، ثم يأخذونهم إلى الأجمات البعيدة الكثيفة الأشجار. رمى سرحان إلى زكية نظرة حزينة معبرة لم تصل إليها بفعل الظلام، كانت خائفة ويائسة، تحتضن الصغير النائم برصانة أم متفانية صبورة، أما الكبير عون فكان يمارس ضغوطه الشديدة، ويهز خنجره أمام وجوه الثلاث النساء الباقيات والرجل الرعديد، ويهدد بذبحهم فيما لو لم يدلوه على الموضوع الذي يلقون فيه جثث المسافرين، كان يتمادى وهو يراهم يتوسلون، لم يستمع إلى حججهم التي يظنها واهية كخيوط العنكبوت، وصاح في وجوههم متحدياً:

.هيا، أروني الجثث والذئاب أيها المخادعين.

جثت النساء عند قدميه، فازداد عناداً، وأمر الرجال الأشداء بإجبارهن على السير، فشدوهن من الشعر وقادوهن نحو الأعراش، أشار الرجل الرعديد إلى

طريق الأجمة البعيدة الوعرة، فكر سرحان أن الكبير عون يتصرف بجنون، ولكن أليسوا جميعاً مجانين لتواجدهم في هذا المكان الموحش! أين يذهبون؟ لم يجرؤ على رفع صوته بهذا السؤال، ليس هناك مجال للتراجع، البقاء مع المجموعة أكثر حكمة من التخلف عنهم، أخذوا يمشون بين أشجار غريبة متشابكة، وفي مكان ما عبقت الروائح النتنة، تقدموا رغم ذلك بعناد حتى تعثروا بجث متحللة وجماجم آدمية وهياكل عظمية وأذرع يابسة مازالت عالقة على جذوع الأشجار. تبعثرت بالقرب سيور جلدية وملابس ممزقة وبضع فؤوس قديمة صدئة، ما ينم على أنهم اقتيدوا إلى هنا أحياء، كان ذلك المكان مقبرة جماعية كبيرة. في تلك الوهلة حاصرتهم الحيوانات، وأخذت تزمجر وتقترب، لمعت المزيد من العيون في الظلام، فشعروا بدنو نهايتهم، ما لبث الرجال الأشداء أن أوثقوا النساء والرجل على جذوع الأشجار بواسطة سيور الجثث، وهربوا من المكان وجعلوا يتعرجون في السير، أسرعوا بلا هوادة متشبثين بمقود الحمار المذعور الذي كان يجفل باستمرار، عثروا أخيراً على مأوى متوسط الحجم، تبعق من أرضيته روائح البعار. راح الحمار يبحث في الأرضية عن شيء يأكله، بينما ظل الطفل يبكي داخل الهندول، كان الجوع يلهب بطونهم ويرعش أجسادهم وكذلك الخوف من الحيوانات، أخرجت زكية ثديها الضامر، ووضعت في ثغر الصغير لتجبره على الصمت، كانوا يخشون أن يلتفت الرجال الخمسة المسلحون والوحوش إلى مكانهم، ومثل البشر البدائيين الذين سكنوا الكهوف أرغمتهم الحاجة ومحاولة البقاء إلى اكتشاف وسائل بدائية لحماية أنفسهم من هجمات الكائنات الأخرى، بدأت تتبلور في أذهانهم فكرة الشخص القائد، وفي حالتهم كان هذا الشخص

موجوداً وهو الكبير عون الذي وزع عليهم المهام بالطريقة التي يظنها صحيحة، في البداية جمعوا عيدان الحطب الجافة، وأشعلوا ناراً بواسطة الخشب الذي عثروا عليه في المأوى. غمر الضوء المكان ورأوا بعار الأغنام وبقايا رماد وأحجار، نام الطفل فأخذت زكية تنظيف المكان من الداخل ليبقى مؤهلاً للنوم، فيما جعل الكبير عون يجمع الأحجار يساعده رجل من الأشداء، رجل آخر منهم جلب نباتات وأعشاب للحمار الجائع، أما مهمة إحضار الطعام والحليب فألقيت إلى سرحان والرجل الثالث من الأشداء، سلحهم الكبير عون بفأسين، وطلب منهما تنفيذ مهمتهما كما يجب، كما أمر رفيقيه أن يصنعا رماحاً من فروع الأشجار لحماية المرأة والطفل العضوين الأضعف في المجموعة، وهذا بعث في جسديهما الحمية وغريزة النضال.

كان سرحان غاضباً وخائفاً، يظن أنه في طريقه إلى الهلاك، لكنه ليس وحده، إلى جواره رجلٌ يحمل مشعلاً وفأساً. أخذوا يسيران بحذر، والرجل الذي بجانبه يتلفت هنا وهناك رافعاً فأسه في الهواء متأهباً لرميه على أي شيء قد يظهر، لاحظ سرحان قوة هذا الرجل وحماسه لجلب الطعام، فقال له محذراً بنبرات حادة:

. ماذا تظن نفسك فاعلاً؟ احذر أن تصيبني بفأسك، الأجدر بنا أن نبحث عن ضوء يخرج من منزل أو مأوى.

بعد قليل قفز حيوان صغير من أمامهما، رمى الرجل الفأس خلفه، ثم صاح بإحباط:

. انظر، لقد ركنت إلى قولك، وها نحن ذا نخسر أرنباً.

.وهل كنت لتصيبه لو كان الفأس مشهوراً في يدك؟ لقد خسرنا الفأس أيضاً.
. أنت محق، من الأفضل أن نحتفظ بفؤوسنا للذود عن أنفسنا في حال
هاجمنا شيء ما.

بحثا ملياً عن الفأس بين الشجيرات دون جدوى، ثم سارا قُدماً، الرجل يمسك
المشعل وسرحان أمامه يقطع الأغصان الشوكية التي تعيق سيرهم بالفأس
الوحيد المتبقي، فجأة لمع ضوء خافت قبالتهما، فجعل سرحان يضرب
الشجيرات بسرعة وقلبه ينبض بأمل، بعد لحظات صادفوا منزلاً صغيراً أكبر
من مأواهم قليلاً، وعند بابه ظهر رجل مشمر الساعدين مصوباً بندقيته
إليهما وهو يصرخ:

.توقفا، سأطلق النار عليكم ما أيها الوغدان.

سقط الفأس من كف سرحان، وقال بصوت متقطع:

.نح..... تاء..... غرب..... هن..... طفل..... حلي.....

رد الرجل محذراً:

.تكلم بوضوح، لم أفهم شيئاً سوى كلمة طفل، هلا كررت القول؟

أجاب الرجل الآخر:

.نحن غرباء تائهون يا أخي، نبحت عن شيء نأكله، تركنا وراءنا امرأة وثلاثة
رجال جائعين، وطفلا في عوز شديد للحليب.

. يا ويل الغرباء في هذه الأرض، الوحوش واللصوص يجبرونا على استقبال الأشخاص التائهين بفوهات البنادق، يمكنكم الآن الاقتراب.

أخذهما الرجل المشمر الساعدين إلى مأوى خلفي مليء بالأغنام، وهناك اختار كبشاً كبيراً، وقدمه إلى الرجلين، وأخذنا منه قنينة حليب وقربة ماء، وسلّمه سرحان ريبالاً، وسلكا طريقاً مختصراً أوصى بها الراعي. كان الرجل القوي يحمل الكبش، وسرحان الماء والحليب والمشعل والفأس، راح يتذكر الوصية الأخيرة للراعي، وهي أن يرفع المشعل ويمهزه ثلاث مرات في الهواء حين يتعرضوا لهجوم أو مكروه. سارا بخطوات سريعة عجولة، لأن المشعل كان على وشك الانطفاء، أخذهم ذلك الدرب سريعاً إلى حيث المأوى، لكن العشرات من الذئاب ذات العيون اللامعة الرهيبة كانت تحاصره، أمست تهاجم باب المأوى الذي لم يكتمل إقفاله، كان الرجال الثلاثة يضربون الذئاب بالرماح الخشبية، وهي تتكاثر عند المدخل، وتحاول القفز إلى الشق الأعلى المفتوح من الباب.

سرعان ما لاحظت الذئاب الرجلين والخروف، فارتدت إليهما، ربما ظنت أنهما جلبا لها وجبة العشاء، لكن الخروف وجبة صغيرة لن تسد جوع ذئبين أو ثلاثة، والرجلان على كل حال، لم يكونا مستعدين للتخلي عنها حتى لو فقدا حياتهما. لقد كانت مسألة شرفٍ وتحدي قبل أن تكون مسألة محافظة على البقاء. هجمت الذئاب المثارة الغاضبة، مستغلة تفوقها العددي، وصاح الرجل الآخر على سرحان المتجمد:

. ارفع المشعل، ارفع.....

لم يتمكن من رفع المشعل لأن جسده كان متخشبا متصلباً، فرمى الرجل الكبش بعيداً للحيوانات المهاجمة، ونزع المشعل من كف سرحان المشلول، ولوح به في الهواء عدة مرات، لا يدري، ثلاثاً، أربع مرات.. أو أكثر.. لحقت الذئب خلف الكبش المدعور وهي تزمجر بوحشية، وحال المشعل بين الذئب التي بقيت متحفزة، وبين الرجلين، وصاح رفاقهم من المأوى:

.اهربا، لا تقفا هكذا جامدين حتى تعود الذئب الأخرى.

لم يفرا، وعادت الذئب الأخرى سريعاً، وجعلت تقترب كاشفة عن أنيابها الحادة، بدت أفواهها ملطخة بالدماء، وفكوكها متحفزة للمزيد من اللحم، تحرك سرحان أخيراً وشهر فأسه في الهواء متأهباً للذود عن نفسه، الرجل الآخر بجانبه مازال يلوح في وجوهها بالمشعل الذي يوشك أن يخمد.

.أسرعا إلى المأوى.

تجاهل الرجلان النداءات المتكررة، كأنهما لا يسمعان شيئاً، لأن الفرار في تلك اللحظة هو انتحار مؤكد، يعرفان ذلك بالغريزة وحسب، فجأة دوى صوت عيار ناري، وعوى أحد الذئب بصوت مكتوم وسقط إلى جوارهما، فهربت الذئب وغابت بين الأشجار. اقترب الرجل المشمر الساعدين، وجز رأس الذئب بالخنجر وهو يقول بحدة:

. الذئب أكثر الحيوانات عناداً وقسوة، إنها والبشر كائنات قاسية حقودة وذكية تبالغ في خصومتها وكرهها للكائنات الأخرى.

دعا المجموعة إلى مأواه، وأثناء السير بين الأحرش عوت الذئب، ونفخ الحمار بتوتر، ثم طقطع أذنيه ببعضهما متجاهلاً العواء، حين وصلوا إلى المأوى اقتيد إلى زريبة الأغنام، ووقف متردداً عند بابها، رافضاً التقدم، حتى لمس بعض التقدير والوداعة من تلك الحيوانات الأصغر حجماً، إذ أفسحت له موضعاً صغيراً قرب الباب كضيف مرحب به، كما نال حزمة من الحشائش الجافة ألقاها الرجل أمامه، فمضى يأكل بسرعة خوفاً عليها من أفواه الأغنام، اختار الراعي خروفاً آخر وحمله إلى ضيوفه.

في الصباح خرجوا برفقته وأغنامه، ومروا بجانب المأوى. كانت الأرض المحيطة وعرة التضاريس، ولم يجدوا أي أثر للحيوانات الليلية المرعبة، أخبرهم الراعي أنها في النهار تختبئ وسط الأحرش وفي الكهوف والمغارات والجبال البعيدة. سلكوا الطريق التي نصحهم بها، كانت واضحة المعالم تشرف على مدرجات زراعية، هناك رأوا بعض المارة. واختفت الأحرش، وظهرت الواحات الخضراء وشلالات المياه المشرفة على السحول، طبيعة خلابة نسوا فيها تلك الليلة السوداء، وفي خضم هذا المناخ الساحر المعتدل، تساءلوا عن البلاد التي سيذهبون إليها، وما سيلقون فيها من عناء ومتاعب. علام العجلة إذا كانوا سيتعرضون لمكروه! ينبغي ألا يفوتوا على أنفسهم قضاء بعض المتعة في الهواء الطلق. اختاروا كهفاً واسعاً قرب نهر صغير دافق، وفرشوا الحصير على أرضيته. وفي قاع النهر صنعوا مسبحاً كبيراً وسط فجوة محاطة بالصخور، واستحموا وفركوا أجسادهم ليزيلوا أقذار وعرق الطرقات، وانفرد الزوجان خلف صخرة، وتضاجعا وسط الماء، ونظرا إلى جسدي بعضهما لأول مرة

تغريد طيور زاهية، سقسقات مياه جارية، طنين النحل الجاني للرحيق،
وأغاني فتيات يقطعن الشجيرات الضارة من أطراف حقول الذرة.

عرجوا على المسجد الكبير في جيلة ليزوروا ضريح امرأة صالحة بنت كثيرا من
المصالح وسادت في قومها، وهناك وقف حارس المسجد في وجه زكية وأعاقها
عن الدخول، فامتعضت وامتعض الصغير في حجرها.

.غاغغغغغغغغغ

.انظر ماذا فعلت، لقد أغضبت الصغير وستدفع ثمن ذلك.

.هذا لا يجوز، لا يجب أن تدخل النساء إلى المقام المبارك.

.أريد وصغيري أن نزور ضريح هذه السيدة الصالحة، التي عبدت الطرقات
وأنشأت الجسور وصنعت سواقي الماء على جدران المنازل، أليست امرأة هي
الأخرى؟

تفكر الحارس قليلاً وكأنه يتنبه إلى ذلك لأول مرة، ثم أفسح لها الطريق لتمر
مجيباً:

.إنها امرأة حقا، ولو كان لا يجوز دخول النساء لن يكون هناك ضريح لامرأة في
المسجد، يا لنا من حمقى!

مددوا الصغير على سطح الضريح، وتلوا الأدعية، ثم أخذوا المسبحة
العملاقة لصاحبة الضريح، ولفوها حول جسده على شكل دائرة، وتلوا
التسابيح والابتهالات، ثم اتجهوا صوب يفرس، ساروا طويلا وناموا في كهف
صغير، كانت البيئة قد انقلبت وقابلتهم تضاريس جافة وأرض حارة، فرحوا

حين رأوا قباب يفرس وأضرحتها الكروية الشكل كضروع الأبقار الرصابية. شموا رائحة البخور والطيب بمحيطها، لم يكونوا الوحيدين الباحثين عن بركات أصحاب القباب، كان هناك كثير من النساء والرجال والمرضى والمريدين الصوفيين يحجون في يفرس، بدا كل شيء في هذه البلدة غريباً ومقدساً حتى أشكال الناس وتصرفاتهم، بمجرد أن دخلوا استقبلهم عدد من الدراويش الذين تتدلى من أعناقهم الكتب والتمائم وتظهر على سيماهم أمارات الزهد والفقر. تحدثوا عن أنفسهم أنهم قوم تائهون رحّالون، يبحثون عن الشيء ونصف الشيء واللاشيء، ولم يفسروا سوى القليل حول هذه الأشياء، لأن على القادمين إلى يفرس أن يكتشفوا ذلك بأنفسهم، وهم رغم طوافهم وتجوالهم وتلقيهم العلم، مازالوا يدرسون عن الشيء، ومازالت المسافة بينهم وبين ما يريدون معرفته طويلة، وعندما ينهي الدارس المتصوف دراسة اللاشيء، يصل إلى المرحلة الأخيرة التي يرى فيها الإنسان كل شيء بنور الله، وهي آخر المراحل التي يمكن لمتعبد طاهر الروح أن يبلغها، ويسمى بها البعض مرحلة النقاء الروحي الأكبر، وليس وراءها سوى اجتراح المعجزات وعلم الغيب، ويصل الإنسان فيها إلى مشارف الألوهية، وقلما يصل متصوف أو مرید إلى هذه المرحلة، ولا يعرفون شخصاً باسمه وصل إلى مصاف الإله، وما يقال في الكتب والحكايات عن أشخاص وصلوا إلى هذه المرحلة هو محض افتراء، حدثهم بذلك أحد المريدين اليائسين الذين أخفقوا مرات عديدة في الاختبار الأخير، وهو النظر بنور الله.

سلمهم الدراويش ملابس من الخيش حتى الطفل الصغير، وطلبوا منهم أن يودعوا ملابسهم وحلهم وأموالهم وجميع أمتعتهم الدنيوية الأخرى في صندوق

خاص بهم، لقاء بقشتين، نصف بقشة لصالح حارس الأمانات، والبقية مقابل البركات التي يحظى بها الزوار، وتذهب لترميم الأضرحة والقباب وتبخيرها بالبخور الهندي والعودة، أما تغذية المريدين وال دراويش فيتبرع بها المحسنون، وهي قليلة جداً، لأنهم كلما اقتربوا من مرحلة النظر بنور الله، يقل طعامهم، وفي مرحلتهم الأخيرة عند دراسة اللاشيء، لا يأكلون ولا يشربون إلا وجبة صغيرة في اليوم، لأن غذاؤهم يأتي بواسطة حبل سري موصول من السماء السابعة إلى أجسادهم. كانوا مندهشين من كل ما يسمعون ويرون. وأفصح سرحان أن ما رآه في زيارته السابقة لا يساوي شيئاً مما يراه الآن. كان يوم ذاك يسير هنا كالأعمى لا هدف له سوى أن يرزقه الله بولد ذكر.

باتت كل مجموعة من الزوار يرافقها دليل واحد على الأقل من الدراويش، وعند كل قبة أو ضريح يسرد الدراويش لمجموعته نبذه من سيرة صاحب الضريح وكراماته، وأضحت كل مجموعة من المريدين تبالغ في إبراز محبتها لشيوخها، رأوا أشخاصاً ينطحون القباب برؤوسهم حتى تسيل دماؤهم إلى الأرض، وآخرين يتمرغون على التراب باكين قرب القباب والأضرحة. ومجموعة يزحفون على بطونهم العارية فوق الحصى في طريقهم إلى ضريح أو قبة شيخ جليل، وأفرادا يائسين يقطعون خلسة أوردتهم بالمدى، ثم ينتظرون الموت قرب ضريح أحمد بن علوان، ويقاومون كل جهود انقاذهم أو علاجهم، وهنا وجدت مجموعة سرحان نفسها بين أرتال ومجموعات عديدة مجنونة وأفراد من مختلف الأشكال والأعمار وكلهم لابسون الخيش.

كانت مجموعتهم هي الأقل مبالغة في طقوسها، بل والأكثر جهلاً بشئون التصوف. كان لديهم درويش ضئيل الجسد يدعى أبو علي، لكنه غزير المعرفة

طلق اللسان، وعند كل ضريح يضعون الطفل على سطحه، ويبتهلون طالبين البركات الجزيلة، يأكلون مما يأكله أصحاب الحاجات والمريدون، فطير ولبن وحليب للطفل ولا يسمح بغيرها من الطعام، يهتمونها واقفين في الغالب، وفي الثلث الأول من الليل، ينامون تحت سقائف صغيرة قرب عدد كبير من أصحاب الحاجات والمريدين، ويهل على أجسادهم دفء روي عجيب، لم يزعجهم شيء سوى البعوض الذي لم يرتدع عن أجساد المؤمنين، يمتزج طنينه المنتظم بابتهالات الزوار وال دراويش، كان الأشخاص القادمون من القيعان والجبال الباردة يزعجون منه ويصفعونه بغضب، وهؤلاء أمثال مجموعة سرحان كانت تظهر اللسعات على جلودهم على شكل أقراص حمراء مستديرة منتفخة، ولا ينامون إلا متأخرين، لذلك كانوا يهربون إلى زاوية بعيدة خوفاً أن يوقظهم أبوعلي لأداء الصلاة الجماعية عند الفجر، صارت زكية هي الملتزمة الوحيدة في المجموعة، تنهض رغم السهر لتنضم لبعض النساء المجهولات، ويكون الطفل الصغير أمامها نائماً في هندوله محاطاً بناموسية شفافة تحميه من لسع البعوض، فتصلي وعيناها متسمة عليه.

عند فجر يومهم الثالث ارتفع صوت الأذان، فقام المريدون والزوار للصلاة والابتهال، وأوقظ الصوت أفراد المجموعة، وانتظروا حتى أضاء الصبح، عادت زكية من مصلاها، وهنا اجتمعوا في زاوية خالية هادئة، ونظر سرحان إلى جسد الكبير عون الضخم، وإلى الملابس الغريبة التي يرتديها، ثم حول بصره إلى زكية والرجال الثلاثة الأشداء، وانفجر ضاحكاً كأنه يراهم للمرة الأولى:

. أشكالنا غريبة بهذه الملابس، لا أدري هل يحق لنا أن نخلعها بعد أن زرنا

جميع الأضرحة والقباب!

صاحت زكية زامة شفيتها باستنكار:

. أسكت يا مفضوح، لا تعبت بعقولنا وتدنس أرواحنا وتلهينا عن طوافنا،
يجب أن نكمل بقية الشعائر.

. ولكننا أردنا البركات من أجل زوال الشر والنحس من حياتنا، وحياء الصبي
وحسب. ينبغي أن نواصل السفر إلى تعز، وإلا غضب عامل القضاء وأمير
تعز.

ضرب الكبير عون صفحة جبينه بباطن كفه وأجاب:

. نعم، أماننا سفر جديد، أين دليل المجموعة أبو علي؟

ساروا يبحثون على رئيس المجموعة، كانت الأجواء داكنة ساكنة بعد الفجر،
وكثير من الزوار والمريدين يتجهون إلى أماكن نومهم بعد سهر طويل، توقفوا
أخيراً حين رأوا مجموعة كبيرة من الدراويش منتصبين متلاصقين في حلقة
دائرية واسعة، ينظرون إلى وسط الحلقة باهتمام، أشار سرحان قائلاً:

. انظروا، إنهم يؤدون طقساً من طقوسهم! تعالوا نرى ما يفعلون، لعل دليلنا
أبو علي معهم.

اقتربوا بحذر من الدائرة، ووقفوا يراقبون ما يجري، كان هناك درويش وسط
الحلقة، لم يروه، كانوا يسمعون صوته الغائر وحسب، دون أن يفهموا شيئاً
مما يقول. انحنى سرحان واختلس نظرة سريعة من بين أقدامهم، بدا
الدرويش جالساً وسط الدائرة مطرقاً إلى الأرض، يجري اختباراً نهائياً لدراسته
اللاهوتية، وفهموا حالاً أنه يمتحن قدرته على النظر بنور الله، كان أبو علي

قد حدثهم شيئاً يسيراً عن هذه الامتحان النهائي الذي لم يجتزه أحد سوى أصحاب القباب، أخيراً سمعوه يقول بصوت خفيض كأنه ينبع من مكان سحيق:

. في مجموعتك خمسة رجال وامرأة وطفل صغير يا أبو علي، الطفل لديه تميمة ذات سلسلة ذهبية، انظر خلفك أيها الدراويش الصالح، لقد جاءوا ليودعوك. أنا أراهم، هل تراهم؟

التفت الدراويش الواقفون إلى جانب أبو علي، والتفت هو وقال بدهشة:
. نعم إنهم خلفي، أصبحت يا شيخي عقيل ترى بنور الله. لقد وصلت، لقد وصلت.

ردد الدراويش بصوت هائل مفعم باليقين:
. لقد وصلت، لقد وصلت.

وانطلقت الأناشيد وضربت الطارات، وحملوه فوق أعناقهم، واختفى أبو علي وسط سيل عارم من الدراويش، وأقبل الناس من كل أرجاء يفرس، حين سمعوا نداء الوصول وضربات الطارات، كان هذا ينبئ عن مولد درويش صالح يرى بنور الله. وسوف تعد له قبة جديدة من الآن لدفن رفاتة، وسيزوره الآلاف في حياته وبعد موته، وكلهم يسعون للتمسح بأنامله أو بجدار ضريحه. سينشدون منه البركات والدعوات. مضت مجموعة سرحان نحو صندوق الأمانات، لقد شعروا بخوف عجيب من ذلك الرجل الذي يرى بنور الله، شيخ أسمر نظراته ثاقبة عميقة توشك عيناه أن تتكلما بما يدور في ذهنه لفرط

نباهته وعلمه، خافوا أن يقول لهم شيئاً سيئاً عن مستقبلهم وحياتهم، لا يريدون أن يعرفوا شيئاً، فالجهل بشيء ما أحياناً أفضل من معرفته. ليكن ما يكن، لم يعودوا يكثرثون، لكن المفاجأة التي لم يتوقعوها أن يجدوا الشيخ عقيل في انتظارهم عند صندوق الأمانات، كيف استطاع هذا الرجل الصالح الانتقال بسرعة إلى هنا. لا ريب إن هذا الشيخ الدرويش يمارس السحر. هكذا فكروا في أنفسهم، ونظروا إلى وجهه بضراعة، فنظر إليهم نظرة روحانية خالية من العتب رغم أنه بدا مدركاً بما دار في نفوسهم، بعد قليل من الصمت، قال بصوت له صدى:

.لا تخشون شيئاً، أنا لا أمارس السحر، ولكني أعرف أن السحر قذف بكم إلى هنا، وأعرف ما يوجد في التعويذة المعلقة في عنق هذا الصبي.

.هل هو شيء فظيع؟

نظر الشيخ إلى الأعلى بوجه مكدر، وتحرك في موضعه بتملل، ثم حدق في وجوههم الكالحة بنظرة روحانية عميقة، وقال بصوته المخيف الغائر:

.أتريدون حقاً أن أخبركم و...؟

انكب سرحان عند قدميه، قائلاً بضراعة:

.مولاي الشيخ العارف الرائي بنور الله، لا تخبرنا بشيء يكدرنا، لأنني أرى بغريزتي. لا بنور الله. إن الأشياء البغيضة لا ينبغي أن تقال.

.أنت على حق يا بني، خذوا حماركم وانصرفوا، دعوني أذهب...

قطع الشيخ حديثه، وانصرف وليس في وجهه تعبيرات معينة، كان كتابه معلقاً إلى عنقه بواسطة خيط رفيع وسط حقيبة عتيقة مستطيلة من الكتان.

مضوا في طريقهم غرباً كما نصحهم أحد الرعاة، مشوا طويلاً جداً. كان الغمام مازال يظلمهم، وظن الكبير عون إن الحظ الحسن إلى جانبهم، وبركات يفرس أيضاً، رأت زكية أن للصغير كرامته الخاصة، فانفردت بالحمار الذي يحمل الهندول الخشبي، بينما تخلف الرجال عنها، وأصبحوا يسيرون ببرود وتقاعس، كأنهم يراودون أنفسهم على التراجع عن المهمة، هجم الليل عليهم وظهر القمر، فمشوا على ضوءه طويلاً حتى غاب في كبد السماء، إثر ذلك ناموا في موضع مجهول هادئ، وعادوا السير فجراً.

غادرت السحب الأجواء، واحتلت السماء شمس مشعة حارقة. كانت جباههم تلمع وتتكاثر فوقها حبيبات العرق، ثم تنحدر وتتغلغل في شواربهم ولحاهم، أخيراً ظهر جبل صبرٍ أمامهم عالياً، ولاحت أبراج قلعة القاهرة، كان كل شخص في المجموعة قد تعثر وسقط على الأرض أكثر من مرة، لذا اندفعوا مفعمين بقليل من القوة والحماس، في منطقة "صالة" لفت نظرهم حيوان ضخمة محنط يقف على ناصية بوابة ضخمة، بينما مجموعة كبيرة من الناس يتشبثون بحاجز خشبي دائري تتخلله فراغات مستطيلة متناسقة، كانوا يدخلون أذرعهم ويصرخون نحو الداخل كالمجانين. اقتربت المجموعة الصغيرة من السور بفضول، واستطاعوا الوصول إلى مكان فارغ، نظروا إلى

مجاميع عديدة من حيوانات كبيرة ومتوسطة تبدو غالبيتها مستلقية بكسل، والقليل منها واقفة تنظر ناحية السور فاعرة أشداقها الضخمة بتثاؤب، بحيث برزت فكوكها القوية وأنيابها الطويلة القاطعة، كانت تتحرك ببطء وتربض وتتمدد فاردة أجسادها الضخمة على الأرض محاولة سحق الحشرات المختبئة التي تجرؤ على إزعاجها، أو تهرش بمخالها الحادة جلدها السميك، وتهز رؤوسها وذيلها لطردها وإخافتها، تجثم وسط فناء كبير خفيض له سور حجري مرتفع، محاط بحجرات حديدية واسعة وأبواب عريضة لتبيت فيها ليلاً، وأخرى صغيرة لتقيم فيها الأشبال الصغيرة. اندهش أفراد المجموعة واستمتعوا بما يرون، لم يروا مثلها من قبل. لكن الحمار بدا متوتراً يحرك أذنيه يميناً ويساراً، ويحاول الابتعاد، لم تُفتح الحديقة حتى تلك اللحظة، كان من المفترض أن يدخلوا ويقفوا على جسر عالٍ معلق فوق رؤوس الحيوانات، لكن العاملين أخبروهم إن قائد الشرطة سيزور الحديقة في ذلك اليوم، مكثوا في توتر وقلق حتى جاء القائد بعد ساعة محفوفاً بجنود ذو مقاطب بيض وعمائم سود، بنادقهم السبك الطويلة ظاهرة على امتداد أجسادهم وخيوطها عالقة على أكتافهم.

انكمش الزوار في أماكنهم بتهيب، وفتحت الحديقة، فعبر قائد الشرطة بحصانه الخائف إلى فوق الجسر، ثم ترجل وحجبه الأعوان والجنود المحيطين به، في تلك الأثناء، قفز شخص نحو الحجرات بشجاعة، وتصاعدت أصوات المتفرجين مشيرين إليه:

.ها هو المروض، سيقوم باللعب معها، لا أحد غيره يجرؤ على الدخول، لا ريب

أنه سيمتطي ظهورها لإمتاع قائد الشرطة.

دخل المروض بثقة، يلبس حلة بيضاء قصيرة خفيفة بدون أكمام، يحمل في كفه طبقاً صغيراً ممتلئاً بقطع من اللحم، أطلق صغيراً خاصاً، فأقبلت إليه الحيوانات بألفة مخيفة، خافضة رؤوسها وآذانها، وأحاطت به من كل جانب شاخصة إلى الطبق، كتلة ضخمة من الرؤوس والأجساد القوية تتنافس وتتصارع حول رجل يشبه الهنود يوشك أن يفقد توازنه، بدت هزيلة جائعة ومتوترة، شرعت تقتتل لتحتل موضعاً قريباً من الطبق، فمضى المروض يلاعها ويقذف إليها اللحم، وارتفعت أصوات الاستحسان لتحفزه على فعل المزيد، فأخذ يدلي نحوها عصا في طرفها آخر قطعة لحم، ثم يرفعها عالياً وهي تمط أعناقها هادرة بصوت وحشي، فأجفل الحمار وناغي الطفل الصغير:

.خاخخخخخخخخخخخخ.

صاحت زكية في ذروة هياج الحيوانات:

.هيه، الصغير يناغي بالخطر، شيء ما سيحدث، هيا بنا لنخرج.

كان الرجال مشدوهين ومستمتعين، فصرخت ثانية دون أن يحفل بصراخها أحد، ثم نظروا إليها بسخرية وغضب طالبين منها أن تصمت.

حاول المروض أن يمتطي ظهر أكبر حيوان في المجموعة، فزمجر بغضب ومضى يتحرك باهتياج لاوياً ذيله بين قدميه، غدت عيون الحيوانات حمراء كالدم، ووجوهها متجهمة، أصبح في نظراتها وميضاً غريباً مخيفاً ونذيراً قاتلاً، أخيراً رمى الرجل الطبق الفارغ في الهواء، فقفزت الإناث الرشيقة عالياً قبل الذكور الضخمة الكسولة، واحتدم الاقتتال على الطبق، وتراجعت الإناث متنازلة عنه للذكور القوية، سرعان ما ظهر زيف هذا العمل الخادع، رفعت

الذكور عيونها النارية الملتهبة شاعرة بالإهانة، وهاجمت المروض بسرعة خاطفة، ومزقته بوحشية أمام أنظار المتفرجين، اتجه حيوان منها صوب باب الفناء نصف المفتوح، وسار إلى الباب الرئيس الذي تركه الحراس مفتوحاً بانتظار عودة المروض، واندفعت الحيوانات الأخرى خلفه، فهرب الحراس صارخين بخوف، واختلط صراخ المتفرجين بالزئير وأصوات البنادق المدوية. كانت أذرع الجنود ترتجف وهي تطلق عبوات البارود، لذا لم تصب أهدافها المتحركة.

أمتطى قائد الشرطة حصانه، وخرج مسرعاً من الحديقة، وانتبه المتفرجون إلى ما يحدث، فازدحموا قرب البوابة وداسوا بعضهم البعض، وانتقلت عدوى الفرار والصراخ إلى المارة في شوارع صالة المزدحمة، وتفرقوا في كل حدب وصوب، وظهرت الحيوانات الغاضبة وهي تهاجم الناس وتمزقهم، المحظوظون لاذوا بالمنازل القريبة المشرعة الأبواب، وبالمتاجر، والبعض تسلقوا أشجار عرعر باسقة كانت نابتة في الباحات القريبة، أما سيئو الحظ فقد تعثروا وتخططوا وعميت أبصارهم، ولم يجدوا مكاناً آمناً يلوذون به. كانت كل الأبواب قد أوصدت، وكان الأشخاص الأكثر تعاسة وفضولاً يأتون من الشوارع أو المنازل القريبة ليروا ما يحدث، والبعض أتوا للنجدة بمجرد أن سمعوا الصراخ دون أن يعرفوا ماهية الخطر.

كان ضمن هؤلاء رجل قباطي متوسط العمر هاجر إلى أفريقيا للتجارة، جاب البراري باحثاً عن قرون الكركدن وأنياب الفيلة وفرو النمور والسناجب وريش الطاووس، لذا صار يعرف شيئاً من طباع الحيوانات المفترسة وأحوالها. وحين رآها مقبلة وقف بجسارة وسط الشارع، وراح يحث الناس بعدم الصراخ، بل

وحثهم على البقاء في أماكنهم، وعدم إدارة ظهورهم للحيوانات أو الفرار. كان طلبه غريباً ولا وقت لديه للشرح والإيضاح، وصرخ أحدهم في وجهه بغضب:
.كيف تطلب مني الثبات وهناك حيوان ضخم يجري خلفي.

رغم ذلك استمر يصيح:

.ثقوا بي وحسب، لا تخافوا، اثبتوا بأماكنكم، لا تجعلوا من أنفسكم فريسة للأسود.

كانت نصائحه لا تثمر في الغالب، لأن لا عقول للناس في تلك اللحظات الرهيبة. كان الفزع والاضطراب مسيطراً على الجميع. أما أفراد المجموعة الذين وصلوا لتوهم من يفرس، فقد توسلوا بأصحاب القباب والأضرحة، وظنوا أن الكرامات قد تعمي عيون الأسود عنهم. كانوا ممن أعترض الرجل القباطي طريقهم، ونصحهم بالثبات، ولم يستجيبوا لنصيحته مثل جميع الفارين، الرجال الثلاثة الأشداء، لم يعودوا أشداء في تلك اللحظات المرعبة، حيث نسوا مهمتهم في حماية الصغير، ولاذوا بالفرار مرعوبين حتى احتموا خلف جدار جانبي في الشارع، راحوا يتلصصون على الأسود وهي تفترس المتعثرين. أحسوا هناك بالأمان وتنفسوا الصعداء، زفروا الهواء المحبوس في صدورهم الواجفة، وأخذوا يتحدثون باطمئنان، فجأة سمعوا زمجرة خلفهم، حين التفتوا رأوا أسدين غاضبين يلاحقان رجلا يفر ناحيتهم. فهربوا ليلتقوا بأسود أخرى انقضت عليهم بشراسة.

سرحان والكبير عون فرا مع الجموع الفارة حتى انتهىا إلى منزل قريب في الباحة المقابلة للحديقة، طرقا الباب بقوة، لكن صاحبة المنزل لم تستجب لندائهم

المستغيث بدافع الحشمة، كانت تشاهد ما يدور في الخارج من نافذة الطبقة الثانية، بدا جسدها أكثر ابتذالا ومجونا، سافرة الجسد أكثر من أي امرأة أخرى، تجلس بانحناء مثير بحيث أطل عليهما ثدياها البيضاويان، لم يهتما بما رأياه، بل غمرهما الضيق. وحاولا التحلي بالحكمة والأدب، وظلا يلحان عليها بنبرات رقيقة لينة أن تفتح لهما الباب، كانت ذريعتها أنها شابة متزوجة حديثا أوصاها زوجها ألا تفتح بابها لغريب، وأقنعتهما أن يبحثا عن وسيلة أخرى للنجاة، لكن أي وسيلة أجدى من البقاء في ذلك الموضع، وانتظار القدر المحتوم، جرب سرحان أن يشتتمها وينعتها بأبشع الصفات، فلم تكثر أيضا.

كانت الأسود تُسمع وتُرى بالقرب وهي تفتك بالفارين، فجأة ظهر أسد غاضب يبدو إنه الأضخم في الحديقة، اقترب منهما مزمجرًا، وبدأت نفس سرحان تراوده بالهرب، لكن ساقيه لم يستجيبا، كذلك شلَّ جسد الكبير عون وشحب لون وجهه، وفكر هو الآخر بالفرار، في تلك اللحظات، سمعا أحد الأشخاص يناديهما من مكان قريب:

. هيه، أنتما، لا تتحركا. تصرفا على سجيتكما، تحدثا عن قائد الشرطة، تجاهلا الأسود، لا تنظرا في عينيه مباشرة. انظرا إلي، أنا لا أتحرك. افعلوا مثلي.

كانت أمنية سرحان الأخيرة أن يقفز إلى ذلك الرجل ويخنقه حتى تخمد أنفاسه، فكر أنه مجنون لا يعي ما يقول، أو يريد أن يعبت بأعصابهم قبل موتهم، تعجب لحاله وهو يثرثر منذ وقت مضى ويقف الآن وسط الشارع دون أن يقترب منه أسد، هل هو ساحر؟ فكر الكبير عون بشيء مماثل. وظهر الحقد والعجب على ملامحه، أضاف الرجل مؤكداً:

. ثقا بي، لقد زرت براري أفريقيا مع السكان المحليين، وقابلنا الكثير منها هناك، إنها مرعوبة، يثيرها الفرار والصراخ.

تساءل الكبير عون في سره: مرعوبة! لِمَ لا تفر إذا كانت كذلك؟ ليس أمامنا سوى مجارة هذا الرجل المجنون، وإذا كنا سنموت في كل الأحوال، فلماذا نفر؟ أسد واحد لا عشرة أسود، راود سرحان الشعور ذاته، وشرعا يتحدثان عملاً بنصيحة الرجل، كان الحديث هذه المرة جاداً، بدأ الكبير عون يقول لائماً رفيقه ضاحكاً:

. انظر إلى عاقبة الارتياب من كرامات ولدك الصغير، هناك أسد ينتظرنا بالقرب.

. لا حاجة لتذكيري بوجود أسد، ماذا ينتظر هذا المخلوق البشع؟ فليخلصنا من هذا العناء.

. لا أدري! لعله ينتظرنا حتى نكتب وصايانا الأخيرة، ونودع أقاربنا، ثم نسلم إليه أرواحنا في طبق.

لم تعجب سرحان سخرية الكبير عون. بدا غاضباً يائساً من النجاة، ومرتاباً من نصيحة الرجل، لذلك التفت فجأة ونظر في عيني الحيوان مباشرة، وصرخ في وجهه بغضب:

. ماذا تنتظر أيها البغيض؟ لِمَ تنظر إلينا محققاً كالأبله؟ هيا، هاجم وأرحنا من العذاب.

أطلق الأسد زئيراً شديداً، كاشفاً عن أنيابه الرهيبة، ولكن حركة صدرت في الجوار لفتت انتباهه، شخص فار أقبل مسرعاً، فهاجمه الأسد الغضبان، ولم يعد. سمعا صوتاً يناديهما من منزل مقابل، وعرفا صوت زكية الحاد المللع، ولم يملكا الجرأة لاجتياز تلك المسافة القصيرة، نظرا إلى ذلك الرجل الناصح بيأس، فتبسم قائلاً بإشفاق:

. اذهبا وأنتما تمزحان، وتحدثان بأريحية كأن لا شيء في الجوار.

ما كل مرة تسلم الجرة كما يقال في المثل، إن أي صوت يمكن أن يجلب انتباه الحيوانات، بقيا مترددين خائفين من المجازفة، وعندما رأى الرجل التردد بادياً عليهما، تابع:

. ثقاي، التسلل أمر خطير، لأن هذه الحيوانات تسمع دبيب النمل.

عند هذه اللحظة تشجعا، وتقدم الكبير عون إلى الأمام، وأول شيء خطر في ذهنه ليخاطب سرحان الذي تظاهر باللامبالاة:

. لن ألوم مرشد على عشقه لامرأتك زكية، ولو كنت أصغر سنأ لخطبتها لنفسي، لأنها لا تليق إلا لكبير القرية.

انتفض عرق الغضب فوق أنف سرحان، وصاح بصوت مرتفع:

. ما هذا الكلام يا كبير عون، أتحسبني أقل شأنأ منك؟ قل ذلك مرة أخرى، وسأرميك طعمأ للأسود الجائعة وأنجو بنفسي.

. سرحان، تكلم بهدوء، أرجوك، الغضب يوترها.

التفت إلى الحيوانات، فوجدها تراقب بتحفظ واهتمام وكأن الحديث أثار غضبها فعلا، أخذت إحدى اللبوات تتقدم خافضة جسدها ناحية الأرض، مثبتة بصرها على الجسدين المتحركتين. كانت زكية واقفة على الباب المشرع تلوح لهما، لم يعد يفصل بينهما وبين الحياة إلا عشرة أمتار أو أقل، عند هذه المسافة فقد الكبير عون رباطة جأشه، فانطلق يعدو صارخا باتجاه الباب، وأرغم ذلك سرحان على الجري خلفه، وهاجمتهما الأسود، وصاح الرجل الناصح بحزن:

.كشفتما مكاني أيها الغبيان، الفرار تصرف مميت.

وبالكاد استطاعت زكية إغلاق الباب الخشبي، فارتطمت الحيوانات به بقوة وخربشت الخشب بمخالها الحادة، جثا الكبير عون على السلالم منهاراً باكياً، لقد كادا يلقيان حتفهما، كانا حزينين على الرجل الناصح، ويفكران فيما سيحل به.

.هلا تفعلون شيئاً من أجل ذلك الرجل؟

كانت هذه مجرد صيحة فارغة أطلقها الكبير عون لإرضاء ضميره وتبرئة ساحته، نظر سرحان إلى الخارج عبر نافذة صغيرة. كانت الأسود تقترب بغضب من الرجل الرابط الجأش، ولما أوشكت أن تنقض عليه سقط أرضاً بلا حراك كالميت، راحت الحيوانات تخمسه وتجره من هنا إلى هناك، ثم تخلت عنه يائسة من استجابته، وتفرقت في المكان.

خرج الكبير عون وتلفت يمناً ويسرة بحذر، ثم ذهب إلى الرجل، وسحبه إلى داخل المنزل، فقال يخاطب الكبير عون بتأثر:

.ظننتك أسداً من طريقة سحبك لي.

.وأنا ظننتك ميتاً.

وصار هؤلاء الرجال ضيوفاً إجباريين في منزل غريب، كانت مالكة المنزل عجوز عمياء، تسمع الرجال الفارين يتحدثون، وتظنهم من أقاربها، وراحت تنادهم بأسماء غريبة، لم تفهم شيئاً حين أعلنوا أنهم ليسوا من أقاربها، لم تستوعب أن يدخل منزلها أشخاص أغراب بلا دعوة، لكن حين حدثتها حفيدتها بأمر فرار الأسود أيقنت أن هذا سببٌ وجيه لوجودهم. وطلبت منهم أن يغادروا فور انتهاء المحنة، ورغم ذلك كانوا حزينين يراجعون ما لحق بهم من أضرار، فالحمار الذي يحمل الطفل مازال مفقوداً، وبعد أن تناولوا العشاء دار بينهم شجارا حاميا، كان كل زوج يتهم الآخر بالإهمال. أخذت زكية تبكي وتلقي اللوم أيضاً على الرجال الأشداء المكلفين بحمايته، ونال كذلك الكبير عون شيئاً من العتب لأنه وثق بهؤلاء الرجال، والأخير ألقى اللوم على القدر، ولم توقفهم إلا العجوز التي أجبرتهم على الصمت، وذكرتهم أنهم في منزلها ولا يحق لهم رفع أصواتهم عالياً، وإزعاجها بأمور لا شأن لها بها، وحين يخرجون غداً إلى الشارع فليرفعوا أصواتهم كيفما شاءوا.

كان الجنود يطاردون الوحوش الضارية في شوارع المدينة، وهذا جعل السكان يمكثون في منازلهم، كان الزئير يملأ الضواحي والأحياء في هدأة الليل، بينما خفت أصوات البشر والكلاب، ودوت أصوات البنادق في الهواء، أمسى الجو مشحوناً بالخوف والتوتر، ولم تكفكف زكية دموعها حتى وقت متأخر من الليل. في الصباح بدأت الحركة تدب في المدينة، وصار الناس يبحثون عن

أقاربهم المنفوقدين. شاهد الكبير عون وفريقه عددا من المارة يمشون بثقة في الشارع القريب. رأوا جثثا سليمة لم تؤكل، وكثيراً من الجرحى، شرح لهم الرجل القباطي الآتي من أفريقيا عن أسود تنزانيا، الأسود هي الأسود في أي بقعة في الأرض، والإنسان هو آخر حيوان يمكن لها أن تفكر في افتراسه، لكن في حال غضبت الحيوانات المفترسة فإنها تقتل أشبالها، حالما سمعت زكية ذلك مسحت كفيها بياس، ونظرت إلى سرحان نظرة معبرة، فاكتسى وجهه بالحزن، وتضامن معهما الكبير عون الذي عاد يؤكد على كرامات الصغير الذي نجا من الانفجار الرهيب.

أثناء ذلك مر بضعة أشخاص يحملون لبوة مقتولة مربوطة بالمقلوب على فرع شجرة قرنبيط طويل، ثم توالى المجموعات التي تحمل جثث الأسود، وخلال سيرهم الدؤوب عثروا على هيكل حمار مازال يحتفظ بذيله وبقايا أنسجة حمراء على الضلوع وعظام الوركين والساقين، إلى جواره قماش البردعة وجزء من الأربطة والسيور. الهندول بالقرب مهشم وأخشابه الصغيرة مبعثرة في المكان، أطلقت زكية العويل، وجثت على الأرض، وغمر الحزن سرحان، وفجع الكبير عون، وقفوا محتارين واجمين، وتساءل الرجل المهاجر في إفريقيا عن بقايا جسد الطفل، لكن زكية صرخت في وجهه طالبة منه السكوت، أي بقايا يريد هذا الرجل من طفل رضيع! لقد رأت أفواه الحيوانات الواسعة، بمقدورها أن تبتلع رضيعاً دون أن تضعه بين أسنانها، وهكذا اعترفوا أن رحلتهم انتهت دون أن يحققوا المراد منها، وفي هذه الحالة، قرروا أن يمروا على الأمير الناصر، ويشرحون له الظروف الجديدة التي حدثت، لا ريب أنه لا يجهل ما دار في المدينة.

ارتقوا سلالم قلعة القاهرة المتربعة على رأس ربوة عالية فوق المدينة. انتظروا ثلاثة أيام قرب البوابة الخارجية حتى أذن لهم بالدخول في يوم المظالم. حيث اجتمع عدد كبير من المظلومين الذين ينشدون الإنصاف، وعند باحة كبيرة وسط القلعة، جلس قائد الشرطة على كرسي خشبي رافع، بدا هادئاً على عكس ما توقعوا، بالقرب منه كرسي فخم زاهي الألوان مبطن بفرو الأرناب وريش الطاووس على جوانبه، لكنه مازال فارغاً. في الجانب الآخر كرسي متواضع لقاضي شرعي يفصل في القضايا التي تتعلق بأمور الميراث والشئون الدينية. فكروا في أن الأمير مازال نائماً في تلك الساعة المبكرة من الصباح، شغلوا أنفسهم بالهمس والتحديق في جدران القلعة، أخيراً خرج الأمير من أحد الممرات تتدافع الجنود حوله كأحد السلاطين القدامى الغارقين في النعيم والجاه، مازالت آثار النوم بادية على وجهه العابس وعينييه الوارمتين، يرتدي حلة أميرية، وعمامة خضراء، جلس على كرسيه، ومسح لحيته الصفراء، ونظر إلى قائد الشرطة موحياً ببدء العمل، وأول الشكاوى التي أثرت كانت عن الأضرار التي ألحقها الأسود، ومن يتحمل مسؤوليتها، حوّل قائد الشرطة الشكاوى إلى الأمير الصارم الملامح، ثم ارتد إلى الخلف منتظراً لما ينتج من جواب، كان الجميع يقولون إن أحكامه قصيرة حاسمة ولا مجال لمناقشتها، كان الشاكي هو أحد أصحاب المنازل المجاورة، ويملك مزرعة قطن قرب حديقة الأسود تدر له مالاً وفيراً يغطي نفقات عائلته لمدة عام، لكن أقدام الفارين سحقت شجيراته قبل بزوغ براعمها.. سكت الرجل واقترب ليسمع الجواب، فجاء رد الأمير الناصر بكلمة واحدة:

.المروض.

.لكنه أول الضحايا أيها الأمير المبجل.

تقدم الأمير ولطش صاحب المزرعة دون أن يتكلم، وسحبه الجنود وقذفوا به إلى الخارج، فدب الذعر في قلوب أصحاب الشكاوى، وساد الصمت برهة من الوقت، ونودي للقضية الثانية وكانت غريبة جداً، حيث برز رجلان يمسكان طفلاً رضيعاً يبدو في عام وبضع شهور من عمره، وكل رجل يزعم إنه والده، نظر قائد الشرطة إلى القاضي الشرعي علّه يجد عنده جواباً، لكنه هز رأسه محتاراً، فالقضية ليس لها تفسير في التشريع الإسلامي، بدت معقدة مثل أحجية، رد قائد الشرطة بصره إلى الأمير الناصر، ولم يجد جواباً أيضاً، ثم رمق إلى وجهي الرجلين المتخاصمين، علّه يكتشف من تعبيراتها من هو الرجل المحتال، لكن ملامحهما بدت جامدة قاسية، وليس لديهما ما يضيفاه، فانتصب وقد نفدت جميع حيله، وتناول الطفل وشهره في الهواء صارخاً بغضب:

.من يعرف شيئاً عن والد هذا الطفل، فليأتِ إلى هنا؟

صاحت زكية بصوت حاد:

.سرحان، الولد...

وصاح سرحان وهو لا يدري عن ذلك النزاع شيئاً:

.هذا ولدي، هذا ولدي.. ولدي.. ولدي..

أخذ الجنود يفسحون له طريقاً ليمر بين جموع المظلومين، حتى وصل إلى
أمام منصة الأحكام، وتقدم ليأخذ الولد وهو يقول بامتنان:

.لا أعرف كيف أشكرك أيها المبجل.

صاح قائد الشرطة:

.هيه، مهلاً، هل تعرف والد هذا الطفل؟

.أنا والده.

صرخ الأمير الناصر مهدداً:

.ثلاثة أشخاص يدعون ملكية هذا الصبي! كيف نك هذا المأزق الآن؟ إن لم
تجدوا والده سوف أمزقه بسيفي أمام عيونكم، لقد قتلت أطفالاً في عمره.

صمت الرجلان الآخران بينما صاح سرحان بفرح:

.أيها المبجل، لا تفعل هذا، الولد يملك الحل، يستطيع أن يكشف والده
بواسطة النغاء.

.ماذا؟ النغاء!

.نعم، النغاء، إنها لغة الأطفال في عمره.

أخبرهم سرحان عن الحرف الذي يرمز إلى الموافقة، والحرف الذي يرمز إلى
النفي، وأنه سيسأل الصبي عن والده، رفض الرجلان المتخاصمان هذه
الخطة زاعمين أن من الجنون توجيه سؤال لصبي في عمره لا يفقه شيئاً، لكن

الأمير راق له هذا الأمر، ولم يعد للاعتراض أي معنى، فأوقف سرحان الطفل أمام الرجل الأول، وخاطب الصغير قائلاً:

.أهذا أبوك؟

.غاغغغغغ

قام الجنود بتكبير الرجل وأخذوه إلى السجن بأمر الأمير الناصر، وتكرر الأمر مع الرجل الآخر، وأخيراً سأل سرحان الطفل بقلب راجف:

.أأنا أبوك؟

.يايبيبيبي

ومع ذلك تقدم الأمير ولطش سرحان في وجهه، صائحا بتغطرس:

.أنت ساحر، هذه اللعبة لا تنطلي علي.

أمسك سرحان خده، وطلب شهوده، فأقبلت زكية واحتضنت الطفل بشدة، وأتى الكبير عون خلفها يمشي بعجل، وانحنى أمام الأمير الغاضب بخنوع، قائلاً بدمائة:

.أنا كبير قرية صغيرة في قاع الحقل، وقد بعثنا إليك عامل قضاء يريم بهذا الطفل الذي نجا من الانفجار، وهذا كل شيء أيها المبجل.

هتف الأمير بصوت هادر:

.أها، أنتم مبعوثون من العامل، نعم، نعم، أطفال كثير يبعثون إليّ من أرجاء البلاد من أجل نبوءة غبية حررها ساحر مجنون.

.ماذا تقصد أيها المبجل؟

.لا شأن لك يا كبير القرية، السحرة كاذبون وإن صدقوا كما قال النبي، هل

تصدّق بما قال النبي؟

.نعم أصدق أيها المبجل، أنا رجل مؤمن.

.اسمع، لا أحفل بنبوءة الساحر، أو حتى بوصايا جدي الثامن الأمير المتوكل

عباس، ولم أقرأ أياً من وثائقه، لأنني ببساطة لا أحب ما جاء فيها، وصرت

أمقت الأطفال المميزين.

صمت قليلاً متفكراً ثم أضاف:

.لكني مجبر أيضاً على إتباع أوامر والدي أمير البلاد، فقد بعث إليّ البارحة

رسالة أن أكف عن قتل الصغار، وأن أبعثهم إليه، لكني حقا أريد أن أسحق

كل طفل مميز في هذا البلد.

سكت الأمير، وأخذ يمسح لحيته، وينظر إلى الصغير المتربع في حجر زكية،

وكأنه يفكر كيف يفعل به، وتابع بنبرات حادة:

.هذا الصغير الهزيل محظوظ، لأنني سأبعثه إلى صنعاء، فالأمراء هناك يهتمون

بمثل هذه الترهات، لاسيما شقيقتي الأميرة المدللة شوق، ينبغي أن يدركوا أن

الأسود خرجت من صالة، وليس الققط المنزلية المتوحشة، وشتان بين

الققط والأسود.

وبعد لحظة صمت أعقب:

. مازال لديكم رحلة سفر إلى صنعاء لمقابلة الأمير الأكبر، هيا اخرجوا، جنود صنعاء في انتظاركم.

. أيها المبجل...

. أخرجوهم، واكتبوا تقريراً عاجلاً بما جرى في صالة، أظن هذا الأمر يهمهم، لاسيما الأميرة المدللة شوق، لا أحفل بذلك، ولا أؤمن بأقوال السحرة.

ونظر الأمير الناصر بغضب إلى وجه قائد الشرطة، فشرع يكتب التقرير. ودفعهم الجنود خارج القلعة. وسقط سرحان ورفاقه وسط دوامة من الدهول، كان السخط وعدم الرضا باديان على ملامحهم، نظروا إلى بعضهم نظرات معبرة مقصودة، لقد أضمروا العودة إلى قريتهم، كانت عيونهم تشع بالاستنكار والرفض، أدركوا من دون كلام أن عليهم الخروج من هذه المغامرة، لأنهم ليسوا مؤهلين لخوضها، ليسوا من هواة السفر والجري وراء المخاطر والمفاجآت، إنهم أشخاص جبلوا على العيش في قرية صغيرة هادئة، أسمى أهدافهم هو هطول المطر، وأجمل أيامهم هو يوم الحصاد، ناهيكم أنهم منهكون من سفرهم الأول وأقدامهم لا تقو على السير ثانية، وإذا كانت الأسود خرجت إليهم من تعز، فلا أحد يعلم ما سيحدث لهم في صنعاء. رأوا قائد الشرطة يسلم تقريره إلى يد جندي من جنود أمير البلاد، ثم سلمهم جنود الأمير الناصر بشكل رسمي إلى جنود صنعاء أيضاً. وهؤلاء أربعة جنود إلى جوارهم فرس عرجاء، مشدود عليها مخللة صغيرة.

(4)

ساروا محاطين بجند غلاظ الأبدان يحملون أربع بنادق موزر مخيفة، كان الطفل الصغير محشوراً داخل المخلاة، ظلت زكية تراقب بأسى الصغير الذي يتأرجح ويناعي بلا اكتراث، وتقول لنفسها: لن ينجو هذه المرة. وكلما حاولت الاقتراب منه توقفها نظرات الجنود القاسية الزاجرة، وحالما غادروا آخر ضواحي المدينة، أملى عليهم الجنود قواعد الرحلة الجديدة، ينقسم موكب السفر إلى قسمين، الجنود والطفل والفرس، ثم سرحان والكبير عون وزكية، أي شخص في القسم الثاني يحاول الفرار سيطلقون عليه النار، وسيترك جسده طعاماً للنسور والضباع، على كل قسم أن يلبي حاجة أفرادهم من الطعام والشراب، يكون الجندي المسمى عاكف هو من يصدر أوامر التوقف والسير، وأخيراً ينبغي الالتزام بقواعد السفر وعدم طرح الكثير من الأسئلة.

بعد مدة من السير تنازل أفراد القسم الأول عن أحد أفرادهم وهو الطفل الصغير، لأنهم لم يحتملوا روائح بوله وبرازه، وأوكل أمر راعيته إلى شخص في القسم الثاني وهو زكية، ولم يكن هذا جديداً فهي من كان يعتني به منذ خروجهم من القرية، وبمجرد أن تناولت الصبي تعاملت معه كما تفعل الأم، فصار نظيفاً لامعاً، وتوقف عن البكاء وصار يناغي ويلعب، ثم تنازل الجنود عن رقابتهم، وغدوا أكثر ليناً واطمئناناً.

وأثناء فترة الراحة قرب جدول متدفق، في بلدة مجهولة، رأت زكية سرحان يغسل وجهه وأطرافه فاقتربت منه وقالت:

. يتحتم عليك أن تقف إلى جانب طفلك، لكنك تفر منه وتتحاشاه كالوباء، لن أتخلى عنه أبداً ولن أسمح لك أن تنتزعه مني. إنه ولد مبارك.

. إننا لسبب ما نقاد إلى المجهول، وقد فقدنا ثلاثة رجال، ونجونا بأعجوبة من أفكاك الذئب والأسود، ولا أدري بعد ما ينتظرنا في هذه الرحلة.

. ما جرى ويجري ليس أكثر مما جرى لأتباع الأنبياء والصالحين، حيث بترت أعضاءهم التناسلية وآذانهم وأطرافهم وسملت أعينهم، هل سمعت بشيء أبشع من ذلك؟

بدت بجانبه تماماً، احتك ثوبها المكشكش بملابسه. كان جسدها يبعث إشارات واضحة، فتصرف على نحو غريزي، وجذبها بعيداً إلى خلف شجرة عرم ضخمة، رآه أحد الجنود ولم يحرك ساكناً، فتبسم له سرحان ثمناً لسكوته، ومانعت زكية ممانعة كاذبة.

.لا.. لا.. الجنود هناك والكبير عون.

قال مازحاً:

.دعيني أفعليها قبل أن يُبتر عضوي.

بعد قليل خرج من العملية خاسراً، فصاحت بغضب:

.هذا سبب كافٍ للبتر.

أجاب بوجل وهو يلهث:

.إنها أسحار الفقيه مرشد الطيارة، لا يريدنا أن نكون سعداء، ذلك الساحر
الملعون، فقيه السوء، لقد أبطلنا.

.لا تدع تفكيرك يذهب بعيداً، ما مررنا ونمر به من محنة ليس قليلاً.

.ما أدراك أنني لا أقرب من الصواب!

قالها هامسا بنزق، وذهب إلى الرجال، وهو يحاول أن يخفي إخفاقه، ضحك
الجنود حين رأوه بذلك الحال، وقال عاكف شامتاً:

.لا عليك، هذا يحدث دائماً بين الأزواج.

.لا تشمت يا عاكف، لن يكون عضوك أصلب من عضوي، كما ترى لقد هدنا
السحر الطيار والسفر.

انقلب مزاج عاكف بشكل مفاجئ وصاح بغضب:

.ألا تخجل مما فعلت؟ ها قد انتهكت قواعد السفر، هذا الفعل القبيح خليق
بالقطط والكلاب.

.يا أخي عاكف، لِمَ تشمت من هذا الفعل؟ إن كنت تمارس هذا مع امرأتك في
المنزل، فبوسعك أن تفعلها أيضاً في البرية.

امتقع وجه عاكف وأشار لسرحان أن يصمت، لسبب ما صار هذا الجندي
متطرفاً حذراً في تصرفاته، وأصبح عدوانياً منفِعلاً. ولا يعرف سبب انقلاب
مزاجه المفاجئ.

كانت الشمس حارقة وهم يعبرون منحدر أغبر داكن فوق أرض بركانية قاحلة، برزت أشجار الصبار العملاقة وأشجار سنام الجمل، ظهر شعب متعرج مغطى بالحشيش الجاف، وسُمع صوت انقصاص العيدان اليابسة بفعل الأشعة القاسية والجفاف، فجأة ظهر أمامهم أرنب بري كبير، فعَبَّأ عاكف البارود في بندقيته ثم أطلق النار، وصاح على الجميع أن يهبوا لمساعدته في العثور على الأرنب المصاب، توغل الجنود بين الحشائش وهم يسوقون الفرس العرجاء ورائهم، كان الدخان يتصاعد كثيفاً، والطفل يناغي نغاء الخطر، ونهتهم زكية إلى خطورة الموقف، أرادت أن تسحب الفرس بعيداً، لكن الجنود رفضوا، واستمروا في البحث عن الأرنب، فأخرجت ثديها الأبيض واقتربت من الفرس العالقة، ما جعل الجنود يشيحون أبصارهم بعيداً بتأفف واضح، أخذت الصغير من المخلاة، وابتعدت سريعا عن المكان.

الجنود كذلك تركوا الحيوان والأرنب وفروا، وتحركت الفرس، لكن مقودها علق على ساق شجرة سنام الجمل، وانتشرت النيران حولها، خرجوا جميعا من ذلك الشعب الملتهب، ومضوا في طريقهم الآمن غير مكترئين بالحيوان. ظلوا يسرون ثلاثة أيام، دون أن يصادفوا أمورا مزعجة.

في قرية ضاف، اقتنوا حماراً، وأخذوا قنينة حليب من مزارع طيب يملك أبقاراً، ثم استسقوا لأنفسهم، لأنهم سيصعدون نقيلاً شاقاً وسط حرارة مرتفعة، أخرجت لهم امرأة يهودية من مخزنها قنينة كبيرة مسدودة بفلينة، فكبوا قدراً كبيراً منها في بطونهم، واحتفظوا بما بقي في مخاليمهم، استغربوا أن

يكون الماء في "ضفاف" له طعما غريبا لا يشبه مذاق الماء في أي مكان آخر، وبعد هذه الجرعات الهنيئة التي رشفوها بدأ طريقهم يتعرج ويضيق رغم اتساعه، وظهرت عليهم أعراض غياب العقل والبصيرة، وصلوا عند الغروب إلى وادٍ مهجور تحف به صخور ضخمة وجبال صغيرة تتأكل مع الزمن. كانت خطواتهم تتعثر مع مرور الوقت، وتتباطأ، ويزداد عطشهم، فيشربون من الماء الغريب ويسيروا متخبطين دون كلل، حتى سد طريقهم جبل عالٍ أجبرهم على التوقف. ارتموا على ظهورهم دائخين، رأّت زكية الحمار يأكل العشب بالقرب منها، فقالت بصوت متراخ وهي تضحك:

.انظروا، نملة سوداء تأكل العشب.

أجاب سرحان بتلعثم:

.ليست نملة أيتها الحمقاء، إنه برغوث.

ثم جلسوا يقذفون النملة أو البرغوث المزعوم بالحجارة، حتى غاب الحمار عن أعينهم، مضوا يسألون بعضهم بثل عن مكان النملة أو البرغوث، فنهض الكبير عون _ وكان أكثرهم صمتاً حتى تلك اللحظة وربما أقلهم شرباً للماء الغريب _ وأخذ يتخبط في مشيه ويقول بتلعثم:

.سألحق بالخنفساء.

اجتاز بضعة أمتار في الظلام، وسقط على وجهه وسط بركة صغيرة من الماء، بعد لحظات شعر بنفسه وارتد إليه وعيه، فارتجف من وحشية المكان ورهبتة، رأى أمامه خيال جبل عالٍ مخيف، من حوله حطام صخور رابضة

بعشوائية مفرطة، سمع رفاقه يهدون، ما لبث أن وجدهم مبطوحين ينظرون إلى النجوم ببلادة كالأطفال الرضع، كان البرد يسري في عظامه بسبب البلل والهواء البارد، وجد بالمصادفة بعض الحطب الجاف قرب حوض الماء، فأوقد ناراً بواسطة احتكاك العيدان كما كان يفعل الإنسان القديم، عثر على ثوب خَلِقَ في مخلاته فغير ثيابه، ونشرها على الصخور لتجف، وتدثر بلحاف ثقيل، ولما شعر بالقوة والدفء سار إلى رفاقه، وجعل يبذلهم بالماء حتى أفاقوا، كان الجنود بالقرب مكومين غائبين عن الوعي، دار الثلاثة حول النار متدثرين بما يملكون من أغطية، وقال الكبير عون:

.أظن أن القنينة التي شربناها كانت مليئة بالنبيذ الأبيض الجيد بحيث أننا عجزنا عن مقاومته، فأوهمنا أنفسنا أنه ماء رغم مذاقه المختلف.

هتفت زكية وهي تستعيد وعيها المبتوث:

.هذا لا يهم الآن، نريد أن نعرف أين نحن!

.لا أدري، نحن بمكان ما قرب جبل شاهق، سوف نكتشف ذلك في الصباح.

سأل سرحان وهو يمد أنامله نحو النار:

.ماذا نفعل بهؤلاء الجنود؟ أرى أن نتركهم هنا ونرحل، هذه فرصتنا الوحيدة.

قفزت زكية من موضعها قائلة بفجعة:

.يا ويلي، أين الحمار والصغير؟

لم تنتظر الجواب، أخذت مشعلاً وسارت نحو اليمين، واضطرا أن يتبعها، بعد قليل أوقفها الكبير عون، لأنه لم يجد أثراً على الأرض، لذا ساروا في

الجهة الأخرى، حتى وجدوا آثار حوافر الحمار واضحة على الطين قرب البركة، فتعقبوا الأثر، ووجدوا علامات تشير إلى أن جسد حيوان دك بقعة من الأرض وسحق شجيراتها، ما ينم عن حدوث عراك بين حيوانين أو أكثر، لحقوا الأثر حتى عثروا على الحمار محاطاً بخمسة ضباع، وحين رآهم أطلق نهيقاً عالياً، واستمر يرفس بقدميه في الهواء، ولم يستطيعوا فعل شيء، تذكر الكبير عون أمر البنادق، فعادوا إلى حيث الجنود وأخذوا بندقيتين، لكنهم لا يستطيعون استخدامها، هذا العمل لا يجيد فعله سوى الجنود، وإيقاظهم يعني العودة إلى قبضتهم، لكن الضباع لن تترك لهم خياراً، فأيقظوا أحد الجنود وهذا الأخير أيقظ رفاقه، حيث أغرقهم وسط الماء، وأخذوا بنادقهم وشحنوها كما يجب، واستغرق هذا وقتاً طويلاً لأشخاص ذاهبين في مهمة إنقاذ، حين وصلوا كان نصف الحمار قد اختفى، ويلتهم منه أربعة ضباع فقط، فصاح سرحان بعجب:

.ألم يكونوا خمسة ضباع؟

وأضاف باستغراب وهو يتلفت حوله:

.أين الضبع الخامس؟

. أين الطفل؟ هذا هو السؤال الذي يجب أن تنطق به، لكنك لا تكترث بالصغير كأنه ليس من صلبك.

وتشاجرا، لكن أصوات البنادق الأربع جعلتهم يجفلون، وعلى إثرها هربت الضباع الأربعة أيضاً، ولم يعثروا على الصغير قرب جثة الحمار، عادوا إلى قرب النار التي أوشكت على الخمود، وزودوها بالمزيد من الحطب، وأخذوا

يتشاورون. كان سرحان حانقاً حزيناً، ومع ذلك لم يحاول التعبير عن مشاعره وكأن الرحلة أثّرت في روحه، وتركت في نفسه أثراً من قسوتها، على عكسه كانت زكية لا تخفي شيئاً في نفسها، وحاولت أن تلصق أمر اختفاء الطفل على شخص ما، أو على شيء ما، فقالت بتشائم مجيبة على سؤال سابق:

لعل الضبع الخامس أخذ الطفل وهو الآن يلتمه.

رد سرحان بحدة:

.ربما حدث العكس، أظن الصبي الآن يلتم الضبع أو يلهو به كدمية.

صاحت زكية بغیظ:

.الأجدر بك الآن أن تبحث عن طفلي الحبيب، لا أن تسخر منه.

.ماذا؟ طفلك؟

قاطعهما عاكف الذي ظل ساكناً طوال الوقت، إذ مازال يشعر بثقل في رأسه، لأنه عب كمية أكبر من النبيذ:

. اسكتا، عليكم اللعنة، لستما في منزلكما حتى تتشاجران، مازالت قواعد الرحلة سارية على الجميع، نحن الآن في مكان مهجور وعلينا التفكير في حل ما.

نظروا إلى وجهه مدعين أملين بشيء مفيد وجود به، كان يبدو من خلال نبرات صوته، وتعبيرات وجهه المشدود الواثق إن لديه فكرة ما، تابع حديثه:

.بركة الماء ليست بالمكان الآمن، فالحيوانات تتردد إليها لتشرب، نحن في عوز شديد لكهف مرتفع بين الصخور لننام، وبتناوب على الحراسة.

أخذوا المشاعل وراحوا يفتشون عن مأوى بين الصخور، بغتة تجمد أحد الجنود بمكانه مندهشاً قرب كهف واطئ، ثم أشار إلى شيء ما في الداخل، كان الصبي يلهو برأس ضبعة ضخمة، مستلقية على الأرض إلى جانبها ضبعين صغيرين من أشبالها، قفزت زكية بجرأة نحو الضبعة، فأمسكها عاكف ومنعها من التقدم، صارت كل أنثى تنظر إلى الأخرى بشراسة، وتستعد للقتال، إلا أن صوت أنثى الضبع كان عالياً وأنيابها كانت بارزة على نحو مرعب، شحن الجنود بنادقهم متأهبين لإطلاق النار، لكن عاكف أمرهم بالتريث حتى لا يصاب الصغير بمكروه، بعد لحظات علت أصوات الضباع في الجوار، واقتربت أكثر، كأنها أتت للنجدة، بدت عيونها وامضة بوضوح في الظلام، لكن الكبير عون بدا كأنه توصل وأنثى الضبع إلى اتفاق غير مكتوب، إذ قفز إلى أمام الجنود فardاً ذراعيه دافعاً أجسادهم إلى الخلف، مطلقاً صوته المبحوح الأمر:

.تنحوا جانباً، أعرف ما تريد الضبعة، أنتم الآن تسدون طريقها، دعوها تمر وشبلاها والطفل، وإلا هلكنا في هذا الكهف.

تراجع الرجال عدة خطوات إلى الخلف، مفسحين لها الطريق، حتى زكية تراجعت وهي تبكي، كاد قلبها يسقط عند قدميها، وهي ترى أنثى الضبع تحمل الصغير بفكيها القويين، وتمر وشبلاها من جوارها، لا تفصل بينهما إلا خطوتين حتى توارت في الظلام. بعد ذلك حل صمت ليلي رهيب، كانوا متعبين

ومضطربين، أكلوا بعض الفطير واللبن الذي بحوزتهم، ووزع عاكف مناوبات الحراسة بين الجنود بالقرعة، كل جندي يحرس ربعاً من الليل، ظهرت في تلك الوهلة أسماء الجنود الثلاثة الآخرين، مرهب وصالح ومرزوق، على هذا الترتيب سيتناوبون على حراسة الكهف حتى الصباح، ووقع حظ عاكف في المناوبة الأخيرة عند الفجر أو أنه تواطأ مع نفسه، ليتسنى له النوم والراحة، فقد كان يبدو متعباً مرهقاً أكثر من الجميع، كانوا يملكون وسيلتين للحماية، البنادق والنار، وهذه الأخيرة إلى جانب ردع الحيوانات، تكون فائدتها الأخرى هي تدفئة الكهف، لأجل ذلك انتشروا في المكان لتجميع الحطب والعيدان الجافة، بعد لحظات سمعوا صرخة مرتفعة فهبوا ناحية الصوت خائفين، وجدوا بندقية مرزوق مرمية على الأرض، ولا أثر له في المكان، لمحوا عيوناً مضيئة تبتعد، وأرادوا اللحاق بها، لكن الكبير عون استعمل امتياز أقدميته في السن، وخبرته السابقة في توجيه الأوامر للقرويين، وأيضاً ضخامة جسده، فأعاقهم عن الذهاب خلف العيون اللامعة قائلاً بصوت حازم:

. لا تذهبوا خلفها، الوحوش تريدنا أن نتفرق فينالوا منا واحداً واحداً، هناك أكثر من حيوان، لا جدوى من إنقاذ مرزوق لأنه شبع موتاً.

لم يكن متأكداً مما يقول، لكن هذا ما كان يظنه صحيحاً، وفي الحقيقة كان يخشى أن يظل وحيداً في الظلام، حيث يسهل اصطیاده، ظلوا يتجادلون بعض الوقت، ثم عادوا على مهل باتجاه كهفهم، كانوا محبطين أكثر مما كانوا، وقال عاكف مخاطباً الكبير عون بسخط:

. إياك أن تقف في طريقي مرة أخرى، أنا هنا المسؤول عن سلامة الجميع.
لولاك ربما استطعت انتزاع مرزوق من بين فكي الوحش.

. لا تغضب يا بني، لو كان مرزوق حياً كنا سنسمع صراخه.

. لا تنادني هكذا، السن لا يعني شيئاً في مثل هذه الظروف، في المرة القادمة لا
تتدخل في شئون عملي. هل تفهم؟

هز الكبير عون ذقنه بامتعاض ولاذ بالصمت، كانت زكية جالسة وحدها
متجهمة عند مدخل الكهف، كان هناك ساقيتين على خديها، ما يعني أنها
أراقت كثيراً من الدموع، صاحت في وجوههم بحدة:

. كيف تتركون امرأة وحيدة داخل كهف أيها الأندال؟ حتى أنت أيها الوغد.

أشارت إلى سرحان بإصبعها، فهب إليها مستفسراً بطريقة توحى بإحساسه
بالأسف. كانت المرة الأولى التي تعتب عليه بالتقصير في حمايتها، وتبدي ضعفاً
شديداً ممتزجاً بالدلال. كان هذا شعوراً لذيذاً يبعث على الغرور. سألتها
باهتمام:

. ماذا حدث لك؟

. حيوان مرقط هجم علي.

زودوا النار الخابية بقطع إضافية من الخشب، فشع نور ذهبي في أرجاء
الكهف، وجلسوا حول المرأة الباكية، وكأنهم أرادوا إشعارها بالأمان والدفء،
بدت زكية في حال جيد، ولا أثر للجروح أو الدماء على جسدها.

بعد أن غادروا، سمعت فجأة شيئاً يتحرك في الخارج، كان الضوء خافتاً في الكهف، فزودت النار بقليل من الأعواد الجافة، بحيث ارتفع لهبها قليلاً، وانتشر الضوء، ظهر فجأة قرب المدخل حيوان يشبه القط المنزلي، مرقط ببقع سوداء وصفراء، أضخم وأطول من الكلب، وأصغر من اللبوة، ومهما يكن من شكل هذا الحيوان، فإنه أخذ يزمجر ويتقدم ناحيتها بإصرار، لم يكن لديها وسيلة للدفاع عن نفسها، حاولت أن تأخذ مشعلاً من النار، لكن هذا الحيوان قطع عليها الطريق، ووقف أمامها مزمجرًا.

كانت قد سمعت جدتها تتكلم عن حيوان مرقط يخجل من النساء، يعيش على هضبة عالية في الشعاب المحيطة بالقرية، وفي يوم من الأيام تشاجرت امرأة وزوجها عند الغروب، وقام الرجل السافل بطردها من المنزل، بحيث وجدت نفسها مرغمة على السير إلى قريتها الواقعة خلف الهضاب، فأسرعت في مشيتها لكن الظلام أدركها عند قمة الهضبة، فجأة قفز إلى أمامها حيوان مجهول، فخافت وتضاءلت في عينها فرص العيش، بكت حزناً على نفسها، وقالت بصوت مرتبك:

. أغثني أيها الحيوان، أنا امرأة مطرودة بحاجة إلى رفيق، رفيقي السابق لا يحسن الرفقة.

فجأة ربض الحيوان ليشعرها بالأمان، ثم نهض وتقدم سائراً أمامها، ورافقها إلى قريتها، ولأجل ذلك كافأه والدها بعجل سمين من حظيرته، وظل هذا الحيوان يزورها طويلاً. كانت تظنها حكاية خرافية من أساطير القرويين، لكن هذا الحيوان المرقط الجائع أمسى واقعاً حاضراً، ولا يبدو أنه يخجل أو يميز

بين ذكر أو أنثى، لا يريد شيئاً سوى اللحم الطازج، ومع هذا جربت حظها معه، لم يكن لديها خيار آخر. قالت بيأس:

.رفقاً بي أيها الحيوان، أنا امرأة وحيدة تركها زوجها في الكهف، وذهب يبحث عن جندي أحرق.

لم يتأثر الحيوان المرقط، بل أخذ يزمجر أكثر من ذي قبل، ما يعني أنه لا يستطيع التمييز بين الذكر والأنثى، يبدو أن هذا الحيوان ليس حيوان الأسطورة، إنه وحش بري لا يعرف الخجل، ماذا أفعل؟ تساءلت بضيق.. وأردفت:

.مهلاً أيها الحيوان لأريك شيئاً.

أخرجت ثديها الأبيضين من مأواهما الدافئ، وتابعت بحدة:

. انظر، أنا أنثى مثل أنثى الأسطورة تماماً، وربما أكون أكثر أنوثة منها وأكثر وحدة ورعباً، هيا خذ جسدي أيها الفحل، التهمني أيها الشبق، أو اهجر جسدي كما هجرني سرحان.

وأغمضت عينيها، وجعلت تبكي بهلع وتئن وتنتظر الموت، ولما طال انتظارها، فتحت عينيها ببطء، كان الكهف خالياً ولا أثر للحيوان المرقط. لقد اختفى ببساطة كما ظهر.

قال الكبير عون بيقين العارف:

. هذا الحيوان اسمه النمر، وهو حيوان خطير ماهر، لقد رأيته في يوم ما في جبال عتمة.

رد عاكف ساخراً:

. يا لها من خرافة، ذلك الوصف ينطبق على الهزبر، إنه حيوان خرافي، رأيت
ذات ليلة في المنام.

ردت زكية بغضب:

. أتظنون أنني أكذب، ربما كنتم ستؤمنون بصدقي لو اختفيت مثل مرزوق أو
عثرتم على أشلائي متناثرة في أرجاء الكهف.

هتف زوجها سرحان بتأثر:

. لِمَ تقولي ذلك؟ سلامتك من الشر، أنا أصدقك.

وأضاف بصوت هازل:

. لكنني أخشى أن أكون ضحية هذا الحيوان، فقد أوغرت صدره عليّ حين
شكوت من هجري لجسدك. أتمنى ألا يعرف النمر شكل زوجك.

. لقد فعلت ما فعلت المرأة في الأسطورة.

قال الجندي عاكف بجديّة:

. دعونا من الهزل والأساطير، هذا المكان ملعون، لا أمل في العثور على الطفل
حيّاً، وكذلك مرزوق، سنغادر في الصباح.

ردت زكية بصوت مختنق:

. لن أفارق هذا المكان حتى أعثر على طفلي حيّاً أو ميتاً، ارحلوا من دوني إن
شئتم.

قال سرحان بتواطؤ:

. الصباح يمتد من الفجر إلى الظهيرة، لدينا وقت كاف للبحث عن الصبي،
وأظنه مازال حياً.

رد عاكف بتبرم:

. ماذا أفعل أنا هنا؟ ها أنتم ذا تقررون ما يجب أن نفعل وما لا يجب، هل
تظنون أنفسكم في نزهة للاستجمام؟ أنتم أسرى لديّ، والأفضل لكم أن
تتوهوا في البرية قبل أن تبلغوا صنعاء.

تناثرت الأسئلة من الأفواه، لاسيما زكية وسرحان.

.ماذا تقصد؟

.هل تعرف شيئاً عن أسباب رحلتنا إلى المدينة؟

.لا أدري. التزموا بقواعد الرحلة، ها أنتم تطرحون كثيراً من الأسئلة.

قالت زكية بضراعة:

. أيها القائد الحصيف، مثلك لا يمكن أن يجهل طبيعة زيارتنا، إنه شيء
بخصوص الصبي، ولا ريب أن وجوده معنا أمر محمود، وسيثني عليك
سيدك.

.لا أدري، لا أحد هناك يحب الأطفال بسبب...

سكت فجأة، واكتسى وجهه بالسواد، ومضى يقول بارتباك:

. لا شأن لي، ينبغي أن نتأكد من مصيره المحتوم أولاً، والآن سنأخذ حصتنا من النوم.

وأملى على مرهب بعض التعليمات، أن يحرس ثلث الليل الأول، وكذلك بقية المناوبين، لتغطية مناوبة مرزوق، وبما أن كل فرد في المجموعة لا يملك ساعة لحساب الوقت، فإن النجوم تساعد على التخمين، من حسن الحظ إن ليالي الشتاء تكون صافية ومشرقة، لكن البرد يصيب الأجساد بالشلل. لذا صاروا يرتبون أماكن نومهم حول النار. ثم استلقوا كالموتى لفرط التعب الذي أصابهم.

علا شخير الكبير عون مثل نقيق فيلق كامل من الضفادع، تأمل مرهب أجساد رفاقه المندسين تحت اللحف بحسد، ونظر ناحية المشخر بغيظ، لكنه لا يستطيع أن يجبره على الصمت، فالنائم لا يتعمد أن يشخر، ولو يقوم بإيقاظه قد ينكر أنه يفعل ذلك، وربما يثير زوبعة من الفوضى والاحتجاج، ثم يعود ثانية ليصدر شخيراً أقوى من السابق، لذا رد الجندي الحارس بصره بيأس، وتدثر بمعطف ثقيل، أحس بذبذبات النوم اللذيذة تداعب عينيه، وانجذب جفناه نحو بعضهما دون أن يشعر، ذهب إلى مخلاته، وأخرج قنينة صغيرة من ذلك الشراب الذي أفقدهم رشدهم، لقد احتفظ بها بشكل سري، لأنها تجعله دافئاً مسترخياً، وتزيل من رأسه الخوف والغم. سكب السائل في جوفه دفعة واحدة حتى آخر قطرة، شعر بالدفء والحرارة يسريان في

جسده، وغرق في الثمل. رأى بعد لحظات عينين تلمعان في الظلام، فسار نحوهما مترنحاً، متمائلاً حتى تعثر وسقط على وجهه.

كانت زكية هي أول من أفاق عند الفجر، استغربت أن تكون النار خامدة باردة، ولا أثر للجندي الحارس، كانت بندقيته مستلقية عند المدخل قرب الدثار، لم تكثر، فكرت أنه خرج ليقضي حاجته بين الصخور، فقامت بإشعال النار حتى اتقدت وتوهجت، وضعت الإبريق الوحيد على النار، واعدت القهوة وشربت بضع جرعات. كان عقلها صافياً وروحها نقية في ذلك الوقت المبكر من الصباح. فكرت في طفلها الذي لم تلده، لقد رزقها الله إياه، ولا ينبغي أن تخسره، لا تدري لِمَ يخش منه الأمراء، ويريدون هلاكه! كل ما تعرفه هو أنه طفل بريء في عنقه تميمة غريبة لا تكاد تفارقه، ولن يطول الأمد حتى يدرك الأمراء أنهم مخطئون، ومهما كلفها البقاء هنا من ثمن لن تغادر حتى تستعيد الطفل من الضبعة وتقوم بواجبها كأم...

قطعت تفكيرها، فقد غدت روائح أجساد النائمين حادة قوية تكاد تقتلع أنفها، صار الكهف مثل إبط متعرق نتن، والجلوس في الداخل لا يطاق، ورأت أن الفرصة مواتية للاغتسال مادام الرجال نائمين، وهي معتادة على الاستحمام الدائم في القرية، وتحب أن تظل رائحتها زكية مثل اسمها تماماً، لن تردعها برودة الماء، لفت دثار الطفل حول جسدها، وخرجت إلى مياه البركة الباردة، وهناك اغتسلت فاركة جسدها بتراب الكربة البيضاء المنظفة، ثم ارتدت ملابسها، وتدنّرت، وأخذت تمشي ببطء عائدة إلى الكهف. كان الضوء يكسو المكان بحلة رمادية باهتة، وتيارات الهواء الخفيفة تصيب جسدها المبلل بالرعشة، بدت الصخور القاتمة مهيبة غارقة وسط سكون

تام، صارت تستكشف المكان الهادئ المخيف بتمحيص دقيق، فجأة سمعت صوتاً حاداً يأتي من جهة مواربة بين الصخور، صعدت بحذر على ظهر صخرة كبيرة، نظرت إلى حيث يصدر الصوت. رأت حيواناً عالقاً بين حجرتين كبيرتين، مرقطاً طويلاً يشبه الحيوان الذي هاجمها في الكهف. كانت تعرف أن الحجرتين هما مصيدة وضعها شخص ما لاصطياد الحيوانات المفترسة، القرويون يفعلون ذلك للامسك بالضباع التي تهاجم مواشهم، قالت لنفسها: "الحيوان المسكين، كأنه حيوان البارحة".

أدركت أنها تستطيع تحريره من خلف الحجرتين، هناك ستكون بمأمن من فكيه القويين، نزلت إلى الأسفل واقتربت من قدمي الحيوان، كان يطلق زمجرة مرعبة وهو يسمع خطوات قدميها آتية من خلفه، مدت أناملها المرتعشة، وأخذت تعالج القدمين الخلفيتين بحذر، ثم مدت الكف الآخر للمساعدة، بينما ازداد غضب الحيوان وألمه وصوته المزمجر، مضت تقول لتهدئ من روعه:

. مهلاً أيها المرقط، سأحررك عسى أن يتحرر طفلي من أسر الضبعة الأم، لا أدري لِمَ تصر على اختطافه! لعلك لا تفهم لغتي، لكن عسى أن يصل إليك احساسي.

كان الحزن يشوب نبرات صوتها، ورغم محاولاتها الجادة لم تتحرر القدمان. فطنت في نهاية المطاف أن أحد الحجرتين يتحرك بيسر، فقامت بدفعه للأعلى كما سيفعل الصياد الذي ابتكر هذه المصيدة الشيطانية، حينئذٍ تحرر الحيوان، وهروا مبتعداً حتى اختفى خلف الصخور. مسحت العرق الغزير

عن جبينها، وتنهدت بارتياح وعادت إلى الطريق، وهناك وجدت الحيوان في انتظارها، سرى تيار ساخن في جسدها، وشلَّ الخوف حركتها، أمسى كل منهما ينظر إلى الآخر متفحصاً نواياه، بعد لحظات حسبتها دهرأً، زمجر الحيوان ومضى يمشي بعرج خفيف على إحدى قدميه الخلفيتين، والتفت ناحيتها، وهو يزمجر بصوت ضعيف، ثم توقف عن الحركة وهز رأسه مراراً، كانت تعرف أنه يكلمها بلغته، لكنها لا تفهم، قالت وقد أعيأها الجهل:

. ماذا تريد أيها الحيوان، هل تؤمك قدماك، سامحني، ليس لدي خبرة في تضميد الجروح أو تجبير الكسور.

زمجر الحيوان المرقط وانطلق يعدو، فانطلقت خلفه وهي تقول:

.قدماك سليمتان، أنت تريد شيئاً آخر، انتظر.

لم ينتظر، بل سلك درباً وعرأً بين الصخور الكبيرة، وترددت قليلاً، فنظر إليها مزمجراً، وقفز إلى أسفل صخرة، وغاب عن نظرها. ساورها إحساس بأنه يريد أن يتبعه، فلحقت به إلى أسفل الصخرة، وقلبيها يدق بانفعال، وهناك ظهرت فجوة متسعة يملأها الضوء، وفوجئت وهي ترى الضبعة الأم وشبليها وطفلها، كانت الأخيرة متوثبة تصدر أصوات مزعجة، بينما الحيوان المرقط يتقدم صوبها نافخاً جسده ليبدو أضخم مما هو عليه في الواقع. جعلت الضبعة تطلق نداء الاستغاثة المعروف، بدت في تلك اللحظات عاجزة تتلفت حولها وتتقهقر خافضة مؤخرتها نحو الأرض، ثم خرجت منكمشة يتبعها الشبلان الصغيران، في تلك اللحظة قفزت زكية إلى الصبي، وخطفته وخرجت فارة من المغارة كأنها تخشى أن تعود الضبعة لتسلبه منها ثانية، سلكت طريقاً لا تعرف

إلى أين يقودها، ثم سمعت زمجرة الحيوان المرقط العالية. كان ينظر إليها بغضب، فأدركت أنها في الطريق الخاطئ، لذا سارت في الاتجاه الآخر، رأت الحيوان يبتعد قافزاً فوق الصخور بفخر وانتشاء. ارتفع صوت سرحان وتردد صدها على الجبل، كان يقف فوق صخرة بارزة يصيح بملء الصوت، متلفتاً في جميع الاتجاهات.

كان الضوء يملأ المكان، وأشعة الشمس تصافح رأس الجبل الراسي أمامهم، بينما كان أفراد المجموعة يبحثون عنها وعن الجنديين المفقودين، بعد قليل عادوا إلى الكهف بحزن، لقد عثروا على ملابس الجنديين ممزقة مغطاة بالدماء، وظهرت عظامهم الطرية موزعة بين الصخور. فانتابهم الفزع، وأخذ الجندي عاكف يطلق عبوات البارود بجنون على الصخور الصلبة الجائمة فوق بعضها البعض. فيتردد صدى مرعب متكرر على الجبل البازلتي الأصم، وعندما رأى الصبي في حجر زكية ازداد هوسه وصاح باغتمام:
.عجباً، الصبي الرضيع ينجو، بينما يخسر الراشدون حياتهم.

رد الكبير عون بجذل:

.إنه ولد مبارك، نجا من أفكاك الذئاب والأسود والضباع.

.وهل تظن الولد سينجو، انظر إلى جسده الواهن، إنه يوشك على الهلاك، حليب الضبعة قوي جداً.

تلاشى الفرح من وجه زكية، ونظرت إلى الصغير بتمعن كأنها تنتبه إليه لأول مرة، كان خاملاً نحيلاً ذابل النظرات شاحب الوجه، فأمسكت عنق سرحان بيديها، ومضت تبكي وتقول:

.سرحان، الولد في خطر. افعل شيئاً لإنقاذه، هيا، افعل أي شيء.

تحرر سرحان منها، وأخذ يجيب بحنق:

.ماذا بمقدوري أن أفعل؟ نحن جميعاً في خطر، ما لم نخرج من هذا المكان إلى حيث المساكن.

ثم نظر إلى عاكف نظرة نارية وأضاف بصوت أمر:

.هيا لنخرج من هذا المكان الآن.

أذعن عاكف للأمر، لأنه جاء في الوقت المناسب، علاوة على حدوث نوع من التوازن، فبعد اختفاء الجنديين أصبح أفراد القسمين شبه متعادلين، مع زيادة زكية والصغير في القسم الثاني، هناك بندقيتان غير محشوتين على جسدي صالح وعاكف، وبندقيتان مثلهما عند سرحان والكبير عون يحملانها مع أغراض الرحلة. وساروا حتى وصلوا إلى البقعة التي تاهوا عندها، وهناك وضع طريقهم، فاستأنفوا سيرهم صاعدين حتى توقفوا عند قرية صغيرة فوق نقيط قحازة، هناك اكترى عاكف حماراً، وفحصوا جسد الطفل عند طيبة أعشاب، فأعطت له بعض الوصفات المحلية، ومنها حليب عنزة مستبكرة، أي لم تضع سوى حملاً وحيداً. ووجدوا العنزة عند راعٍ محلي،

وفرحت زكية حين رأت الطفل قد بدأ يتعافى، وأخذ يناغي كما كان. ناهيكم
أنهم حين ذاك يوشكون على الوصول إلى نهاية الرحلة.

(5)

ظهرت أخيراً بساتين الكروم في الضاحية الشمالية لمدينة صنعاء، وشيئاً فشيئاً، تكبر المدينة وتتجلى أكثر. لاح سورها القديم كسوار ذهبي على معصم فتاة سمراء، وقفوا أمام بوابة ضخمة مفتوحة على مصراعها، وتبادل الجندي عاكف التحية مع حراس البوابة الذين انحنوا باحترام. ساد الشارع الذي عبروه كثير من الضجيج واللغط.

كان الأهالي هنا يتكلمون بصوت عالٍ، وهم باعة وخليط متنوع من البشر يعرفون بعضهم بعضاً. مر رتل من الجنود يسرون بخطوات منتظمة موحدة في طابور ثنائي الصف، مؤلف من عشرة جنود، إضافة إلى جندي غليظ الشاربين يتقدم الصفين، سرعان ما أمر جنوده بصوت مبجوح:

"تحية لعاكف قائد سرية قصور الأميرات".

دق الجنود أقدامهم اليمنى بالأحجار الرمادية الخشنة، وذهبوا في طريقهم مخلفين وراءهم سحابة من الغبار والدهشة. ندمت المجموعة في القسم الثاني لأنها تعاملت مع هذا الجندي ببرود وعدم اهتمام، والآن بعد أن أدركوا فداحة من اقترفوا في حقه، صاروا يخشون من ردة فعله، أكثرهم خشية هو الكبير عون، فأثناء الرحلة كانت تنتابه. على غفلة منه. حتى المسئولية التي كانت تصيبه في القرية.

كان الشعور العام غير مريح، حيث باتوا بعدها يتنقلون وراء عاكف من موضع إلى آخر، لاهئين خلف سلسلة من الأمراء وكبار رجال الإمارة. وكل مسئول من هؤلاء يلقي مهمة البت بشأن هؤلاء القرويين إلى الأعلى منه رتبة، وآخر هؤلاء هو قاضي المدينة الذي أمر عاكفاً بالتحرز على القادمين في مكان آمن حتى يفرغ الأمير الأكبر من مشاغله، كان السؤال عن موعد انتهاء مشاغل الأمير المبجل من الأمور التي لم يعتادوا على قولها، وفي كل مرة يُكَلَّف الجنود بجلب شخص أو أشخاص يودعون في السجن حتى يتم السؤال عنهم، وطالما ينسون ويتعفنون هناك دون أن يسأل عنهم أحد، وخشي عاكف أن يرتكب خطأ بإيداعهم في السجن، لاسيما إن هناك طفل صغير وامرأة، حاول أن يبدو هادئاً وهو يدخل وزكية والطفل إلى منزل كئيب مظلم تسجن فيه النساء المذنبات، لاسيما الزانيات، استقبلته امرأة سوداء ذكورية، على عارضها بعض الزغب، وشارب كأنه لمراهق، لم يعد هناك من أنوثتها إلا إزار نسائي قدر، وغطاء رأس قاتم اللون، وقفت أمامه سائله بقسوة:

.زانية أخرى؟

أجاب بشيء من الحيرة:

. لا، ليست كما تظنين، ومهما يكن يجب أن تعامل معاملة حسنة حتى نطلبها بعد أيام قلائل.

.لولا أنك لا تملك ذلك الشيء، لظننت هذه المرأة إحدى عشيقاتك.

صرخ في وجهها بغضب:

. افعلي ما أقول لك وحسب، وإلا أرسل إليك أفراد سرיתי ليحشروك في إحدى الغرف المعتمة، ويغتصبونك بمواسير بنادقهم.

. هيه، لا تصرخ في وجهي، على الرأس والعين، أنتم تأمرون ونحن نستجيب.

وذهب وهو في غم شديد ليتم ما بدأه من عمل، أخذ سرحان والكبير عون وجنديين من سريته إلى بناء حجري ذي بوابة خشبية غليظة، وهناك قطع طريقهم جندي ضخم الجسد يرتدي بندقية كما يفعل الجنود في حالة الاستنفار، وأولى القادمين بعض الانتباه رغم صلابه ملامحه، فعبروا البوابة إلى الداخل، دلفوا إلى مبنى جانبي صغير، وهناك وقفوا أمام جاويش عريض الشارب سيء المزاج، كان ممسكا سوطاً في يده، ويضرب في غضب وحنق الجدار القريب منه، موجهها كلامه اللاذع إلى جنود من سريته أهملوا شيئاً من واجباتهم، كان الجندي عاكف يخشى مواجهة القائد سنهوب في الظروف العادية، أما في مثل هذا الظرف فإن التعامل معه سيغدو أصعب، بعد انصراف الجنود المهملين انتبه سنهوب إلى وجودهم، فسأل بحدة:

. ماذا تريد يا عاكف؟

تململ عاكف في وقفته ما أوحى إلى ارتبাকে وأجاب:

. لا شيء كبير، فقط هذان الرجلان مطلوبان للأمير كالعادة، لهذا السبب يجمل بك الاحتفاظ بهما في سجن العقوبات الخفيفة لحين الطلب.

. هذا السجن مكان محترم، لا يقطنه إلا كل مجرم مدان بأمر من قاضي القضاة أو الأمير الأكبر، وليس محل إقامة للأشخاص الذين لا يجدون سمسة للمبيت.

. هذا غير صحيح، صدقني يا سنهوب، ها قد عدت للتو من تعز وفي معيتي هؤلاء الأشخاص بتكليف من الأمير الأكبر، وقد طلب مني القاضي أن أودعهم هنا ريثما ينتهي الأمير من مشاغله.

. اسمع.. هناك أشخاص كثير في قسم العقوبات الخفيفة، وكلهم أو معظمهم غير مدانين، ويوشك القسم أن ينفجر، ومع ذلك مازلتم تبعثون بالمزيد، وهؤلاء يُنسون ويُهملون ويثيرون الفوضى.

. أرجوك، افعل صنيعاً لي.

وجد سنهوب نفسه محاصراً بالرجاء والكلمات الودودة، فهما في رتبة واحدة ومنصب واحد، قائدا سرية، ولا يستغني أحدهما عن الآخر. وفي خطوة غير متوقعة صاح سنهوب على الجنود أن يأخذوا الرجلين إلى قسم العقوبات الخفيفة، بدا سرحان والكبير عون مندهشين كأنهما بوغتا بهذا القرار الحاسم، أو ظنَّاهما مزحة، لم يعاملهما الجندي عاكف كسجينين، لكن الأمر صار حقيقياً، بحيث وقفا أمام جندي يجلس على دكة قدرة، أمامه لوح مثبت على دعامتين من الخشب، تنتشر عليه أوراق بنية غليظة وقنينة مفتوحة يظهر منها سليط حارق أسود للكتابة، فحصهما الجندي بعينه الثاقبتين وكأنه يقيس بالنظر حجم الذنب الذي اقترفاه، ثم أمسك ريشة كبيرة وغمس طرفها المدبب وسط السليط، وسألها عن الاسم والبلاد التي ولدا فيها

والذنب الذي فعلاه، ومضى يكتب على الورق بدون تنظيم أو مهارة، خريشات سريعة مترابطة، وفطن الكبير عون أن هذا الخط لا يستطيع أن يقرأه أحد غير كاتبه، ومع ذلك أجابا على كل الأسئلة، ماعدا السؤال الخاص بالذنب الذي لا يدركانه حتى تلك اللحظة، وكرر الجندي سؤاله مرة أخرى بغضب وإصرار، فارتفع صوت القائد سنهوب من الجوار:

. اكتب أنهما محجوزان بنظر عاكف قائد سرايا قصور الأميرات، في انتظار مقابلة الأمير الأكبر حين يفرغ من مشاغله.

دوّن الجندي ذلك بسرعة، وأشار للجنود أن يذهبوا بهما إلى قاعة السجناء. إثر ذلك، تنفس عاكف الصعداء حين غابا عن عينيه، وذهب برضا تام ليخدم في قصور الأميرات، لكن سرعان ما أفسدت راحته شكوى بُعثت إليه من سجينات في قسم الأمهات، حيث أضحى الطفل الصغير يبكي طوال الوقت، ما أفقد السجينات مذاق النوم، وأثار ذكريات الأمومة في نفوسهن، وعرف عاكف أن عليه أن يتصرف قبل فوات الأوان. فذهب للتو نحو قصر الأمير الأكبر، واستطاع الدخول إلى الصالة الوسطى، لكن الدخول إلى القاعة الأميرية كان أكثر صعوبة، لسوء الحظ إن علاقته والحراس الواقفين هناك ليست واضحة، بل إنها باردة برود الثلج، ورغم إنهم جنود عاديون، إلا أنهم يستمدون سلطتهم من سلطة الأمير الأكبر. كان وقوفه الطويل في القاعة الوسطى مثار تساؤل وشك، وعندما اقترب باتجاه الحراس سدوا عليه الطريق، فاتجه بعد ذلك إلى أمين السر، لكنه لم يصل معه إلى نتيجة، إذ رفض عاكف أن يسلمه تقرير ما حدث في منطقة صالة، بل أصر أن يسلمه

للأمير الأكبر يداً بيد لأهميته، ثم عاد أدراجه. بعد ذلك اتجه إلى قائد سرايا القصر الأميري وهو أعلى رتبة منه، لكنه أيضاً تنصل من أمر الصبي ومجموعته، على الرغم أنه من نقل إليه الأمر بالتوجه إلى تعز، لقد كانوا ينتظرون مجيء هذا الصبي بفارغ الصبر، والآن يتوارون كالحلزونات داخل صدفها، بعد إلحاح شديد حوله قائد السرايا إلى قائد الشرطة، وهذا الأخير كتب التماساً بالموضوع، ورفعته إلى أمين قسم الديوان الأميري، وهناك انتهت قصاصة الورق، حيث يأمل أن تأخذ دورها بين مئات من الأوراق الصغيرة التي لا تعرض على الأمير في الغالب.

استمرت السجّانة السوداء الذكورية تهدده بطرد الأم وطفلها المزعج خارج السجن، وصار الطفل يردد مؤخراً نغاء الخطر:
.خاخخخخخخخخخخ.

فأفصحت زكية للسجينات أن شيئاً ما سيحدث، وبالفعل بدأت حالة غريبة من الوسوس الشيطانية تنتاب السجّانات والسجينات على حد سواء، وساد الذعر والصراخ في سجن النساء المظلم، حتى عثرن على إحدى السجّانات مشنوقة في أحد الحمامات. وجهت السجينات أصابع الريبة إلى زكية وطفلها، وأثناء ذلك تم استدعاء عاكف، وجاء آخر النهار بملابسه العادية بعد أن فرغ من مشاغله في القصر، بدا مثل أي رجل عادي يسير في الشارع دون قيود، فطالما تفرض عليه ملابس الجنديّة أن يخطو بانتظام، و أن يكسو وجهه

بهالة صارمة متكلفة، كما لا يستطيع أن يقف في الأماكن العامة، أو يتحدث إلى الناس العاديين في الشارع، فضلاً عن ضرورة حمل بندقيته العتيقة على امتداد جسده أينما ذهب، لكنه في هذه الساعة حر خفيف الحركة بوسعه أن يفعل ما يشاء، أو يتحدث إلى من يشاء، ولولا ساعات الحرية هذه لا يظن أن بوسعه احتمال قرف العيش في قصور الأميرات، خطر هذا في ذهن عاكف وهو يقترب من سجن النساء بحذر ليرى ما ينتظره هناك، تكهن أن المرأة وطفلها هما السبب، مشاكل جديدة يجب أن يتحملها ويعالجها وكأنه زوج تلك المرأة ووالد ذلك الطفل المميز، كان يظن أن مهمته انتهت بجلبها إلى السجن، لم يتخيل أن يجدهما في انتظاره، لم يصدق عينيه حين رأى عن كثب امرأة واقفة خارج باب السجن بتحفز، كانت تلك زكية تحمل الطفل العجيب، إضافة إلى صرة صغيرة تحوي ملابسها، فكر في الرجوع والفرار بأقصى سرعة ممكنة، لكنها نادت باسمه بفرح كصديق ظهر في مكان غير متوقع، شل صوتها حركته، ناولته المخلاة فأخذها بشرود، وسار إلى جانبها وكأنها امرأته، أضاف هذا الشعور إليه نوعاً من المسؤولية تجاهها، أحس بحزن كبير على وضعه الميؤوس منه، كيف سيكون حاله لو أن هذه المرأة البضة امرأته، وذلك الطفل العجيب ولده؟ كان في أعماقه نفور وإشفاق، لا يدري كيف يتخلص منهما، وكلما مر شخص من جواره يظن إنه ينظر إليه باحترام كأب يكافح من أجل عائلته، ولو يعلم حقيقة الأمر من المحتمل أن يبصق في وجهه ويحتقره.

اتجه والمرأة والطفل مرغماً نحو قصور الأميرات، وهو مستغرق في التفكير والكدر، هناك غرفة خاصة يقطنها ملحقة بالبناء الخارجي للقصر، وهي

وحيدة شاذة مثل بثرة سوداء على سطح جسد ناصع البياض، موقعها في الفناء لا يمنع الأميرات من التجول عاريات داخل أجنحتهن الخاصة، طالما يتركن النوافذ المقابلة لغرفته مفتوحة، بل أحياناً يخرجن بلبوسهن الداخلية إلى الخارج، ويتحدثن بانسجام تام في الحديقة، أو حتى يطلبن منه الخروج من غرفته لفعل شيء ما هناك، فطن إلى أنهن يعملن ذلك متعمدات، لا أحد يُقدّر مشاعره كأنسان، بل هو في نظرهن مجرد كلب حراسة وحسب، لكنه سيدع هذه المرأة وطفلها يقيمان في غرفته وليكن ما يكن، ليت المدينة كلها تعلم أنه سببت إلى جوار امرأة، في البداية لم يره سوى أفراد سرّيته الذين انفجروا ضحكاً، وهم يرون قائدهم يجلب معه امرأة وطفلاً، فقال يخاطبهم بضجر:

.تضحكون على خيبتكم أيها الخصيان.

تأملت زكية الحديقة المحيطة باندهاش، فناء غريب باذخ محاط بالأشجار والأزهار التي لم يسبق لها رؤيتها، ترددت قرب غرفة عاكف قليلاً، ثم دخلت، بدت منكمشة كفتاة عذراء تدخل وحيدة إلى غرفة شاب عازب تعرفت عليه للتلو، بينما ذهب عاكف إلى السوق، وجلب الخبز الساخن والبيض والحساء والحليب للطفل، ثم خرج ليشرف على رفاقه الحراس، أحست أنه يريد بذلك أن يطمئنها، المحترفون في صيد النساء يفعلون ذلك، لا يظهرون عواطفهم ولهفتهم بسهولة، باتت المرأة بالنسبة إليهم مطية مألوفة يركبونها كلما أرادوا، لم يعودوا في عجلة من أمرهم، تابعت التفكير قائلة في سرها: كأن الخبيث يدرك أن مصير جسدي محتوم هذه الليلة، ولن أفلت من شباكه الماكرة.

كانت في غاية الجوع حتى أنها قررت سراً أن تقايض عاكف بجسدها مقابل إطعامها وصغيرها، عثرت على غرفة جانبية تبدو كمستودع للمعدات التالفة، فيها تنور طيني وعيدان من الخشب كوقود، أدركت أن هذا المنزل المؤقت يجب أن تُستعاد الحياة إلى أوصاله، وهذا الرجل هو رب هذا المنزل، ربما يصبو أن يقوم بجميع مهام الزوج، لا ريب إنه محروم من النساء بحكم عمله جندياً، بل يبدو مثل أعزب أو أرمل، وإذا كان في نيته أن ينكحها فليفعل ذلك عن طيب خاطر، وستغريه وتكون له خليله، لأنها إن لم تفعل سوف تغتصب ثم ترمى لجنود سريته الأفظاظ الذين سيمزقون جسدها إرباً. تذكرت زكية زوجها سرحان، نعم، سرحان أصبح غاضباً وحنقاً منها، لأنها باتت لا تنفك عن الصغير لحظة واحدة، بل أصبح يشعر أنها تستأثر بالولد وتبتعد عنه، ظلت تدافع عن موقفها قائلة في سرها: سرحان لا يحفل بالصغير المبارك، بل أكثر من ذلك لا يثق به، هو الآن في السجن وهي بمفردها في غرفة جندي حازم، وسوف تنجرف إلى الخيانة لا ريب، ستفعل أي شيء لتوفير الطعام للصغير. فكرت في عقد الزواج الذي يجب أن يحترم ويقدم، لكنه في النهاية مجرد ورقة رخيصة، يحوي اتفاقاً مرتجلاً خطه الفقيه مرشد على مضض بخط ركيك لا يفهم، كُتِبَ على عجل تحت ضغط الكبير عون الذي أجبرته بُقْش سرحان على الإسراع في كتابته، فعلوا ذلك رغم الكسور والرضوض والآلام التي أصابت جسدها، كانت بحال سيئ، ومع ذلك طغت النزعة الحيوانية على سرحان، وأصر أن يعقد عليها للتو وتزف إليه ليلة الخميس، يا له من رجل قاس متهور، هكذا ظنت زكية إن خيانتها باتت وشيكة ومستحقة، وهو لن يتردد عن خيانتها فيما لو أتاحت له الفرص، وقد رأت كيف كان ينظر إلى

اليهودية في ذلك المنزل البغيض، حيث اقترب منها حتى أوشك أن يبتلعها، لذا لم يعد لزواجهما أي معنى، فقد نضب سرحان، ولم يعد يملك تلك اللهفة الجارفة والشبق، وفي آخر لقاء حميم أخفق في إشباعها، ورد سبب عجزه إلى الأسحار الطيَّارة.. فكرت زكية على هذا النحو وتهدت بعنف.

كان هناك حمام صغير خلف الغرفة، شعرت بحرج شديد حين استحمت مقابل نوافذ القصر الخلفية، لم يسبق لها أن شاهدت حماماً بلا باب، هل يستعمل عاكف هذا الحمام؟ ألا يجرح ذلك حياء الأميرات؟ أخذت تفرك جسدها وتنظف أعضائها السرية، وتزيل الزغب من أماكن متفرقة في جسدها، لا ريب أن قائد السرية يفكر في قضاء ليلٍ ممتعة معها، لعله يفعل ذلك مع نساء كثيرات، يفعلها حين تغيب الأميرات عن القصر، كما هو الحال في هذا اليوم، ويبدو أن السجن المصدر الأول لتموين نزواته، فما أسهل الإيقاع بسجينة محرومة مقابل ليلة من الحرية تقضيها خارج تلك الزنانات القذرة المظلمة. قامت زكية بإشعال التنور الطيني، وأعدت بعض القهوة والبيض للعشاء، وسرعان ما أكلت طعامها، وغذت الصغير، ثم مضت تصفف شعرها بمشط خشبي عثرت عليه على رف الحمام، وتزينت بالمشاعر وانتظرت.

حين عاد عاكف كاد أن ينكرها، غدت أكثر رونقاً وشباباً وخفراً، ولولا ملابسها البالية لظنها إحدى الأميرات. كان متعباً جائعاً، فأكل طعامه على ضوء شمعة وحيدة، وبعد قليل من الوقت اشتعلت الشموع في القصر، وظهرت الأميرات في غرفهن شبه عاريات، أحصت زكية أكثر من عشر شابات ومراهقات،

نظرت شزراً إلى الجندي المتخم بعد العشاء، وهو يتصفح الغرف ويشرب قهوته بلا اكتراث، فقامت إلى النافذة بغيرة وأغلقتها فقال ببرود:

.لا تهتمي بما يدور في القصر، هذا يحدث كل ليلة.

أجابت بصرامة امرأة قروية محتشمة:

.هذا غير معقول، في القرية لا يمكنك أن ترى ساق فتاة، ماذا دهاكم يا أهالي المدن؟ أنتم مجانين ومنحرفون.

.أنت لا تفهمين شيئاً، أنا لست فحلاً، إنهن يتعمدن فعل ذلك، يعرفن أنني لا أستطيع أن أنكهن.

.نعم، أفهم ما ترمي إليه، أنت جندي أمين وحارس مخلص، ولن تجرؤ على التفكير في أجساد سيداتك، لكنك تريد صيداً سهلاً، مثل قروية وحيدة بعيدة عن مجموعتها.

صمتت لحظة وأضافت:

.يا لحظك الحسن، كل الأشياء تصب في مصلحتك هذه الليلة، هناك فراش واحد في الغرفة، بندقية عالقة على الجدار، طفل في عوز شديد للطعام والحليب، وجسد منهك مهجور لن يستطيع مقاومتك.

نظرت إليه، كان يبدو مذعوراً، فتابعت بحدة:

.هاك جسدي، افعل به ما تشاء، دع عنك هذا الشذوذ. فالنظر من خلف النوافذ إلى أجساد عارية مبتذلة أمر مرهق ومخزي رغم إغرائه.

نفد صبر عاكف فهب واقفاً، ثم أرخى سرواله إلى ركبتيه، وأشار إلى ذلك
الموضع الفارغ وهو يصيح بغضب:

. انظري، لا شيء هنا، أنا مخصي، اطمئني، يمكنك النوم بأمان، وسأضيف
فرشاً آخر إلى الغرفة.

فغرت فاها باندهاش كامل، أصيبت بالخرس بعض الوقت، ثم نظرت بغرابة
وحزن إلى عاكف، يبدو أن جميع الجنود والخدم والعاملين في قصور الأميرات
من الخصيان، لقد سمعته يتحدث إلى رفاقه وينعتهم بهذه الصفة، ظنت أنه
يتباهى عليهم بقدرته على اجتذاب النساء، لا ريب أن الأمير الأكبر رجل
محافظ وغيور، يخشى على نساء القصر من الوقوع في الزنا. أخيراً قالت
بصوت واهن:

. لكنك لا تبدو كرجل مخصي منزوع الرغبة.

. هذه هي المعضلة التي تعذبني، لقد استطاعوا أن يبتروا العضو من الجسد،
لكن مشاعري ونزواتي مازالت باقية متأججة، فأنت وصغيرك مثلاً تثيران
عاطفة الأبوة لدي.

. أنتم تتعذبون أيها المساكين، وكل ما يجري لكم من أجل أن تصان فروج
الأميرات.

. بل من أجل لا شيء، إن الإخصاء عادة شائعة هنا في الإمارة، لكن فروج
الأميرات لا تستسلم، وطالما تحصل على اللذة بطريقة ما.

. ماذا؟ بعد كل هذا العناء.

.تعالى لأريك شيئاً.

أمسك بيدها وقادها إلى الخارج، كانت منقادة له كطفلة صغيرة ساذجة، صعد بها عبر سلم خشبي متحرك إلى سطح الغرفة، وأشار بحذر إلى غرف النوم، رأت غرفتين مضائتين بالشموع، وفي كل غرفة شخصان عاريان في وضع حميم، التصقت بالجندي الخصي كأنها خائفة مما يجري، لكنها كانت متلهفة ومشتعلة، كان قلبه يخفق بالحب كأى رجل طبيعي، في الغرفة نظرت إلى طفلها الهادئ النائم، وهذا الهدوء أمر استثنائي لا يحدث في الظروف العادية. كانت مثارة تحترق من أعماقها كالفتيل، بدا الجو الساكن يشجع على إقامة علاقة جسدية مع أي رجل صالح للاستخدام، فالتصقت بالجندي ومدت أناملها إلى بين فخذية، ناسية أنه بلا شيء، ثم اكتفت بما يبثه قلبه من إشارات أمان وحب، لكنه لم يكن سعيداً. سقطت قطرات على ساعدها فوضعت راحتها على رأسه قائلة بعجب:

.هل تبكي أم يخيل لي؟

.لا. لا، عيوني تهمني دونما سبب.

. هذا غريب، لم أكن في يوم من الأيام أظن أن أصادف جندياً يبكي، عندما كنت صغيرة طالما سمعت أن الجنود تحارب، وتقبض على اللصوص، أو تموت، لكنهم لا يحزنون، وطالما خشيت من الجنود الذين كانوا يأتون إلى قريتنا من أجل المتخلفين عن دفع الزكاة، وأختبئ خلف باب أو جدار لأراهم، لم أكن أعلم أنني سأكون قريبة من جندي إلى هذا الحد.

. أنا أيضاً، لم أنم إلى جوار أنثى ماعدا أُمي، ولم أصادف عائلة غريبة الأحوال
مثلكم، أظن أني واقع في أسر الإعجاب بكم، ولا أدري ما يمكنني فعله من
أجلكم.

. يبدو حالنا ميؤوس منه، من يستطيع أن يحررنا من أسر هذه المدينة، ومن
الأمراء الذين يتربصون بالأطفال المميزين؟ لسبب ما يريدون أن يحرموني من
هذا الصغير، حتى سرحان نفسه يريد ذلك.

. لهذا السبب، عليك التحرك بحذر بعيداً عن عيون الأميرات، لأن عيون الريبة
تلاحق الأطفال الغرباء، أظن هذا يتعلق بنبوءة قديمة مشؤومة، أمهليني
بضعة أيام وحسب.

وذهب إلى فراشه الذي أخذه من المستودع، أخذ يفكر في حياته، طالما كان
لأسياده كالكلب الوفي، ومع ذلك لم يسمع أي كلمة شكر من أي أمير أو أميرة،
وما التهييب والإعجاب الذي يلمسه من عيون الناس حين يعبر الشارع، إلا
بسبب الزي الرسمي المهييب الذي يرتديه قادة السرايا، وربما بسبب البندقية
الفريدة التي يحملها على امتداد جسده، لا شيء يبعث على الزهو. في الصباح
قفز إلى الشارع، واتجه للتو إلى سنهوب بنشاط، وفوجئ برده القاسي:

. ليس اليوم يا عاكف، الأمير سيزور السجن غداً، هناك رقابة مشددة، ولن
أجرؤ على إخراجهما، أنت تعرف ما سيحدث.

. لا أعرف ما سيحدث، ما هذا الحظ العاثر!

ومضى حانقاً غاضباً من أمام سنهوب. وعاد أدراجه، وهو يحدث نفسه
باغتمام على أنه سيكون مجبراً على قضاء ليلة أخرى قرب زكية.

(6)

كان الكبير عون وسرحان يعيشان في مجال ضيق قدر، إلى جوار مجموعة كبيرة من السجناء والمعتقلين لأسباب غير جنائية. لا يفصل بينهم وأصحاب الجرائم الجسيمة سوى حاجز حجري مثقب بفتحات صغيرة تسمح لنزلاء القسمين النظر إلى بعضهم، وطالما يأتي الشغب من القسم الجنائي، حيث يزعجون جيرانهم بالصراخ والكلمات النابية، وفي معظم الأوقات، يثور العراك بين نزلاء هذا القسم ويسقط جرحى، وتسيل دماؤهم حتى تخضب أرضية السجن، أحياناً يموت أحدهم هناك، ويصرخ السجناء طالبين من الحراس إخراجهم قبل أن تفوح رائحته، ولا يتم إخراج الجثة حتى تصبح مصدر إزعاج للجنود أنفسهم، ويظن كثير من السجناء إن قلوب هؤلاء الحراس إن وجدت، تقع خلف ظهورهم، إذ ليس لهم عواطف محددة أو مشاعر تجاه سجناء هذا القسم، فيفرضون عليهم عقوبات الجوع والضرب، وقد يقتلون سجيناً لسبب تافه، ولا يخشون من اللوم طالما كان محكوماً عليه بالموت، ولا فرق عندهم أن يموت في السجن أو في الميدان العام.

في القسم الآخر يكون الحال أفضل، المكان هادئ والجنح خفيفة صغيرة، وأحياناً تافهة لا تستحق السجن، وهناك أشخاص مثل سرحان والكبير عون لا يعرفون ذنوبهم، يحتجزون فقط حتى يطلبهم الأمير الأكبر أو عاكف، وهناك من يدخلون السجن ويخرجون منه بسبب تشابه الأسماء أو الارتياب في ضلوعهم بأمر ما، يكفي لسجنهم ورقة يبعثها كبير القرية أو إقطاعي بشكوى

ضد قروي أو أجير، وأحياناً يزجون في السجن بورقة من الحاكم أو قابض الزكاة، وإذا لم يتم سعاة الخير بالشفاعة والمراجعة، فإن عقوبتهم تطول شهوراً وسنوات عديدة، حتى تأتي مناسبة سعيدة أو عيد مبارك من أعياد المسلمين، حيث يوجه الأمير الأكبر بإطلاق سراح المعتقلين في هذا القسم، أحياناً يكون الأمير كريماً شهماً بحيث يوصي بسداد ديون المدينين من بيت المال، وقد يفعل ذلك أحد الأثرياء لتتطهر روحه أو يشفي الله أحد أفراد عائلته. وفي حالات أخرى يعفو الدائن عن المدين أو يلغي الشاكي شكواه، وكل شخص عدا الأمير يمكن أن يسجن لأي سبب من الأسباب.

لكن الحالة التي دخل فيها سرحان والكبير عون السجن نادرة الحدوث، إذ مرت أيام عديدة دون أن يعود إليهم عاكف، خافاً أن يكون قد حدث له مكروه أو كلف بمهمة جديدة خارج المدينة، وقد سمعوا ورأوا حالات في السجن ينسى فيها المعتقلون ولا يذكرهم أحد. لحسن الحظ كانت الحياة في هذا القسم جماعية، حيث يعيشون وينامون تحت سقف واحد كبير، يزيدون وينقصون مع مرور الوقت، ولكل واحد منهم مجال في الأرض يكبر أو يقل حسب وجهة السجن أو فقره، حتى الكبير عون أعلن عن نفسه متشديداً بالقول إنه كبير قرية وينبغي أن يأخذ ومعاونه مجالاً كافياً من الأرض قرب النافذة، كما استطاع شخص آخر يدعى شعيب أن يسيطر على المجال القريب من النافذة الأخرى، مهددا المنافسين له أنه سيقوم بمسحهم إلى حشرات صغيرة بتعاويذه السحرية التي ورثها عن أجداده. فارتعب السجناء وابتعدوا عنه.

وكانوا يقضون أوقاتهم بالأحاديث المسلية، التي تبعد عنهم السأم والقلق، ثم ابتكر سجين ثري يدعى شائع _ وهو متهم بسب الذات الإلهية _ طريقة تساعد السجناء على الفضفضة والتنافس على إمتاع بعضهم البعض، ورصد من أجل ذلك جائزة مغرية تساوي خمس ريات، تعطى للفائز من السجناء آخر الأسبوع. مقابل أن يروي كل سجين أكبر وأغرب قصة حقيقية حدثت في حياته، وتكون غريبة مذهلة بحيث تؤثر في نفوسهم وتلصق بذاكرتهم. كان الدور يمر على السجناء حسب أماكن الجلوس والنوم، وفي كل يوم يروي سجين واحد قصته، وأغرب هذه القصص جاءت من السجناء التهامي شعيب الذي لم يكن ليتكلم لولا الجائزة المغرية، اعترف أن قصته هي سر حياته وبقائه، لكن حاجته للمال جعلته يجازف في خوض هذه المنافسة.

في ذلك المساء، كان الحراس قد سمحوا بإضاءة عدد من الشموع، وجلبوا العشاء مبكراً، ثم جلسوا عند المدخل ليستمعوا إلى حكاية الليلة، فهم أيضاً يشعرون بالضجر، ولا يفرقهم عن السجناء إلا قدرتهم عن الحركة في محيط السجن من الخارج والداخل، ولا يسمح لهم بالابتعاد أكثر من ذلك، لكن السجناء شعيب أعياهم في تحفظه وقلقه، ونظراته الخائفة إلى ما حوله، حتى أصبحوا مرتابين من قدرته على النطق، وبعد أن وصلوا إلى حال من اليأس، أعلن شائع عن بدء الأمسية قائلاً:

.هيا شعيب نحن نصغي.

سمعوه يقول بصوت خفيض:

.الحراس يقفون هناك.

التفت السجناء إلى باب القاعة، كان مفتوحاً قليلاً، أحسوا أن هناك من
يتنصت عليهم فتطوع شائع وطلب من الحارسين أن يغادرا القاعة، ولم يفعلوا
حتى ظفروا بخمس بقش، وروى شعيب قصته.

كان شعيب في الظاهر بائعاً مستور الحال، يعيش في قرية صغيرة وادعة في
قضاء تهامة، ورث عن أجداده مجموعة من الكتب والتعاويد السحرية، وكان
يقوم بتفسير الأحلام، ويصنع التمامم للأطفال والأزواج المتخاصمين، ولا
يمارس السحر الأسود رغم أنه درس بعض طرائقه من والده، وأخذ منه
بعض التعاويد الكبيرة ليدافع بها عن نفسه في حال تعرض لخطر داهم من
بعض الرجال الغاشمين، ومع ذلك لم يمس الكتب الخطيرة تنفيذاً لوصية
أجداده السحرة، لأنها كانت بعيدة عن متناول يده مختبئة داخل خزانة
محكمة الإقفال، لهذا شغل نفسه بمهنته الظاهرة البيع والشراء وتفسير
الأحلام لمن يهتم بها، وفي يوم من الأيام، استعصى عليه تفسير حلم من
الأحلام، وكان يظن إن أحد الكتب سيساعده في ذلك وهو كتاب رث قديم
مجهول المؤلف، لم يعثر عليه في أي موضع بين كتبه المألوفة، فكر أن هذا
الكتاب في تلك الخزانة التي أقفلها أجداده ونصحوا بعدم فتحها. ظل واقفاً
ينظر إليها بتقاعس، ويمنع نفسه متعللاً أن الكتاب الرث لا يمكن أن يوجد
هنا، بل إن فضوله هو الذي يسول له باختلاس النظر لهذه الخزانة القديمة،
في النهاية قرر أن يفتحها ليكشف من قلقه وفضوله الدائم، ثم يغلقها ولا يمس
أي شيء فيها، سرعان ما فتحها، ونفض الغبار العالق فيها، تعلل بتنظيفها
ليرفع الكتب وينظر في أغلفتها، وهي كتب خطيرة ذات عناوين مرعبة يقشعر

لها البدن "أبواب السحر الثمانية"، "منازلة الشياطين"، "كيف تحكم قبائل الجن"، "شمس المعارف الكبرى"، "السحر الأسود".. لم يجرؤ على فتح أحدها، لأنه كان يعرف خطرها، وقد مات أبو والده بظروف غامضة، وهو يحاول أن يقرأ الكتاب الأخير، عثرت عليه امرأته ميتاً، ورأت الكتاب إلى جانبه مفتوحاً على الصفحة الأولى. كانت الثعابين تملأ الغرفة وتسقط من السقوف على رأسها، لكنها استطاعت أن تقفل الكتاب الخطير، وأخذت جميع تلك الكتب إلى بيت النار لإحراقها، لكن النار لم تصبها بضرر، فأعادتها بيأس إلى الخزانة، وأوصت أولادها أن ينسوا أمرها، وأخذت منهم أيما غليظة ألا يمسوها.

وعندما فتح شعيب الخزانة، كان واعياً وحادراً، أراد أن يلقي عليها نظرة، ثم يعيد كل شيء إلى موضعه، وبعد أن نظف ما أمكنه تنظيفه تآهب ليغلقها، لكن بصره وقع على رزمة من الوثائق المتسخة مطوية بخيط قديم حائل اللون، بدت كأنما لم يمسه إنسان سوى الشخص الذي طواها، والدليل على ذلك أنه بمجرد أن أمسك الرزمة انقطع الخيط لقدمه، وارتخت الوثائق المطوية، فأكملت أنامله المهمة ونفضت عنها غبار الزمن والإهمال، كانت نفسه تتحرق إلى ما فيها، بدت الوثيقة الأولى باهتة من ورق جلدي عتيق عليها ختم أميري دائري الشكل، وتليها خمس وثائق أخرى وأكثر، بعضها مختوم والبعض بدون ختم، فوجئ بعد أن قرأها بأن أحد أجداده ويدعى عوفان، كان يجيب على رسائل الأمير المتوكل عباس، وهو أحد أشهر أمراء السلالة الأميرية المتوسطة.. كانت هذه الوثائق في ذلك الزمن قبل أربعة قرون في غاية السرية، وهي الآن كذلك، لكن طمعاً بالجائزة قرأها شعيب حسب تواريخ

إرسالها، لم تكن معه في السجن، لكنه كان يحفظها لأهميتها، وهي بخط الأمير المتوكل عباس أو بخط كاتبه..

>> عوفان الساحر، السلام عليكم أيها الأخ العزيز..

حلمت في المساء الماضي أنني كنت في قصري، وأن لدي ثمانين عصفوراً أربها في أقفاص داخل حجرتي، وعصافير لا تحصى كانت في الحديقة، متشابهة في الحجم ملونة بين الأسود والأبيض والرمادي، ثم رأيت عصفور حقل بسيط صغير بينها، كان يقف على أحد سنابل الذرة الشامية، كانت عصافيري الثمانين تختبئ داخل أقفاصها خوفاً منه، فهبطت أنا باتجاه الحديقة لكي أطرد ذلك العصفور المخيف، وحين وصلت إلى حيث كان واقفاً، وجدت ساق الذرة يهتز والعصفور لا أثر له، التفت إلى الأعلى حيث توجد عصافيري، كان العصفور واقفاً فوق القفص الثامن، مشوهاً ينزف دماً، وقربه عصفور وديع زاهي اللون ينقره بقوة، ثم احتك بريشه بوداد، بينما لا أثر للعصافير الأخرى في الأقفاص، بعد ذلك أصبح العصفور كبيراً بحجم دجاجة، ومضى ينفخ بمنقاره ريحاً عاتية أزال الريش من أجساد العصافير التي في الحديقة، وغدت عارية تماماً.

أشعر أن لهذا الحلم تفسيراً مؤكداً يتعلق بحياتي وحياة سلالتي، أريد منك تفسيراً شافياً كاملاً لهذا الحلم دون تكتم <<.

وفقك الله..

ولي العهد الأمير المتوكل عباس

الموافق الثامن من محرم سنة 1035 هجرية.

وجاء الرد من عوفان في وثيقة أخرى بعد أيام قلائل، وكان صريحاً جداً، حتى ساور شعيب الشك في أن جده عوفان غير رأيه وكتب رسالة أخرى تحتوي على تفسير لطيف، والواضح أنه أخفى بعضاً من تفاصيل التفسير، لاسيما عن العصفور الصغير الوديع الذي يحتك بالعصفور الشرير، وهو كما يظن شعيب فتاة زاهية من السلالة الأميرية تتسبب في تعذيب الساحر ثم لسبب ما تقوم بالتخفيف من آلامه، وكتم عنه مصرع ثمانين من سلالته في ظرف غامض، يبدو أنه زوده بالأمل كما يفعل مفسرو الأحلام حين يجدون فيها علامات سيئة، والدليل على ذلك هو وثيقة التفسير نفسها التي وجدها بين الوثائق، ولم يكن من المعقول أن يكلف جده نفسه بكتابة نسختين متطابقتين من تفسير الحلم، لكن يبدو أن شخصاً ما نصحه أن يخفف من قسوة التفسير خوفاً على الأمير من وقع النبوءة، وقرأ شعيب على السجناء النسخة الأولى الأصلية الصريحة غير المنقحة.

>> مولاي، صاحب الفضل المبجل ولي العهد الأمير المتوكل عباس، وعليكم السلام والرحمة..

لا أخفيك أن هذا الحلم ليس نذير شؤم على حياتك الكريمة وحياة سلالتك الأميرية الطاهرة وحسب، بل على كل فرد في هذه البلاد، أو حتى قد يطال البشر أجمعين، لا أدري تماماً ما سيحدث حتى تسقط ملابس الناس عن أجسادهم، ويصبحون عرايا كما ولدوا، ليس النار أو الريح، لأن الأولى تأكل الملابس وتحرق الجسد، والثانية مهما كانت قوية لا يمكن أن تخلع ملابس

الناس عن أجسادهم، وليس هناك سوى طريقة واحدة، وهو أن أولئك الناس يصبحون عرايا بفعل الجنون، وذلك العصفور الصغير الذي رأته في الحلم سيكون ساحراً خطيراً، ولعله يفعل شيئاً سحرياً يفقد الناس عقولهم، والعصفور هو طفل صغير عجيب مميز يأتي من أحد قيعان البلاد الخصبة، بدليل وقوفه على الذرة الشامية التي لا تنبت إلا في الحقول التي تتربع على القيعان الخصبة. وهذا الولد الساحر سيعذب ويشوه، سامحني على تفسيري، لأنه قد يكون مجرد هذيان مفسر يقول ما يظنه موحياً بالحقيقة، ومع ذلك أخشى أن ينتهي حكم سلالتك على يد هذا الشخص المجنون ما لم يتم إيقافه بطريقة ما، وربما يتسبب في زوال كل أشكال الحكم والسلطة في الأرض قاطبة، وفي هذه الحالة، لا يعني شيئاً أن يموت ثمانون أميراً من سلالتك بطريقة ما، أو أن تهرب أميرة وتلحق بالساحر وتساعدته ضد عائلتها، أشياء كثيرة فادحة ستحدث، ومنها إن هذا الساحر سيلجأ إلى اختراق نواميس السحر ووصايا السحرة على ما أظن، وإذا فعل ذلك أخشى أن يجرؤ على استحضار الشياطين، وهذا ما لا يجسر على فعله سوى شخص مجبر، لذا أنصح بإهمال هذا الأمر، لأن الاستمرار في حك الجرح يضاعف الألم، وبحسب تقديري في مجال تفسير الأحلام، فإن كل قفص يحتوي على قضبان حديدية، وعليك أن تطلب أقفاصاً ثمانية تساوي أقفاص حلك، وأن تحصي عدد القضبان في كل قفص، وبعدد القضبان في الأقفاص تعرف الزمن الذي سيأتي هذا العصفور أو الساحر الخطير المدمر، وهذا هو تفسيري..

عوفان <<

وفي الوثيقة الثالثة قرأ للسجناء هذا الرد..

«عوفان.. لقد كان العصفور اللعين واقفاً على القفص الثامن الأخير، وقد طلبت أقفاصاً مطابقة لأقفاص الحلم، ووجدت على كل قفص منها خمسين قضيباً، وهذا يعني أن الطفل الرهيب سيأتي بعد أربعة قرون، لذلك سأحرص على أخذ الحيلة والحذر وسأشعر سلالتي بموعد قدومه، ولا أدري هل هناك علامات واضحة لظهوره، وليتني أعرف ما هو هذا الشيء الذي يميزه، حتى لا يختلط علينا الأمر، أو بالأحرى على أحفادنا القادمين الذين سيقفون في وجهه، وطالما هناك أطفال مميزون بأشكالهم وأجسادهم وعقولهم، وليتك تعرف سمة واحدة على الأقل تجعله واضحاً لا يضاهى بغيره. لقد أصبحت الليالي تمر علي ببطء، بينما جفاني النوم والهدوء، ولم استطع أن أطرد هاجس هذا الطفل من رأسي، وفي الليلة الماضية، قرب الفجر، غشاني النعاس ورأيت قطعاً منزلية كثيرة تلعب والعصفور الصغير خارج أسوار مدينة عدينة، وفجأة رأيت جثاً بشرية في ذلك المكان، ثم ظهر العصفور وثلاثة عصافير أكبر منه قرب شجرة قرنبيط، بينما رأيت القطط معلقة على فروعها، مازالت أشكال تلك القطط تبعث في نفسي الرعب. أخبرني يا عوفان ماذا يعني ذلك، وهل هي علامة تواكب مجيء هذا الصغير الملعون، وهل هناك وسيلة لتحاشي الكارثة التي ستصيب سلالتنا. وفقك الله... ولي العهد الأمير المتوكل عباس»

وفي الوثيقة الرابعة رسالة مبتورة، يبدو إنها لم تبعث بسبب لهجتها الشديدة،
وقراها:

"مولاي الأمير المتوكل عباس، حفظك الله....."

الأجدر والأصلح لسالنتك ألا تكترث بما سيجري بعد أربعة قرون، من الخير أن تفكر بما ستفعله حين تصبح أميراً على البلاد، ومهما فعلت لن تستطيع الوقوف في وجه القدر، أما حلمك بالقطط والعصفور والثلاثة العصافير والجثث البشرية، فالقطط هي حيوانات متوحشة تشبه القطط المنزلية، تهاجم الناس في ذلك المكان الذي رأيتَه في الحلم، وتُخلف قتلى وجرحى، ويكون الطفل وثلاثة أشخاص آخرين من عائلته على الأرجح في ذلك المكان، وينجون من الهجوم، ولا أدري أي سبب يجعلهم يتواجدون هناك، وهذه علامة مميزة، وعلى الناس في سالنتك أن يراقبوا حدوث ذلك، ولكن الأمر غريب وملتبس قليلاً، ولا أدري أي مجنون يقتني هذه الحيوانات، ولا أعلم سبب قتلها للناس وملاعبتها الصغير، هذا شيء خارق للعادة، ولكن بعض الأشياء المستحيلة التي لا نستطيع تحقيقها في الواقع، يمكن أن نصنعها في الأحلام، ومع ذلك هناك ما يمكن فعله....."

كانت آثار سن القلم قد حفرت سطح الوثيقة وهذا ينم عن تردد عوفان الساحر في قول شيء ما، أو أن الرسالة لم تعجبه بتلك الصياغة، لذا ربما استبدلها بأخرى أقل عنفاً وأكثر حكمة، ولا يدري أحد بما جاء فيها إلا ما جاء في الوثيقة الخامسة عن موضوع التميمة...

" عوفان العظيم، عجل بصنع التميمة المهلكة للطفل القادم، استحضر شياطينك الأشداء، واصنع شيئاً يخلد ذكرك ويجعل اسمك يتردد في الأصقاع، وسوف أكافئك بالمال وأجعلك حاكماً لناحية نهم حين أصبح أميراً على البلاد... وها أنا ذا أمرك أن تستحضر شياطينك وتفعل ذلك مهما كانت العواقب.

وفقك الله..

ولي العهد الأمير المتوكل عباس..."

وحكاية عوفان في استحضار الشياطين شائعة، يتناولها الناس وكأنها أسطورة، وينسب مُستحضرهم إلى أزمان وعائلات مختلفة، لكن الوثائق التي يحملها شعيب تثبت دون شك أن جده عوفان الساحر هو مستحضر الشياطين الشهير، وهناك مواقع في ناحية نهم مازالت تحمل اسمه، مغارة عوفان، قرية عوفان، قلعة عوفان، ويوجد اسمه في كثير من عقود البيع والشراء القديمة، إذ أصبح بالفعل حاكماً وإقطاعياً شهيراً، ولعل الحكاية الأقرب إلى التصديق هي ما دونها عوفان نفسه على أوراق صغيرة كمذكرات يومية لما فعله بعد هذه المراسلات، فقد ذكر أنه نقل عائلته إلى صنعاء، وودعهم وعاد إلى قريته، وهناك اغتسل ذات صباح، ثم غمر جسده بذرات الملح والرماد وهي مواد لا تخترقها الشياطين، وذهب إلى تلك المغارة الجبلية - التي تحمل الآن اسمه- عند شروق الشمس، وأخرج كتابه السحري الخطير "شمس المعارف الكبرى" من الجراب الخاص به، وراح يقرأ الكلمات الغريبة ويفك الرموز السحرية رمزاً رمزاً، وهو يهتف بأسماء الشياطين، ويستحضرهم من أوطانهم البعيدة في الجبال والبراري المقفرة والبحيرات والمحيطات المتجمدة والجزر. وظل ينضح بالعرق كجرة فخار مليئة بالماء البارد، ومن حين لآخر يكفهر ويتلون كالحرباء، يبيض ويحمر ويسود، وأنت الشياطين الشريرة بأشكال مخلوقات وزواحف مخيفة، أفاعي، تنانين، ديناصورات، وحيوانات مفترسة، واحتلت الشعاب والوديان والجبال المحيطة بمنطقة نهم، ومازالت تتوافد وهي غاضبة تخرج النار من عيونها المتقدة وأفواها الضخمة، وجاء

الطيبون بأشكال طيور زاهية الألوان وحيوانات أليفة كالأرانب والأبقار والكلاب والخيول والحملان الوديعة، وجلب له الشياطين الأشرار أبشع الكائنات والزواحف المخيفة والبغيضة، زحفت نحوه الحرباوات التي يقشعر بدنه وهو يراها على غصن شجرة، وتسلفت ساقيه وذراعيه ورأسه، إضافة إلى حشرات مقززة كالصراصير تنقلت في كل جسده، وسكنت في خرمي أنفه وأذنيه، كان يحس بأرجل حشرات لاسعة تتحرك في ظهره وبطنه وفرجه، ومع ذلك لم يستسلم، فالتوقف عن القراءة يعني الموت أو الجنون المحتوم، ولو أخطأ في نطق اسم من الأسماء أو تلعثم أو أضع رمزاً من الرموز، ستحاصره الشياطين، وتحتل رأسه، ويصبح مجنوناً يهيم على وجهه في الطرقات والأماكن المقفرة.

كان الوقت يمضي بسرعة كبيرة، ومن الضروري جداً أن ينتهي من قراءة الكتاب قبل حلول الظلام، لكن لحسن الحظ أن النهار في ذلك الفصل كان طويلاً، وذلك جعله ينهي المهمة على أكمل وجه عند الغروب، وأقفل الكتاب وسقط أرضاً بلا حراك. لم يكن سهلاً هذا العمل، لقد استحضر ثلث الشياطين. وأصبحوا ساعتها في خدمته، صار بمقدوره أن يجعلهم يقدمون له الكواكب والنجوم في طبق صغير، لكنه ظل غائباً عن الوعي مدة من الوقت لم يذكرها، بينما مكثت الشياطين مذعنة خاضعة عند رأسه منتظرة أقل إشارة من يده، ولما أفاق، سمع أصواتها تتردد بصدى مرعب:

. لبيك يا حاكمنا ومستحضرنا. هل تريد أن نحول لك جبال نهم إلى ذهب، أو نجعلك حاكماً للأرض؟

لم يكن عوفان يفكر أن يحكم الأرض، أو يريد جبال نهم ذهباً، لقد أستحضرهم لشيء آخر، لم يكن سهلاً أن يتذكر في تلك اللحظة، احتاج بعض الوقت، ثم تذكر أخيراً أمر التميمة، فقال:

. نعم، لقد جمعتم من أجل صنع تميمة لطفل قادم بعد قرون، بل تمائم بعدد قيعان وأودية البلاد التي تزرع فيها الذرة الشامية، مرسوم عليها أشكال عصافير حقول، وعليكم أن تضعوا فيها شيء من النحاس والحظ. وكلها تكون محصنة حارسة، لا تعمل عند شخص غيره، وتظل في حوزته حتى يحقق ما قدر له أن يفعل، نعم، هذا عادل، وليذهب الأمير إلى جهنم.

. هذا سهل جداً، سنضع أكثر التمائم جودة واتقاناً.

وذهب الشياطين الطيبون لصنع رموز الحظ الحسن، وذهب الشياطين الشريريون لصنع رموز النحاس، وهذا ينم على أن كل كائن يجيد عمل أي شيء يكمن في أعماقه. وعند انقشاع الكائنات الخفية من طريقه سمح له ذلك بالعودة إلى منزله، وهناك ألقى نظرة على زوجته وعياله، لكنهم في البداية أنكروه. ذعروا من شكله المكفهر، ولم يعترفوا به حتى أتى بعلامات واضحة، ويبدو أنه قضى معهم يومين، ثم عاد إلى المغارة وانتظر عودة الشياطين بالتمائم، ولما عادوا وهم يحملونها وجّه إليهم الطلب الأخير، بأن يلقوها في قيعان اليمن الخصبة، وغابوا للحظات ثم ظهرُوا. كانت المهمة بالنسبة إليهم سهلة، فهم أسرع من الرياح في مشيتهم البطيئة، وكالبروق حين يسرعون، يبدو أنهم كانوا يودون الخلاص والعودة سريعاً إلى أوطانهم كما يود السجناء الخروج من السجن، وقالوا له بصوت هادر:

.ماذا تريد بعد؟ ضع مطالبك مرة واحدة.

كانوا غاضبين والنيران والدخان يتصاعد من أنوفهم وأشداقهم المفتوحة،
أجاب:

.هيات، لا أستطيع، بوسعكم الانصراف، ماذا تنتظرون؟

أطلق عوفان ضحكة انتصار وغرور وحنق، كان غاضباً وحنقاً من ولي العهد،
وكانت الشياطين أكثر غضباً منه، وأطلقت زعيماً وصبياً من ذراً اهتزت له
الجبال المحيطة بهم، وقالت بامتعاض:

. أنت تعلم أننا محكومون بالبقاء هنا حتى تفك عنا الرموز السحرية التي
تضللنا عن أوطاننا.

. لا أعرف رموز تفريقكم، لقد فعلت ما يريده ولي العهد، عليكم بهذا الأمير
الجشع، إنه من أولئك الأشخاص الذين يحاولون الوقوف في وجه الأقدار، لا
يسمع إلا صوت نفسه، إننا نحلم كل يوم بأشياء تحدث في مستقبلنا، لكننا
نتجاهل الأمر، كان يمكنه ترك الماضي والمستقبل، وأن يفكر في الحاضر،
لكنه يريد أن يحمي ذريته فقط، لا يريد أن يخرج الحكم عن سلالته بعد
أربعة قرون، يا لهم من مجانين ومتهورين! لا يهمهم ما سيجري من ويلات على
رؤوس البشر.

. اسمع أيها الساحر الغبي، أنت كذلك لا تفكر بما سيجري لعائلتك وللناس،
سنحتل هذا البلد في طرفة عين، ونسكن في أجساد أهاليها، لن تجد أحداً فيها
سليم العقل والجسد، سننتشر في طول الأرض وعرضها ولن ينجو أحد.

مضى يضحك ذلك الضحك الذي يخرج بمرارة وسخرية من أفواه المقبلين على الجنون، ثم بتر ضحكه فجأة، وبدأ يتأمل الأمر من جميع جوانبه، وجد فعلاً أن الشياطين سوف يعيثون فساداً بالأرض وأهلها، ولن يوقفهم شيء عدا فك الرموز المضللة لأوطانهم.

في الصباح التالي، أخذ يقرأ الكتاب والرموز، واستطاع وقت المغيب أن يعيدهم إلى أوطانهم. وأمضى بعد ذلك سنوات حاكماً لناحية نهم، وكوفئ بمال كثير، لم يدرك أحد أنه خالف أمر ولي العهد، لكنه لم يعيش سعيداً كما ظن الناس، فقد ظل ضميره يؤنبه طويلاً، والدليل على ذلك وصيته التي تركها لعائلته قبل أن يموت:

>> أبنائي، ناصر، محمد، حسن، بناتي سلوى، وفاطمة.. زوجتي عاتقة. أحفادي...

لقد جمعت ثلث شياطين الكون مجبراً بأمر شريف من ولي العهد الأمير المتوكل عباس، ونفذت أمره وصنعت له شيئاً ما بأيديهم، لكنه لم يطلب مني أن أفرّقهم عن جهل بهذه الصنعة، ورغم غضبي من نفسي لتدخلي في عمل الأقدار، من خلال صنع تميمة، بل توائم متماثلة لطفل قادم، إلا أنني لم أفعل - كما طلب مني - تميمة مهلكة للطفل، وقد تركت مصيره يقع بين النحس والحظ كما هي سنة الحياة، لكنني أيضاً أصبت بالقلق على سلامة البلاد وأهلها بعد أربعة قرون، لا أدري أي أشياء مجنونة ستظهر في البلاد، لذا أوصيكم بعدم فتح الخزانة الكبيرة، واكتفوا بتفسير الأحلام لكسب عيشكم، أو امتهنوا حرفاً وأشغالاً أخرى وما أكثرها!

اقرؤوا كل الكتب ماعدا كتب السحر والدين، لأنها تسخر من الإنسان، وتصيب النفوس بالضغائن والأوهام، وتبتز القلوب والعقول، ولأن العاملين عليها يشترطون عليك مسبقاً أن تؤمن بها، والإيمان خطير على العقل، وهو مرادف الجمود والصلف، إن هذا المولود سواء كان ساحراً أو نبياً فإنه سيجلب المشاكل، فإذا نزل بقرية اهربوا إلى القرية الأخرى، ولا يعني هذا أنه شرير، فقد يكون الناس أشراراً من حوله ويرغمونه على فعل الشر، على كل حال، لا أريد لكم التورط كما تورطت، ولا أريد منكم التحدث عن هذا الصبي، وهذا لا يعني أنه قادم لا محالة، لن يحدث هذا لمجرد حلم في ليلة عابرة، وقد تكون مزحة أو نبوءة كاذبة، ومهما يكن من أمرها، فلا تقربوا كتب الدين والسحر، واسكنوا في أرض تخلو من المشاكل والحروب، وإذا سمعتم عن حيوانات تقتل الناس في مكان ما من منطقة عدينة، فاعرفوا أن النبوءة في طريقها للتحقق، عندئذ اهربوا بجلودكم إلى بلد آخر بعيد جداً أو امكثوا، واصنعوا حول أنفسكم دوائر سحرية، احذروا أن تفتحوا خزانة كتبي لأي سبب كان، ويجدر بي ألا أفعل كما فعل الأمير وأهتم بسلاتي وحسب، لأن لا سبيل إلى الفرار، فالناس جميعاً تحت الخطر، ولا ريب أن الصبي القادم إن جاء سيحمل في عنقه إحدى تمائهي، وهي ذات سلسلة ذهبية، مؤلفة من ورقتين إحداها رسالة مني والأخرى ورقة التميمة وهي من صنع الشياطين، أطلب منكم الصفح على أمر ليس لي فيه وسع أو حيلة...»

والدكم

عوفان بن قائد النهي

حررت بشهر صفر سنة 1066 هجري

انتهى حديث شعيب، ولام نفسه كثيراً، لأنه خالف وصية جده عوفان ثلاث مرات، المرة الأولى عندما فتح الخزانة، والثانية حدثت في تهامة عندما أندر الناس باقتراب موعد مجيء الطفل الموعود، والمرة الثالثة حين روى القصة كاملة للسجناء، وذلك من أجل المال، لكنه معاقب على كل حال، إنه في أعماق السجن، ولم يعد للحدرد أي جدوى.

فاز شعيب وتسلم الجائزة بأصابع مرتجفة، خمس ريات، إذ أجمع السجناء إن ما رواه هو بلا شك أغرب شيء سمعوه، ولا يظنون أن هناك -رغم أنهم لم يصدقوا روايته- ما هو أغرب من هذا. لكن سرحان لديه ما هو أعجب من ذلك، ويريد أن يفضي به، لأن الفوز مغري، وجذب اهتمام الآخرين أكثر إغراء من المال، إنه يعرف قصة الصغير القادم، ويستطيع أن يدع قصة شعيب مجرد هذيان فارغ، يستطيع أن يدهش المستمعين حتى لو كانوا مجرد سجناء، والحكايات هنا خلف هذه الجدران المغلقة لها نكهة خاصة عذبة أكثر من أي مكان آخر مفتوح. ظل سرحان يتحرك في موضعه بقلق، ازداد وجيف قلبه وشحوب وجهه، كانت قصته الفريدة تتأجج في أعماقه كبركان حبيس يود الانفجار، أراد أن يقول شيئاً، أي شيء يكسر به قلقه، لذا أخذ يحاول الخروج من حصار الكبير عون الشديد، لا يدري أي جنون أصاب هذا الرجل الضخم، بحيث أصبح ينظر إليه نظرات تحذيرية حادة، من أعطاه الحق ليمنعه من الكلام؟ هل هناك خطر في التنويه بأمر التميمة المعلقة في عنق ولده؟ لا شك أن طفله حصل على إحدى التمايم التي يزعم شعيب أنها من صنع الشياطين، ليست تميمة الحظ الحسن على الأرجح. الآن عرف كيف

وصلت إلى صغيرة، سلطانة كانت تحتطب كل يوم على الهضبة، هذا واضح جداً، لقد عثرت عليها هناك، ها هي العلامات تتحقق، الحيوانات الكبيرة التي هاجمتهم في تعز أو (عدينة القديمة). صار كل شيء واضح، لكن مازال الكبير عون ينظر إليه بقسوة، ويتأهب لكتف أنفاسه، كان يبدو حائراً، أخيراً تكلم الكبير عون مخاطباً شعيب بود:

. أتعلم، أحد أجدادي يدعى ناصر النهي، أظنه جاء إلى قاع الحقل بعد موت عوفان، لقد ابتاع لنفسه كثيراً من الحقول، وجميع وثائق ملكيتها تقول: " ابتاع ناصر النهي لنفسه دون غيره الوافد من بلاد نهم حقل كذا وكذا... " لا يوجد اسم الأب في اسم المالك الجديد، وهذا لا يحدث في الغالب.

رد شعيب بتأثر:

. رأيت، أنا أيضاً أقطن تهامة ووثائق بيعنا وشراءنا القديمة بعد جدي "محمد" لا تذكر اسم عوفان، يبدو أنهم لم يكونوا فخورين بما عمل جدنا الساحر العظيم.

ضحك كل منهما بحياء، بدا جلياً أن هذه القرابة البعيدة بين السجينين قد لطفت الجو بينهما، وكما يقال إن الدماء التي في العروق تحن إلى بعضها البعض، ولو للحظات قلائل كما سنرى الآن، إذ استغل سرحان حالة الارتخاء والانسجام التي يمر بها الكبير عون ورفيقه وتمكن من القول بسخرية:

. يا سلام، أنتما متصلحان مع عقليكما، وتنسيان كل شيء حولكما، أفيقا الآن أنتما في سجن، وهذه القرابة إن كانت صحيحة لا تعني شيئاً، لأن الناس جميعهم أقارب.

رد الكبير عون بضيق:

.ماذا تريد يا سرحان؟

.ليس هناك ما هو أفسى من الجلوس قرب شخص يكتم أنفاسك.

.انظر أين نحن الآن، وكل هذا بسبب ولدك الصغير.

صاح شعيب مبدياً موافقته:

.هذا غريب أن نزج في السجن بسبب طفل صغير.

همس الكبير عون رافعا الكلفة بينه وبين قريبه الجديد:

.إنني هنا بسبب نجل هذا الرجل، وهو طفل مبارك يحمل في عنقه تميمة ذات

سلسلة ذهبية.

انتفض جسد شعيب ونفر من محدثه قليلاً، ثم عاد إلى موضعه وسأل

بخوف:

.هل هي قديمة؟

.نعم، تبدو قديمة جداً.

.لا يمكن أن يحدث ذلك إلا مع خروج القطط الكبيرة من تعز، حتى لو كان

هذا الطفل مميزاً، هذا لا يعني شيئاً.

مال الكبير عون نحو شعيب وهمس بحدة:

. لقد خرجت الأسود من فنائها في منطقة صالة وهاجمتنا هناك، وقد قتلت
وجرحت الكثير من الخلق، كما أكلت الحمار الذي كان يحمل الصغير، ولم
تمسه بسوء.

قفز شعيب إلى الجهة الأخرى، صارخا بصوت مفرع:

. ابتعدا عني أيها الشريران.

اقترب الكبير عون منه، وحاول أن يضع راحته على كتفه كما يفعل مع الرجال
الغاضبين في قريته.

. لست قربي، أنا لا أعرفك.

. اهدأ يا شعيب.

التفت الكبير عون إلى سرحان وأضاف:

. انظر إلى عاقبة البوح بهذا الأمر، كان بوسعك أن تسد فمي بحذائك ولن
أحتج.

ضاقت صدور السجناء من نهاية هذه الحكاية، وما رافقها من حنق قضى على
متعها، ورغم ذلك حاولوا التدخل والإصلاح، وأقبل الحارسان، وسألا
بسخط:

. ماذا هناك أيها الأشقياء؟

أجاب شايع بسخرية:

. لا شيء، فقط حكاية الليلة مرعبة قليلاً.

صاح الحارس مخاطباً الكبير عون وشعيب:

. أنتما عودا إلى موضعيكما، إن لم تكفا عن الشغب سوف أحولكما إلى القسم الآخر.

قال سجين ليزيد الأمور لبساً واشتعالاً:

. إنهما فعلاً يستحقان السجن، المجنونان يتشاجران من أجل طفل صغير يحمل تميمة على عنقه، ليس ابنهما على الأرجح.

. أمركم جميعاً بالهدوء والتأهب للنوم.

أذعن السجناء، كان ذلك حلاً مناسباً لفض النزاع، لذا أخذوا يفرشون اللحف والحصائر على الأرضية، والبعض أخرج كيس نومه وجعل يقلب داخله خارجه للتأكد من خلوه من أي حشرة أو زاحف، وحين قرر الحارسان المغادرة دخل القائد سنهوب، فانكمش الجنديان وانسحبا للوراء باحترام جم، وقال منبهاً:

. ناموا مبكرين لتستيقظوا مبكرين، احرصوا في الغد على تنظيف أماكنكم، لعل الأمير يحل ضيفاً زائراً.

وغادر بحركة حازمة، وتبعه الجنديان متبعين الحركة نفسها.

ظل عاكف يتردد على سنهوب ويسمع نفس الكلمات عن زيارة الأمير، وفي المساء يضطر للنوم قرب زكية، لسوء الحظ أمسى الصغير كثير البكاء، وبات يردد رمزاً جديداً في نغائه، لا تعرف زكية ما معنى حرف النون، لم تجد كلمة

مناسبة موحية في مخزونها اللغوي المتواضع، الكبير عون يملك مخزوناً كبيراً
من الألفاظ، وظلت تقول بتشاؤم:

.أخشى أن يحدث شيء خطير.

يجيب عاكف بيقين:

.نحن في أعماق الخطر، ليس هناك ما هو أخطر من بقاء رجل مخصي قرب
امرأة متهيجة.

وفي كل يوم تسأله حين يعود:

.هاه، ماذا فعلت من أجل السجينين؟

.لا شيء.

ومكثا مستلقين على الفراش معذبين في انتظار النوم، في الصباح خرج
عاكف من الغرفة، وفجأة اقتربت الأميرات الشقيقات (نورة ونهار وخالدة) من
نافذة غرفة عاكف المفتوحة، فانحنى باحترام، وخرج لمقابلتهن، قالت الأميرة
نوره تخاطبه باهتمام:

.سمعنا صوتاً غريباً في غرفتك.

أربد وجهه واكتفى بإيماءة من رأسه إلى الداخل، رأين زكية في الغرفة، والطفل
الصغير المتربع في حجرها، نظرن إليه بدهشة، ثم انفجرن ضحكاً، وقالت
الأميرة نهار ضاحكة:

.لديك امرأة وطفل يا عاكف، يا سبحان الله!

وضعت الأميرة نورة سبابتها اليمنى داخل دائرة صنعتها من إبهام وسبابة يدها الشمال، وجعلت تولج إصبعها فيها بمجون وهي تقول:

.كيف فعلت ذلك؟

أجابها بصوت متهدج غاضب:

.إنها قريبتي وليس لها وطفلها مأوى.

وقفت الأميرة خالدة عند باب الغرفة وتلصصت على محتوياتها، وقالت وهي تغطي فمها براحتها وتضحك:

.الفراشان ملتصقان، المفضوحان ينامان قرب بعضهما.

رد عليها محاولاً أن يجاري عبثها:

.لا تخشين على بكارتها، إنها امرأة متزوجة.

.ماذا تفعلان قرب بعضكما إذا؟

.هل تستطيع امرأة أن تنام قرب رجل مخصي دون أن تتحرش به؟

.بِمَ تضاجعها يا عاكف؟

أمطرنه بأسئلة كثيرة مبتذلة، وصاح عاكف بثورة مفاجئة:

.كفى، أنتم تفعلون ما يحلو لكم وتهزؤون من الآخرين، أنا إنسان مثلكم

تماماً، لا ينقصني شيء عدا العضو الذكري، لا أحد يأبه لمشاعري.

اندهشت الأميرات، وتعجبين من غضبه، لم يسبق أن رأيته يثور في وجوههن، لا أحد يجرؤ على ذلك، كانت المهزلة ستدوم لولا قدوم الأميرة شوق التي انبثقت من مكان ما لتنقذ الموقف. ألقت على المرأة وطفلها نظرة عابرة، ثم ردت بصرها إلى قائد السرايا وشقيقاتها، رأت الحزن متجلياً على وجهه، بينما لاحظت وجوه شقيقاتها الضاحكة الساخرة، حين رأيها لم يستطعن تجاهل أمر حضورها القوي، وحاولن إخفاء الازدراء والتهكم، لأن شقيقتهم جادة حازمة تخالفهن الرأي دائماً، ولا يوجد من يستطيع أن يخالفها، لأنها لسبب ما الأثيرة في العائلة الأميرية، ولها دل كبير عند والدها الأمير المنصور، وهو الأمير الأكبر في البلاد.

قالت الأميرة شوق لشقيقاتها بصوت حاد:

.أهناك شيء يستدعي الوقوف والضحك؟

أجابت الأميرة نهار:

. لا شيء، نحن نتبادل الحديث وعاكف حول هذه المرأة وطفلها، لقد اعتقدنا

في البداية أنها زوجته!

. لا تשמتمن من الجنود، إنهم هنا لخدمتنا، ويجب احترام مشاعرهم.

. ما هي المشاعر؟ لتجتمع العائلة الأميرية هذا المساء.

. نعم، أريد هذا الاجتماع.

. إلى اللقاء يا أميرة الأميرات.

في المساء حضر لفيف من الأمراء والأميرات، وغالبيتهم يظلون صامتين، احتراماً للأمير الأكبر، أو لا يجدون ما يقولونه في مواضيع ليس لهم فيها رأي، وتم طرح موضوع المشاعر بصورة عفوية، ولم يفهم معظم أفراد العائلة الأميرية معنى هذا اللفظ، حتى تطوعت الأميرة شوق قائلة:

. هي مجموعة الأشياء التي نشعر بها، كالآلم والفرح والحزن والسأم والقلق وغيرها مما نشعر به بين حين وآخر، من الغريب ألا تدركون ذلك!

قالت الأميرة خالدة بضيق:

. نريد أن نفهم، هل يملك أتباعنا وخدمنا هذه المشاعر أم لا!

انتفض الأمير الأكبر من جلسته المسترخية ورفع راحته في الهواء، وقال بضجر:

. أليس من الأفضل أن تختاروا موضوعاً أكثر جدية؟

نظروا إلى بعضهم البعض بحيرة واضحة، فأضاف باهتمام:

. أفكر ببناء مسجد لا نظير له في الأرض، وهذا الموضوع مطروح للنقاش، ماذا ترون؟

استحسن الجميع الفكرة، لكن الأميرة شوق قالت بقلق:

. ما أكثر دور العبادة في صنعاء، وما أكثر المؤمنين فيها، أخشى أن نكون في زمن اضمحلال الإمارة، منذ أيام خلت قرأت وثائق المتوكل عباس، وحسبت المدة المحددة لظهور الطفل الساحر، فوجدت أننا في العام الأول لميلاده، هذا إذا كان المتوكل دقيقاً في حسابه.

هتف الأمير الأكبر بلا اهتمام:

. لقد بعثت إلى ولدي الأمير الناصر أن يكف عن قتل الأطفال وبيعهم إلي، لأن من غير الجائز أن نقتل أطفالاً لمجرد أنهم يحملون تمائم غريبة أو مميزين بشيء ما.

هتفت الأميرة خالدة بصوت غريب رافع:

. أوه، ذلك الطفل قريب الجندي عاكف يحمل تميمة غريبة ذات سلسلة ذهبية، إنها تبدو قديمة وباهظة في عنق صبي بائس من عوام الناس.

تصلبت أنظار المجتمعين في وجه الأميرة خالدة، كأنهم يرجون مزيداً من التوضيح، لكنها سكتت وانتظرت، وطال الصمت بضع لحظات حتى تكلم الأمير الأكبر قائلاً فجأة:

. أليس هو الجندي نفسه الذي بعثته إلى الأمير الناصر؟

. نعم، إنه هو.

نهض الأمير الأكبر فنهض المجتمعون احتراماً له، وقال باهتمام:

. هذا الأمر هام جداً ولا يمكن تجاهله، هيا بنا نرى الطفل.

بدا وكأنه متحفز لخوض معركة فاصلة، ونظر إلى ابنته شوق لياخذ رأبها، فمدت ذراعها وأمسكت ثيابه وهي تقول باهتمام:

. نعم، إن وجه هذا الصبي أكثر لفتاً للنظر، يشبه أطفال القيعان والسهول الباردة، ومع ذلك لم ألمح التميمة في عنقه، خذوني معكم.

خرج الجميع، وعبروا لعجلتهم واهتمامهم ممراً سرياً يؤدي إلى قصور الأميرات. كانت زكية تغسل الطفل تحت أشعة الشمس في حوض ماء صغير داخل حديقة القصر، فجأة طلع عليها أشخاص متجهمين، فاحتضنت صغيرها وضمته إلى صدرها بفجاعة، وتلك ردة فعل طبيعية لأي أم تباغت على هذا النحو، ثم أخذت تنشف جسد الصبي، وحواسها متيقظة، راحت بطرف عينها تراقب أولئك الأشخاص ذوي الثياب المزركشة والأجساد الناعمة السمينة، كانوا يفتشون ثياب الصغير باحثين عن شيء ما، لا تدري عما يبحثون، سرعان ما اصطاد أحدهم التميمة ونشرها أمام عينها وهو يقول بنبرات حادة:

.من أين لطفلك هذه التميمة؟

قلبت زكية في وجوههم عينين مرتابتين، وأجابت:

.لا أدري، من أنتم؟

صاح أحد الأمراء الذين كانوا صامتين في الاجتماع:

.أمير البلاد المبجل يتحدث إليك، تكلمي باحترام.

.انظروا إليه، إنه طفل بريء لا يؤذي أحداً.

خاطبها الأمير الأكبر بارتياح:

.من أنت؟ أريد أن أعرف كل شيء عنك وصغيرك، وعن هذه التميمة الغريبة.

ارتبكت زكية وتمنت لو يظهر عاكف وينقذها من هذا الموقف المربك،

وحدست أن الكذب قد يؤذي الصغير، فأجابت بضيق:

.أنا امرأة والد هذا الصبي، وهو يتيم ماتت أمه عند ولادته، ولا أدري مصدر هذه التميمية، لكنها تصرف عنه العيون الخبيثة.

فحص الأمير الأكبر الصبي بعينه، ثم ضحك ملياً وقال:

.أي شيء في هذا الصبي يجعله محسوداً، ولكن القردة ترى أولادها بالعين التي ترى فيها الغزلان صغارها. هيا بنا نرحل، من الغريب أن امرأة الأب تهتم بأبنائه!

وانصرف الأمير ورفاقه وتوارت القضية برمتها لاعتقادهم أن الطفل الساحر لا يمكن أن يكون هذا الطفل الضئيل البائس.

مر يوم آخر والسجناء في عمل دائب في السجن، رشوا الباحة الخارجية بالماء حتى لا يطير الغبار إلى جسد الأمير، وطلوا الجدران الداخلية بالنورة البيضاء حتى لا تصطدم عيناه الكريمتان بتلك الألفاظ النابية التي يحفرها زملاؤهم هناك في أوقات اليأس، وهي جمل وألفاظ تكتب ضد الأشخاص الذين تسببوا بحبسهم، كما عمدوا إلى مطاردة الفئران، وسدوا أوكارها الصغيرة في الزوايا المظلمة، وبخروا الغرف بالعودة، وردموا الشقوق والحفر التي تلوذ بها الكائن والحشرات، ثم ارتدوا نحو بطانياتهم ولحفهم وحصائرهم، فنظفوها من الأتربة، ورتبوها بحيث ظهرت بشكل مقبول. رغم هذا الجهد المبذول لم تتم الزيارة، وهذا أجهد العشرين جندياً المكلفين بالحراسة والإشراف على السجناء.

كان الإحباط في السجن على أشده، بحيث أهمل السجناء واجباتهم اليومية، وطغت الفوضى على النظام المعمول به، وساد التوتر، فالسجناء في القسم الجنائي كانوا يريدون أن يكسروا الروتين بالنظر إلى وجه الأمير الأكبر من خلف السياج، وقد يشتكون له من الإهمال والعذاب الذي يمارس ضدهم، أو حتى يبصقون في وجهه تعبيراً عن غيظهم ويأسهم، أما السجناء في قسم العقوبات الخفيفة فإنهم يطمعون أن يثيروا شفقتهم بإبراز الأسباب التافهة التي سجنوا لأجلها، وفي كل الأحوال سوف يحرر الأمير من يقتنع ببراءته أو من يستطيع إقناعه وجذب انتباهه، كما أن الجنود يحصدون مكافأة مالية تحفيزية تبلغ نصف راتبهم الشهري، ولهذا كان الجميع ينتظرون هذه الزيارة بفارغ الصبر، لكن النبأ السيئ جاء مع سنهوب، فالأمير لن يحضر هذا العام، قالها بكل بساطة، وظل وجهه مشحوناً بصرامته المألوفة، وصبر على صراخهم وشتائمهم، ثم فر من ألفاظهم الجارحة إلى حجرته الفسيحة ماشياً بخطوات منتظمة، فمازال قائد سرية قصور الأميرات يطالبه بإطلاق الأسيرين، وبدأ يهدده بلهجة شديدة باتخاذ إجراءات صارمة ضده، كان سنهوب ينتظره ليسلمهما إليه، إلا أنه في ذلك اليوم فقط لم يحضر، فأرسل جندياً في طلبه.

يوم ذاك كان عاكف يتحرك كالمجنون ويتكلم مع نفسه بصوت غير مسموع، ما بعث الخوف في نفوس أفراد سريته، وما لا يعرفه الجميع هو أنه قد أعد العدة للقضاء على شخص ما بطرق عديدة، فابتاع سيوراً جلدية متينة وخطاطيف وخناجر وعلب مختلفة من السموم المعروفة في أسواق المدينة، كالزرنخ، وسم الأفاعي، وشراب العلقم، وقاتل الحشرات، ومواد أخرى

مجهولة قاتلة سائلة وصلبة، ولكي يبقى سره مخفياً مفاجئاً جلب تلك المواد إلى غرفته في صندوق عاجي تنقل فيه أغراض الأميرات، وحين سألته زكية عنها، أجاب:

.هذه العلب السامة للفئران.

وعندما رأته ينصب خطافاً على سقف الغرفة قالت بتهكم:

.أتظن أن بوسعك تكبيل الفئران بواسطة هذه السيور؟

.لا، سأكبل نفسي بها، لأنني في الغد سأطلق سراحكم ثم أرحل.

أجابت بفرح:

.هل وافق سنهوب على إطلاقهما؟

.أظن ذلك.

.لن أوافق على الخروج وصغيري دونهما، كيف تجرؤ على الكذب؟

.سيطلقان في الغد، لدي حدس لا يخطئ.

لم يخبرها أن سنهوب بعث إليه رسولاً ليأتي إلى السجن، وإنه لم يذهب للتو محبذاً أن ينهي ترتيباته، في ذلك الصباح حضر أيضاً جنازة رفيقه الجندي صالح الذي داهمه المرض بعد عودته من تعز، وعاد مكتئباً إلى القصور، لقد اكتشف أنه الناجي الوحيد من الجنود الذي شاركوا في تلك الرحلة الغريبة، ولم يعد هناك من يدرك أسرارها سواه، هل عليه أن ينتظر المصير الذي لحق برفاقه؟ تساءل عاكف بعجب عما يُرجى من حياته؟ وما يدفعه للتشبث بها؟

فأخذ رسالة الأمير الناصر ووضعتها في الموقد وأشعل النار وهو يضحك
بتشفٍ، كانت زكية تراقبه بذهول، وتسأله عما يفعل، فلا يجيب بشيء مفيد،
وفي المساء خلدا إلى النوم مبكرين، والتصق بها كما لم يلتصق بها رجل آخر
طوال حياتها، أحست ببكائه وارتعاشه ودفء جسده. أخبرها أنه يحبها
وصغيرها من صميم قلبه، لكنه لا يملك شيئاً يمنحها إياه تعبيراً عن حبه،
وفهمت أنه يقصد عضوه الذكري، فقالت إن ذلك الشيء لا يهم كثيراً دون
مشاعر الحب، وتمنت أن تعيش وسرحان لحظات مماثلة، وهكذا ناما
ملتصقين بسكينة حتى غمر الضياء الغرفة، حينها اتجه بخطوات ثابتة إلى
السجن، وبمجرد أن رآه ستهوب قادماً حتى خاطبه بغضب:

. خذ كلبك ولا تريني وجهك ثانية، الأمير لن يزور السجن هذا العام.

وهكذا ظهر سرحان والكبير عون مرة أخرى في الشارع، بديا كغريبين وسط
أشعة الشمس يتلفتان حولهما باندهاش، كأنهما قضيا أعواماً في السجن،
والآن يتطلعان إلى ما طرأ على الأماكن من اختلاف، انتظرا بعض الوقت عند
شارع خلفي قريب من قصور الأميرات، حتى أقبلت زكية والطفل في حجرها،
وقال عاكف هامساً وهو يودعهم:

. ابتعدوا عن المدينة ما دمتم تستطيعون الابتعاد عنها.

سأل الكبير عون بعجب:

. ماذا يجري يا عاكف؟ ألن تسلمنا للأمير كما طلب منك؟

. حاولت أن أقوم بواجبي دون جدوى، ستتتعفنون بالسجن حتى موعد زيارة الأمير في العام القادم. اذهبوا، لا أحد يحفل بكم أو بي.
لكن كيف..

صرخ في وجوههم، فأجفلوا من بين يديه، وغادروا.

ظل عاكف طيلة ذلك النهار يضحك بملء الصوت، حتى ظن أفراد سريته أنه أصيب بعارض شيطاني، كان يجاهر أنه سدد ضربة موجعة إلى صدور الذين يهزؤون به، وراح يسب ويشتم أرباب نعمته، حتى انتهت الأميرات، وتفشى خبر كلامه النابي بين الجنود، وبلغ القصور الأميرية الأخرى، وتجمد دهشة الأمراء والأميرات والعاملون في القصور، ونُقِل الخبر بتلطف شديد إلى الأمير الأكبر المنصور. فهو الوحيد الذي يستطيع أن يبت بشأن هذا الأمر غير المسبوق، قالوا له إن أحد الجنود أصيب بالجنون وهو الآن يقدح بالدم والشتائم ضد الله وأفراد العائلة الأميرية، ولا أحد يدرك ما جرى لعقله حتى يفعل ذلك، وأعطى هذا تأثيراً سيئاً في نفس الأمير، وصار غاضباً، وأمر جنوده بالقبض على ذلك الزنديق المتمرد. لكنهم وجدوا الجندي مشنوقاً في غرفته، وهذا أثبت له أنه قام بذلك عن وعي وإدراك، ووقف بنفسه أمام جثة هذا الجندي.

أراد أن يعلم لِمَ اقتترف شتائمهم ضد عائلته الكريمة، أما الله فسيأخذ حقه من هذا العاصي لأنه صار الآن بين يديه. وجعل الأمير الأكبر يقول لمن حوله إن هذا مؤشر خطير ينم عن انتشار روح التمرد والعداء في أرواح الجنود والأتباع، ما يؤكد أنهم يحملون مشاعر من نوع ما. ما حدث هو اعتداء صارخ

ليس على العائلة الأميرية والبلاد وحسب، بل يمس شخص ومكانة وشرف الأمير الأكبر نفسه، وسمع من أفراد سرية قصور الأميرات عن تحركات قائدهم الأخيرة عقب عودته من تعز، وعن المرأة والصغير اللذين سكنا معه في الحديقة، وأنه في ذلك اليوم رافقهما إلى الخارج، وعاد وحيداً ليشنق نفسه في غرفته، وضحت الأمور في رأس الأمير الأكبر، ذلك الجندي كان مبعوثه إلى الأمير الناصر في تعز في رسالة عاجله يحثه فيها على عدم قتل الأطفال المميزين وإرسالهم إليه، وربما صادف أن كان هناك طفلاً مميزاً في حضرة الأمير، ومن ثم بعث تلك المرأة والطفل صاحب التميمة الغريبة برفقة عاكف ورفاقه، لا ريب أنه كان يحمل رسالة من أمير تعز أو سراً ما، بشأن الطفل الذي رآه في الحديقة، حين ذلك انفجر صارخاً بانفعال، ملقياً أوامره الصارمة على أعوانه وجنوده، الذين أمسوا يتحركون جيئةً وذهاباً لسبب أو من دون سبب، ابحثوا عن الطفل الصغير، أعيدوه إلى المدينة إن كان قد غادرها، نادوا من القلاع ورؤوس الجبال، ليمسك بهم الناس في الطرقات، ذلك أسرع وأقل كلفة، لا تركوا عابر سبيل دون تفتيش، فتشوا المدينة شبراً شبراً. ابحثوا بين مقتنيات هذا الجندي عن رسالة أمير تعز. تحروا عن كل شيء فعله قبل موته، اعرفوا اسم أبيه، وأمه وخالاته وعماته، كل شيء... حاول بعض الأمراء أن يخفف من ثورته ويقلل من أهمية ما حدث، فقال بصوت خافت:

. جندي معتوه شنق نفسه ليبدو بطلاً في عيون الناس وحسب.

.أيها الغبي النبوءة تتحقق، انظروا هل تحققت العلامات الأخرى، هذا الجندي كان مبعوثي إلى تعز، ولعله كان يحمل رسالة عاجلة من الأمير الناصر، ألا تفهمون أيها الحمقى؟

وجاء الجندي ردمان وهو مسؤول البحث والتحري في الإمارة، يرافقه جنود تحت إمرته، لا يملكون من وسائل إلا عيون ذكية وعقول متفتحة وعزيمة لا تمل، يستدعون في مثل هذه الأوقات، وكثيراً ما يعودون بنتائج طيبة. وقلما يخيبون، وقد نبشوا كل شبر في غرفة عاكف، وفتشوا مقتنياته وملابسه. وتحروا عن أقاربه ومشاكله، نبشوا ماضيه وتتبعوا خطواته الأخيرة خطوة خطوة. سألوا رفاقه الجنود، فزودوهم بكثير من التفاصيل الهامة، ووصلوا في بحثهم إلى السجّانة الذكورية التي حدثهم عن السجينة وطفلها المزعج، ومروا على سnehوب، وسمعوا خبر السجينين اللذين سلمهما الجندي عاكف إلى السجن، واكتشفوا أن الأخير أمضى وقتاً طويلاً يحاول إيصال رسالة ما طارئة إلى الأمير الأكبر يدا بيد، ورفض أن يسلمها إلى الديوان الأميري. وفي الغرفة عثر الجنود التابعون لردمان عن بقايا رسالة محترقة داخل موقد طيني في المستودع، وعثروا فيها على كلمتين متفرقتين فقط نجتا من الحريق، "الأسود والطفل"، واعتقدوا أنها جزء من الرسالة التي أراد عاكف تسليمها للأمير يداً بيد. كما اكتشف التحريون أن عاكف كف عن التردد على أمين السر في الفترة التي انضمت إلى غرفته تلك المرأة الغريبة والصبي الصغير بعد خروجهما من السجن. وأدركوا أنها لم تكن قريبته كما كان يدعي، بل امرأة أحد السجينين في قسم العقوبات الخفيفة، وعادوا إلى السجن مرة أخرى، وقابلوا السجناء، وكان هؤلاء أملهم الأخير، سمعوا منهم ما رواه شعيب من

أحداث غريبة عن الطفل الساحر، ووقف ردمان أمام شعيب، وسمعه يصرخ
بهوس:

. أطلقوني أيها الأوباش، الساحر الصغير هنا في صنعاء، لا أريد أن أكون في
طريقه.

اقرب منه ردمان وخاطبه بثقة:

. أنا أطلقك على الفور، ساعدنا فقط على القبض عليه.

. نعم، سأفعل ما تريدون، أنا أعرف علاماته، في عنقه تميمة ذات سلسلة
ذهبية صنعها أحد أجدادي.

وختم ردمان تقريره بما حدث، وسلمه مكتوباً إلى كف الأمير الأكبر المنصور،
وهو قذفه بغضب إلى كف ابنته الأميرة شوق، واثّر ذلك اقتيد جميع
المسؤولين الذين مر عليهم عاكف إلى السجن بتهمة سوء الإدارة والإهمال. أما
شعيب فقد أطلق من السجن، وركب على حصان سريع، وغادر المدينة ونخبة
من الجنود الخيالة للقبض على الفارين، لكنه في مكان ما تلا عليهم تعويذة
الجمود وهرب. ورفع المنادون النداء العاجل من جميع القلاع والجبال
المحيطة بصنعاء، إلى القلاع الأخرى والجبال المجاورة، بضبط الفارين، إضافة
إلى ضبط سجين تهامي هارب يدعى شعيب الساحر، وجلبت إلى المدينة أعداد
كبيرة من الأطفال والمسافرين والغرباء من أرجاء البلاد، ولكن لم يكن في أي
منهم الطفل المنشود.

(7)

وصل سرحان وزكية والكبير عون إلى مشارف قرية سوق الخميس، غير بعيد من صنعاء، كانوا متعبين تكويهم حرارة الشمس الحارقة، وبحاجة ماسة إلى الراحة وابتلاع شيء من الطعام. نفذ الكبير عون جيوبه، ولم يجد بقشة أو حتى باولة واحدة، وفتش سرحان ثيابه رغم إدراكه أنه لا يملك شيئاً من المال. مضوا صامتين وسط السوق في حال شديد من الجوع والإحباط، وفجأة استوقفهم تاجر تمور طالبا منهم مساعدته في نقل أكياس ثقيلة من التمر إلى دكانه مقابل خمس بقش لكل رجل، فحملوا أكياساً كثيرة، ولم تعد أجسادهم تقوى على السير، فمالوا باتجاه سمسرة السوق، كانت صاحبة السمسرة امرأة حرازية يهودية تبدو في الثلاثين من العمر.

بدت منشرحة ضاحكة ووجهها المدور يخلب العقل، تفر من شفيتها ابتسامة ناعمة، ومع ذلك قرأ سرحان في عينها شيئاً بغيضاً، ومضى يحدق إليها بدهشة وهي تخفض رموش عينها اليسرى، وتنقل بصرها في وجهيهما بتودد فاضح، لاحظت زكية انبساط ملامح الذكرين في مجموعتها بحيث تدلت شفتا زوجها سرحان، وجحظت عينا الكبير عون إلى الخارج رغم وقاره وتقدمه في السن، ووجد الأخير نفسه يخاطب صاحبة السمسرة بتلطف:

.هل يمكننا البقاء هنا بعض الوقت؟

سلطت إليه عينها الأسرتين وأجابت بصوت رخيم:

. نعم، يمكنك قضاء ما تبقى من عمرك هنا مادمت تسدد الأجرة.

انكسرت ملامح سرحان إلى الأرض، بدا شاردًا يفكر في شعوره غير المريح،
بينما أبدت زكية جانبها السيئ في وجه المرأة قائلة بصوت حاد:

. اسمعي يا زرقاء العينين، ليس لدينا سوى بضع بقش، ولا أظن أن بوسعنا
البقاء في سمسرتك القذرة.

عارض الكبير عون فكرة الرحيل قائلاً:

. أستطيع أن أعمل في السمسرة أو السوق، لدي عقل راجح، فأنا كبير قرية،
ولا شيء يعوقني عن العمل.

. اسمع يا كبير القرية، لا تعقد الأمور أكثر، أنا في عوز شديد إلى شاب متمرد
مجنون خفيف الحركة، فالسماسر تمشي بلا عقل كما ترى.

استدركت قائلة بعد قليل من الصمت مشيرة إلى وجوههم بأصابع مرتخية:

. اسمعوا، إن كنتم ترغبون في العمل حقاً، إليكم المهام، أنتِ (أشارت إلى زكية)
لديك طفل، لذا ستعملين في منزلي وتخدمين أمي، وأنت يا صاحب العقل
الراجح (أشارت بتهكم إلى الكبير عون) ستستقبل النزلاء وتحمل عنهم أمتعتهم
إلى مستودع السمسرة، وأنت أيها الرجل الصامت (أشارت إلى سرحان)
ستعمل إلى جانبي في الداخل.

شهقت زكية بدهشة، ونظرت في وجه سرحان لتكشف تأثير قول صاحبة
السمسرة في ملامحه، ظهرت في وجهه ابتسامة طفيفة، وتكشيرة امتعاض،

ولم تعرف أي منهما أشد وضوحاً وأكثر تعبيراً، عندها تكلم سرحان سائلاً
بارتياب:

. ما طبيعة العمل الذي سأقوم به في الداخل؟ كما ترين امرأتي هنا وتظن بي
السوء دائماً.

. لا شأن لي إن لم تثق بك امرأتك، اسمعوا.. ها أنا أحذركم، لا أريد المشاكل،
باب السمسرة مفتوح، وبوسعكم المغادرة.

. أحبذ المغادرة، هذا المكان لا يعجبني، لسنا مجبرين على البقاء هنا.

لوح الكبير عون بكفه معترضاً على كلام زكية، وقال:

. بل نريد البقاء قليلاً حتى نستعيد قوانا.

. وأنا كذلك.

أبدى سرحان رأيه بصوت خفيض منكسر حتى لا يثير غضب امرأته
الساخطة، وعندما التفت ونظر مباشرة في عينيها قرأ هذه التهمة: "وجدت
ضالتك أيها الخبيث، أنا أعرف أكثر مما تظن، تريدك صاحبة السمسرة أن
تدس عضوك في فرجها". هز رأسه نافياً، ورسم في ملامحه علامة الإخلاص،
وعزز ذلك برسالة كتبها في عينيه: "كوني على ثقة، لن يحدث شيء مما
تظنين"، كانت عينا الفاتنة اليهودية مثبتتين في وجه زكية وترسمان علامة
استفهام فقالت بصوت حاد:

. لِمَ تنظري إلي هكذا؟ أريني منزل أمك.

. بل هو منزلي.

وأشارت بتسلط إلى الرجلين وتابعت:

. تأهباً للعمل، أنت كن خارج السمسرة، وأنت اذهب إلى بيت النار، أشعل الموقد ريثما أعود.

كان الكبير عون يعرف أن شيئاً ما في نفسه يتغير، طالما عاش عمره لم يفكر في أنثى كما هو حاله اليوم، مكث يفكر بضيق كيف يحدث ذلك! زجر نفسه بشتى الذرائع، إنها يهودية وشابة غاوية ومُغوية، وأنت كبير قرية مسلم في الستين من العمر، يتحتم عليك أن تكون وقوراً ومتعقلاً، فكر الكبير عون إن هذا لم يكن ليحدث لو أن في رأسه ذرة عقل، كيف أزاغت هذه اليهودية عقله وطمست بصره وبصيرته؟ لكنها مع ذلك قذفت به إلى الخارج بينما احتفظت بسرحان قربها، سوف يتضوع عطرها ويحتك بها في ظلمة السمسرة عمداً أو دون عمد، لن تفلت من يده، يا له من رجل خبيث ماكر يدعي البراءة في حضور امرأته، لكن ما إن تغيب عن نظره حتى تدب في دمه تلك الرغبة الحيوانية، أعرف هذا الشيطان الشبق، يبدو أن عقله لم يركب في رأسه، بل في رأس قضيبه، لكن ماذا عنك يا عون، هل مازال في جسدك حولاً لامرأة شابة كهذه...؟ فجأة عادت صاحبة السمسرة من منزلها، واقتربت منه قائلة:

. هيه، لا تشرد يا كبير القرية، الزبون لن يسره أن يراك شاردًا.

. هاه، نعم، لن أشرد، اسمي عون، أحب اسمي مجرداً من الألقاب.

. ليس لدي هنا اسم، ولهذا لا أهتم بالأسماء، البعض يناديني صاحبة السمسرة، والأغلب يطلقون عليّ "الحرازية". لا يهم، كن واعياً حاضر الذهن.

وذهبت فازداد شروده، ثم تحول الموضوع في نفسه إلى مصدر للتسلية، ثم راح يحذر نفسه سراً: " ينبغي أن تثوب إلى رشدك، ثمار الراتنج حامضة رغم ما يوحي به شكلها".

وصرف تفكيره عنها لحظتها، لكن سرعان ما عادت لتلصق في ذهنه كالغراء، تبعها بنظرة طويلة حتى غابت وسط العتمة في آخر الممر المؤدي إلى بيت النار، ثم وضع رأسه بين راحتيه وسخر من نفسه قائلاً: " وقعت يا عون في كف امرأة لا اسم لها"..

عندما ذهبت صاحبة السمسرة وزكية إلى المنزل، بدت أمها سمينة شاردة النظرات تتحرك بصمت وريبة، وببطء شديد، وجهها أبيض حزين وعيونها الزرقاء مختلة ماكرة، نظراتها فارغة مخيفة، وحيثما زكية:

.السلام عليكم.

.أمي لا تتكلم، ليست خرساء، إنها تمر بأزمة بعد اختفاء زوجها.

.أخشى منها على الصغير.

.إنها تبدو مخيفة، لكنها ليست مؤذية، ينبغي ألا تزدرجها أو تضمري لها مقتاً،
وعليك الاعتیاد على تصرفاتها.

وقبل أن تغادر المنزل أضافت:

. تدعى زكية، يناديها الناس "ماما زكية"، حتى الأكبر منها سناً، لا تنتظري منها جواباً.

تخيلت زكية نفسها في السبعين من العمر وهي بنفس الضخامة، غريبة وصامته، التفتت ناحية مخدومتها فرأت الشرر يتطاير من عينها، واقترب حاجباها من بعضهما باستنكار. وضعت زكية الطفل مطوياً بين الخرق في ركن الحجرة مقابل الباب ليكون قريباً من نظرها، وتحركت ناحية بيت النار، لتعد طعام ماما زكية، وقبل أن تنعطف أدارت رأسها باتجاه الصغير، وفوجئت بالمرأة المسنة منحنية فوق رأسه تتأمله بعجب، فانخلع قلب زكية وهرولت وخطفت طفلها وذهبت به إلى بيت النار حانقة، تعجبت من سرعة المرأة السمينة، وفكرت في الوقت الكافي الذي يلزمها لتحمل جسدها الثقيل إلى الزاوية. عند عودتها بالطعام، كانت المرأة ماما زكية تنظر إلى الصغير وترتعد، كانت عينها مثبتان على التميمة، فاضطرت زكية أن تضع الطفل في حجرة أخرى وتوصدها بالرتاج، ورأت ألعاب ماما زكية المخيفة. كانت تمد يدها فتطير إليها الأدوات التي تحتاجها، ذيل الثور الذي تهش به الذباب، مدل الماء، المبصق، المبخرة، والملابس واللحف وأي شيء تحتاجه.

أحياناً كانت تجلس على النافذة الأولى المفتوحة لتقذف بقايا الطعام للكلاب والقطط، ثم تنتقل إلى النافذة الأخرى لترمي فتات الكعك والحبوب للطيور، وأمست الحيوانات الأليفة والطيور لا تبارح المكان، وإذا تحركت، فإلى مسافات قريبة بحيث تكون عيونها معلقة على النافذتين، فإذا ظهرت المرأة المسنة، تأتي الحيوانات سريعاً، وترتفع أصواتها، وتدور بينها مشاجرات، بينما

القصب وينفخها ويقدمها لكل زبون، ويعود مرة أخرى ليشعل الموقد الذي يكون قد انطفأ، وأحياناً يطلبه أكثر من زبون في وقت واحد، ويصرخون بصوت عالٍ، ولا يدري كيف يعمل، فيضطر للاختباء في بيت النار، حتى تناديه صاحبة السمسرة، تكون قد عالجت المشكلة بطريقة مجهولة، في النهاية تخطى يومين عسيرين من العمل الشاق، وسقط على وجهه في غرفة جانبية قريبة من بيت النار، راح يسعل بشدة، وأقبل الكبير عون وأخذه إلى غرفته، وحاول أن يفعل شيئاً لمساعدته، لكن ليس في يده، ودخلت صاحبة السمسرة تحمل كأساً يحوي سائلاً مجهولاً، وطلبت من سرحان أن يشربه، ثم طلبت من رفيقه أن يغادر الغرفة.

بدا الكبير عون شاردا مخدرا أكثر من ذي قبل، مع ذلك ذهب ليجلس بقلق على دكة خالية قرب المدخل، لا يدري كم من الوقت مر في تلك الليلة الطويلة، كان الظلام داخل السمسرة حالكاً، والزبائن يتنفسون ويشخرون على دكاكهم، في مثل هذا الوقت يكون بوسع سرحان أن يغزو جسد صاحبة السمسرة، ينبغي أن يباغتهما ويفضحهما، فكر الكبير عون بغضب، حاول أن يعود متسللاً إلى غرفة سرحان دون جدوى، في كل مرة يصطدم بشيء ما أو يتعثر بأحد النائمين، وفي كل مرة يعتذر متلعثماً ويعود أدراجه. بدت السمسرة في مخيلته كبيرة وحواجز كبيرة تفصله عن آخرها، ظل يحاول مدة طويلة، ثم شجع نفسه على أن يقوم بمحاولة أخيرة وبشكل مختلف، فحبا بيديه ورجليه ببطء، وأخذ يتلمس طريقه بأنامله الحذرة، ظل يتقدم حتى تجاوز الدكك، وتلاشت عن سمعه أنفاس النائمين، إذ ذاك نهض على قدميه، وتقدم بضع خطوات حتى اصطدم بالجدار، وقف قليلاً يفكر كيف

يشق طريقه إلى الغرفة الصحيحة، كان يود أن يلج إلى غرفة صاحبة السمسة، أحس بقوة قلبه وانتصاب عضوه، مضى يشاهد خيال الحرازية عارية مضطجعة على فراشها، تشير بيدها إليه أن يقترب ويرتبي في أحضانها، سمع صوتاً رقيقاً في الجوار، كانت صاحبة السمسة تقول شيئاً ما، تقدم صوب الصوت، اقترب متلمساً طريقه في الظلام حتى أمسك الباب، فتحه وهو يقول بصوت خفيض حاني:

.أنا هنا يا حياتي.

تقدم بضع خطوات حتى جلس على المنامة، خلع ملابسه وارتبي على خيالها العاري. لكنه سقط وسط فراش مرتب بارد، سرعان ما ارتجفت أوصاله حنقا، وقفز كفأر يوشك أن يقع بين مخالب بازي، فاصطدم بالجدار وظل يتخبط بفجيرة حتى خرج من الباب، أحس بالغيرة تنهش صدره، ومضى يتساءل بضمك، ماذا تفعل الحرازية في غرفة سرحان؟ هل هو مريض حقاً أم يحاولان خداع الآخرين من خلال ايجاد ذريعة مناسبة ليكونا معا؟ إنها في حقيقة الأمر تهتم به كثيراً وتمرضه، بينما لا تسأل عنه ولا تعيره انتباهاً، بل رمته خارج السمسة كالكلب. تقدم نحو الباب الآخر وفتحه بعنف، سمع صوت اليهودية وهي تهتمهم بكلمات غير مفهومة تشبه وشوشة الحب بين عاشقين متعانقين، اقترب وهو يسأل بغضب:

.هل يوجد أحد هنا؟

.....

لم يرد عليه أحد، لكن همهمة الحرازية ارتفعت بما يشبه التحذير والتنبيه إلى انهماكها في عمل هام، لكن الكبير عون كان في حال سيء من الغيرة والحقد، بحيث أهمل كل هذه الإشارات أو لم يفهمها، وهجم في العتمة ناحية الصوت، وجذب المرأة بقوة حتى حشرها في الزاوية، ثم خلع ملابسها ورمأها أرضاً، وضغط على عنقها وهو يقول:

.ماذا تفعلين عند سرحان؟ لست واهناً كما تظنين، أستطيع أن أفض بكارات عشر عذارى في وقت واحد.

.لا أفعل شيئاً، اتركني.

سعلت واختنقت ألفاظها، فأرخی أنامله قليلاً، فتابعت بصوت متذبذب:

.أحاول أن أنقذ هذا الرجل المصاب بالريح الصفراء، سيموت إن لم أقرأ عليه التعويذة المنجية، كدت أن أنتهي منها لولاك.

.أتحسبيني غيباً، كيف تمارسين دور المعالجة في وقت متأخر من الليل. هيا أخبريني، ماذا يجري؟

ضحكت بدلال قائلة:

.لا تكن غيورا، تعال إلى غرفتي لنقضي بعض الوقت وهناك لن يزعجنا أحد.

وقع تحت تأثير سحرها ودلالها، كان ملمسها ناعماً، أحس بها تنسحب من تحت أنامله المخدرة، فهروول وراءها وهو يتحرق شبقاً وابتلع الريق المتدفق في فمه، أغلق باب غرفتها الباردة وراءه، وهجم عليها كوحش كاسر دون أن

يمهلهما، عند الفجر خرجت صاحبة السمسرة عارية متوردة الوجه منكوشة
الشعر وهي تقول بمرارة:

.سأجعلك تجرب شعور الأنثى حين تغتصب.

ودخلت غرفة سرحان وابتدأت بقراءة التعويذة المنجية من جديد.

كسا الضياء السمسرة، وفتق صباح جديد هادئ، في تلك الوهلة الصافية
أنهت صاحبة السمسرة تعويذتها، كانت عارية متعبة تنتفض من البرد، خبّأت
جسدها تحت الدثار قرب جسد مريضها الغائب عن الوعي، التصقت به
مستمدة من دفئه، ثم انحنت فوقه، ومدت أناملها إلى جبينه وصدره، شعرت
ببعض الحرارة والنبض، فتنفست الصعداء، وغمرها الارتياح رغم معاناتها في
الليلة الماضية، حتى أنها ابتسمت بشيء من الفرح، إذ لا تود أن يموت زبون أو
عامل في سمسرتها، كي لا تتلطح سمعة المكان بالشبهات ويحجم الزبائن عن
النزول فيه، في تلك الأثناء، فُتح الباب بعنف، وظهرت زكية والطفل في
حجرها يناغي:

.خاخخخخخخخ...

صاحت زكية بصوت راعد:

.خيانة.

نهضت الحرازية مرعوبة بحيث بدت كالمذنبه، لسوء الحظ أفاق المريض في تلك الوهلة بالذات، ورأى امرأته تصرخ مشيرة إلى جسد صاحبة السمسرة العاري:

. كنت أعرف أن هذه المرأة قحبة، لم يصدقني أحد، لقد صرت كالوحش تعض وتخمش أجسادهن أيها الخائن!

حجبت المرأة جسدها باللحاف، ولم يكثرث بها سرحان، بل هرول خلف زكية ليشرح لها أن ما تظنه ليس صحيحاً، رآها تخرج من باب السمسرة، وقف قليلاً خارج الحجرة محتاراً، لا يستطيع اللحاق بها بملابسه الخفيفة، كان بعض الزبائن ينظرون إليه بشك وغضب، وكأنه مسؤول عن إزعاجهم وإيقاظهم من النوم، ارتد إلى الداخل على عَجَل، ارتدى ملابسه وراح يجمع أغراضه للرحيل، كانت صاحبة السمسرة قد ارتدت ثيابها، وسمعتها تقول بتوتر:

. الآن تستطيع المغادرة، لن تعود الريح الصفراء إلى جسدك ثانية.

. ولن تعود زكية أيضاً.

أضاف متسائلاً بغیظ:

. ماذا كنت تفعلين عارية في غرفتي؟

تحدثت عن الريح الصفراء والحمى الشديدة التي أصابته، فسَّرت ذلك بروح خبيثة لرجل ميت تسقط على جسد أول شخص تقابله قبل أن تصعد إلى

السماء، وقد كانت تقوم بطردها قبل أن تتعمق في جسده أكثر وتصعد إلى الرأس. نظر إليها بارتياح، فأشارت إلى غرفتها وأضافت بانفعال:

.لا تنس أن تأخذ صديقك.

عرج إلى الغرفة وهو يصيح:

.كبير عون، حان وقت الرحيل يا صاحبي.

فتح باب الغرفة بعجل، ووجد هناك حيواناً، نظر إليها بدهشة هاتفاً:

.عجباً، هذه أتان في غرفتك.

.هي لك.

ورمت إليه أربع ريالات، كان الأجر كبيراً، نظر إليها بدهشة، فأخذت تهز رأسها بعشم، انتبه إلى أنها قد كلفته ما لا يطيق من الأعمال حتى سقط مريضاً، وهذا السخاء ليس فضلاً منها، بل هو مستحق بجداره، قاد الأتان إلى الخارج، وهناك تلفت يميناً ويساراً، وعندها سمع النداء يتردد من رأس القلعة الشامخة على رأس الجبل:

" يا رواد سوق الخميس، بأمر الأمير الأكبر، المطلوبون رجالان وامرأة وطفل رضيع على عنقه تميمة ذات سلسلة ذهبية، وساحر تهامي أسمر اللون يدعى شعيب..."

ارتجف جسده وهو يسمع النداء، وانقبض قلبه، جعل ينادي صديقه، لكن لم يرد عليه أحد، فكر كيف تبخر هذا الرجل بين ليلة وضحى، أحس بالإرهاق فنظر إلى الأتان، كأنما يقيس حجمها واستعدادها لحمله، رآها فتية قوية،

حاول أن يمتطيها، لكنها رفست في الهواء، وكادت أن تحطم وجهه، ضحك أحد المتسوقين ومدّ له عصا غليظة، فتناولها بفرح وضرب الأتان على كفلها بقوة، ثم امتطأها دون مقاومة، وجعل يصوب نظره هنا وهناك باحثاً عن امرأته، رآها بعيداً تمشي في الطريق التي جاءوا منها، وغمره الغضب، وقال لنفسه: ماذا جرى لهذه المجنونة؟ إنها تسير صوب صنعاء. مضى يحث الأتان على اللحاق بها، فأسرعت بخطوات خفيفة جادة ما جعله يضم الامتنان لصاحبة السمسرة، أصبحت زكية على مسافة قريبة منه تمشي بخطى متباعدة ثابتة، خطر له ألا يباغتها حتى يهداها التعب، ومن ثم تصبح مجبرة على سماع حديثه، وكما توقع تماماً، مالت زكية لاهثة إلى ظل شجرة، احتمت تحتهما من الهجير، واضعة الطفل في حجرها، وعندما رفعت رأسها التقت عيناهما في نظرة مفاجئة.

في تلك الأثناء سمع نهيقاً مزعجاً وجلبة شديدة خلفه، رأى حمارين ضخمين يهروان صوب الأتان، ليتزاوجا بها، وهناك فلاح يجري خلفهما صارخاً ملوحاً بعصاه في الهواء، أجفلت الأتان قاذفة سرحان أرضاً، ولاذت بالفرار، وأوشك الحماران الهائجان أن يدهساها، لحق خلفهما جارا جسده المصدوم، جعل يقذفهما بالحجارة ليبتعدا عن أتان، وعندما وصل لاهتاً وجد أحدهما قد هبط من ظهرها، بينما هي مقوسة الظهر مستسلمة فاغرة شذقها من الألم أو المتعة، لا يدري. كان على وجهها نظرة غريبة بليدة، كذلك امتطأها الآخر، ولم يجد الوقت الكافي لمنعه، وصل الفلاح لاهتاً متجهم الوجه، ضرب حماريه وشتمهما، ونظر إلى سرحان والأتان بغيظ، ثم أمسك الحيوانين وقادهما وهو يصيح بتبرم إن ذلك الصباح سيء جداً، وإن مشاهدة عضو الحمار ينذر

بمحصول شحيح، كما لن يستطيع الحماران أن يحرثا الأرض بنشاط هذا اليوم، أعلن سرحان أيضا عن غضبه وشتم صاحب الحمارين، ولكن بعد أن ابتعد عنه، وظلت الأتان ترتجف وتنظر حولها بدعر.

أخذها وسار باتجاه الشجرة، وهناك لم يجد أثراً لزكية، استراح وأتانه قليلاً تحت الظل المديد، أخذ يفكر في امرأته وطفله بحسرة، كان يود أن يندرها أنها تسير في الطريق الخاطئ، لعلها سمعت النداء، وتحاول الهروب، فكر في الكبير عون، لا يمكن أن يتركهم ويرحل دون أن يشعرهم بذلك. يخشى أن يكون قد حدث له مكروه، وهكذا عاد -مدفوعاً بشكوكه- سيراً على الأقدام، لم يجرؤ على ركوب الأتان، موقنا أن بقاءها في حوزته سوف يعرضه لهجوم الحمير في كل موضع يستوطنه المزارعون، وذلك هو موسم الحرث ونبش الأرض، ولهذا من الخير أن يعيدها إلى صاحبة السمسرة، قال في سره بيقين: "السير بالقدمين أفضل من ركوب غير مأمون كهذا، ولا ينقصني سوى رفيق الطريق الكبير عون". نظر حوله خوفاً أن يرى الجنود الذين يبحثون عنهم، لكن مادام وحيداً لن يعترض طريقه أحد، لا شك أن فرص نجاتهم تكون أكبر في حال تفرقوا، ومع ذلك يمكنه أن يمشي والكبير عون دون أن يثيرا الشك، فرح سرحان لهذا الخاطر، وأسرع الخطى حتى وصل إلى السمسرة، عجب من وقوف صاحبة السمسرة قرب الفناء، كأنها تنتظر عودته، كانت متبسمة تنظر بتشفٍ إلى الأتان وسألته باقتضاب:

.خيراً؟

أجاب بحياء:

.لا خير مع هذه الأتان، جئت لأعيدها إليك، لا أظني بحاجة إليها.

أخرجت لسانها بابتدال وردت غامزة بخبث:

.آها، لا تكذب يا هذا، انظر إلى ذيل الأتان المرفوع، شيء ما حدث لها، أليس كذلك؟

.نعم، إنه شيء فظيع، لقد هاجمها حماران واغتصباها بوحشية.

.بل هو جزاء عادل.

.كيف تقولين ذلك؟ من الجدير بك أن تتعاطفي معها كونك أنثى، لو رأيتِ

كيف التوى جسدها تحت ثقل المغتصبين اللعينين لأشفقت عليها.

.كُف عن هذا الهراء، هات الأتان، ولتأخذ صديقك اللعين، انتظر هنا.

استغرب من قولها ورغبتها في مقايضة الأتان بصديقه، لم يفهم ما تنوي أن

تفعل. ومع ذلك غمره الفرح، مكث يراقبها، وهي تدفع الأتان بقسوة حتى

توارت معها داخل الزريبة، طفق يتحرك بقلق، مر الوقت بطيئاً، ثم على حين

غرة خرج الكبير عون مهرولاً من الزريبة وكأن شخصاً ما يطارده، مر بجانبه

مسرعاً دون أن ينظر في وجهه، تبعه سرحان إلى خارج الفناء وهو يصيح

بعجب:

.هيه، كبير عون، انتظر، هل كنت محبوساً داخل الزريبة؟

استجمع الرجل أنفاسه وأبطأ سرعته، كان شكله غريباً ووجهه شاحباً، أجاب

برعب:

.تلك المرأة "بِدة" تسحر الناس إلى حيوانات، هيا لنبتعد عن طريقها.

.لكنك تسير باتجاه صنعاء، ماذا جرى لكم؟ زكية أيضاً سلكت هذا الطريق!

.ينبغي أن أدعو الجنود لاعتقال هذه البِدة الساحرة.

.هل جننت؟ نحن مطلوبون، الجنود يبحثون عنا، وقد سمعت النداء يصدر

من القلعة قبل قليل.

رد الكبير عون بعصبية:

. أنت وطفلك وامراتك مسئولون عن تورطي في هذا الأمر، ما كان ينبغي أن

ألحق وراءكم كالمخبول، ثم في آخر عمري أتحول إلى أتان، يركبني صديقي،

وتعاشرني الحمير الجامحة!

. ماذا تقول يا كبير عون؟ أنت تهرف بكلام لا يستسيغه العقل، إذا كان هذا

صحيحاً تستطيع أن تصف الحمارين أو تعطيني علامات واضحة.

.أريد أن أنسى ما حدث، إن ذلك شيء لا يوصف ولا فخر في التحدث عنه،

أحد الحمارين أبيض والآخر أسود مبيض البطن.

.هل هذا كل شيء؟

.ماذا تريد أيضاً يا سرحان؟ وزن الخصيتين وطول العضوين!

.هذا يكفي، الآن بوسعك أن ترد لها الصاع صاعين، اذهب إليها واغتصبها حتى

تسقط مغشياً عليها ...

.كلا يا صديقي، هذه نصيحة سيئة وفرها لغبي غيري.

تهند الكبير عون واعترف ببعض التفاصيل الرهيبة، كان قد مضغ أغصانا طويلة من القات، ثم دخن لفافة حشيش محلي، وأحس بالأشياء تدور من حوله، ثم ختم ذلك بقنينة نبيد شربها بعد العشاء، لقد كان قلقاً ومتوتراً وجباناً، لم يكن يملك الجرأة على مصارحة صاحبة السمسة عن هيامه بها، لكنه باح بذلك إلى نزيل عرييد حين تبادل الحديث، فقدم له الرجل عن طيب خاطر هذه المحفزات الثلاث، ولم يزد على ذلك شيئاً، لا يذكر بعد ذلك ما حدث! لكن في جزء من الليل، ليس بعيداً عن الفجر، شرع يحلم بكوابيس مخيفة، وما إن أشرق الصبح حتى وجد نفسه قد تحول إلى أتان حقيقي، كانت المرأة الفاتنة، تقف أمامه عارية وعضات وردية متفرقة في عنقها وصدرها وفخذيها، ولما استدارت رأى بضع عضات على ردفها. كانت تخاطبه قائلة:

. انظر ما فعلت بي أيها الحيوان العجوز، سأريك عضوي لتري الأذى الذي ألحقته بي.

استلقت وفرشخت ساقها، كان عضوها يبدو ممزقاً قرمزي اللون، ولو كان يستطيع النطق كان سينكر أن يكون قد فعل ذلك الدمار، لأنه بات رجلاً مسناً لا يتذكر آخر مرة طارح فيها امرأته، كيف يقوم بذلك العمل الفظيع؟ لكن ها هو في غرفتها قرب دكة نومها، وهذا دليل كافٍ يعتمده غالبية الناس حتى القضاة الشرعيون، بعد قليل - وهو بهذا الشكل الجديد- تذكر أغصان القات ولفافة الحشيش والقنينة، ولا شيء غير ذلك. ثم سمعها تهدده ضاغطة على نبراتها بثقة:

.سأدعك تذق الألم الشديد والمهانة.

وخرجت من أمامه غاضبة، ولم يتمكن من اللحاق بها والاعتذار، كان يبكي بصوت لا يستطيع أن يخرج من أعماقه، أدرك أن الحيوانات تحس بكل ما يدور حولها وتحزن، لكنها تظل عاجزة عن التصرف والكلام.

أخيراً زفر الكبير عون الهواء المكبوت في صدره، ووافق على اقتراح سرحان بالارتياح تحت ظل أقرب شجرة يصادفونها، عثروا على الشجرة التي اختفت عندها زكية وهوجمت الأتان، وبالكاد اقتنع أن يلوذ إليها متعللاً بما حدث له، هناك تاقا إلى الجلوس على العشب الجاف والتفكير على مهل بما عليهما فعله، لكن كبير القرية لم يستطع ثني قدميه بفعل الألم، فاستند على جذع الشجرة، وأعلن على استحياء عن حاجته إلى طبيب ليفحص دبره، صاح سرحان باهتمام:

.استدر وأغمض عينيك لأرى ما حدث، هب أننا أطفالاً.

.لكننا لسنا كذلك.

.لا أدري أين سمعت هذه الإجابة.

قالها وتبسم بمرارة، مضيا يتحدثان بيأس أن مصيرهم بات محتوماً، وأن منافذ الهرب مقفلة في وجوههم، لم يفكرا بحل ما، تشاءب سرحان وامتد على ظهره مسنداً رأسه إلى مخلاته، وغبطه الكبير عون على هدوئه، أحس أن جسده فاتر بفعل السهر، فانحنى بحذر، وظل يثني مفاصله المحطمة ببطء، مرخياً جذعه بهبوط حثيث وصبر، مستعيناً بساق الشجرة حتى لامست

مؤخرته الأرض، كتم صيحة ألم كادت أن تفلت من حنجرته، مال على شقه الأيمن فوق العشب، وسحب أغراضه إلى تحت رأسه.

رأى سرحان مطبقاً عينيه وسمعه يتنفس بعمق وهدوء، فتثاءب وانطفأت عيناه تدريجياً، ولم يوقظهما إلا صوت زكية الصارخ وهي تقول بغضب:
ها هما الخائنان.

وقف فوق جسديهما عشرة جنود متنكبين بنادقهم السلطانية، ومحازقهم الجلدية على خصورهم محملة بالرصاصات النحاسية اللامعة، وتشكل حرف X على صدورهم، ما يعطيهم امتيازاً ومهابة، كان من السهل تمييز هذا الشكل التقليدي للجنود، استقام سرحان بفرع، ونظر إلى وجه رفيقه الذي مازال يجاهد لينهض، ثم رد طرفه إلى القادمين لاسيما زكية التي وقفت متجهمة ترمقهما بحقد، خاطبهما الجاويش الذي بدا موقناً:
أنتما مطلوبان وهذه المرأة والطفل.

قبض عليهما الجنود، لكن الكبير عون كان مريضاً، مثقلاً بأوجاعه، وأمر الجاويش أن يجلبوا له حماراً، فاعترض بشدة، وطلب حيواناً آخر غير الحمار.. جمل، فيل، أتان، أو حتى أسد. فجلبت له أتان من أحد الفلاحين، ركبها منبطحاً على بطنه، وشُدَّ بحبل متين حتى لا يسقط، وعند أسفل نقيط قحازة، سمعوا النداء من أعلى القلعة: "يا أصحاب قحازة، المطلوبون رجلا وامرأة وطفل رضيع على عنقه تميمة ذات سلسلة ذهبية، وساحر تهماي يدعى شعيب".

اتجهت أنظار الرجلين إلى المرأة الواشية، كان في عيونهما حقد أعى وتوشك
الدموع أن تهمر منها، بدت متبسمة هادئة قريرة العين كأنها قامت بعمل
شريف، نظرا إلى بعضهما بعجب، أشار الكبير عون لسرحان بالاقتراب،
فاقترب من الأتان على غفلة من الجندي المراقب له، وهمس الكبير عون
قائلاً:

. امرأتك مجنونة.

. أعرف ذلك، لكنك تفهم بعد فوات الأوان.

. لم فعلت ذلك؟

. لقد رأيت المرأة عارية في غرفتي.

. أنا أتلقى نتائج أثمك وأفعالك السيئة، وقد صرت هنا مبطوحا على الأتان
بسبب غلطة وحيدة، وهي أنني باركت لك الزواج بهذه العقرب.

قالها بصوت مرتفع، ولم تسكت زكية، بل فتحت فمها على مصراعيه،
وحركت لسانها القديم الجارح قائلة:

. أنتما الاثنان في طيزي، أنا هنا من أجل الصبي، أنا خادمته وعاشقته.

. نحن هنا جميعا من أجله، لكنك لست أمه على كل حال.

هتف سرحان بنزق:

. أنا هنا من أجل نفسي، أعيدوني إلى قريتي، إلى مطحني الحجري، وإلى بناتي
الأربع.

صاح الجاويش بثورة:

. اسكتوا جميعاً، لستم ذاهبين في نزهة، حتى تتشاجروا كما يحلو لكم، أنتم
وهذا الصبي الصغير متهمون بالسحر، وإذا ثبت ذلك فإن عقوبتكم الحرق
بالنار. هل تستطيعون الآن أن تتشاجروا؟ افعلوا ذلك إن استطعتم!

أخرستهم المفاجأة، ولطمت زكية وجهها بحزن، ومضت تقول بصوت مخنوق:
. إنما جئت بكم من خارج المدينة لكي تنصفوني من هذا الزوج الخائن وتلك
القحبة اليهودية.

. نحن نبحث عن طفل يحمل تميمة ذات سلسلة ذهبية تشبه تلك المعلقة في
عنق صغيرك، ولا ريب أنه الصبي المطلوب.

أخذ الطفل يردد ألواناً عديدة من النغاء:

. غاغغغغغغ، خاخخخخخ، ماممممممم، ناننننننن

ترجمها الكبير عون وترجمتها زكية على التوالي:

. غلط، خطر، موت، نار.

. غلط، خيانة، موت، نار.

سرحان لم يترجم شيئاً، كان يفكر في الحظ المشؤوم الذي أصابه.

(8)

كان الأمر الشريف قد بلغ الحطابين والخشابين في صنعاء، فقاموا بجمع أكبر عدد من سيقان شجر القرض والطلح، وعمد النجارون إلى صنع سقالة حديدية على جدار السور الملاصق لبوابة المدينة، وعززها الحدّادون ببكرة حديدية بحيث تربط بالسيور المتينة، وأسفل السقالة نصبت منصة حجرية تعلو الأرض بـمتر واحد، وضع عليها ركام من السيقان والجدوع الجافة حتى قارب علوها سطح السور، وأوشكت أن تلامس السقالة المعلقة في الهواء. هناك في الباحة الداخلية اجتمع حشد كبير من الفضوليين والسابلة، يشاهدون أضخم محرقة نصبت في المدينة، وصار المتجمهرون في الباحة يطلبون أن يروا أولئك السحرة المذنبين، ويسمعون خطاياهم على لسان قاضٍ من دار العدل أو ممثل عن الإمارة.

بعد قليل سمعوا صوت من المنادي في قلعة بيت بوس، يعلن عن اقتراب ما يسمون الغرماء، وشاع الخبر في المدينة، فتدفق المزيد من الناس إلى الباحة، واعتلت النساء والأطفال سطوح المنازل القريبة المطلة على المحرقة، وأقبل الأمير الأكبر المنصور والأميرات والأمراء والوزراء والجنود، وظهر ولي العهد الأمير المنتصر بالله محمد إلى يمينه، بأنفه الأفتس وقسمات وجهه المتجعدة المشحونة بالتجهم والخيلاء، بدا متقدما بخطوة على والده لفرط حميته وحقده، فأسرع الجنود وأخلوا مدخل البوابة من المتفرجين، واصطفوا على جانبيها، مشكلين خطين متوازيين، بحيث وقف الأمير المنتصر ووالده الأمير

قطع حديثه مفلتاً الورقة من يده، وجعل يغمض عينيه ويفتحهما بسرعة،
وتابع بفجاعة:

.لا أرى شيئاً أيها المبجل، ماذا يحدث؟

.لا تدعوها مفتوحة حتى لا نصاب بالعمى، ولينظر أحدكم ما جاء في الأخرى.

أسرع جندي وتناول الورقة وطواها كما كانت وأعادها إلى التميمة، وقاد بعض
الجنود صديقهم الأعشى بعيداً، بينما تقدم كاتب آخر بخطى بطيئة، يكسو
الخوف قسماات وجهه الممتقع، وفض الورقة الأخرى بأنامل مرتعشة، وقرأ
رسالة عوفان، ولم يصب بأذى حالما أنهاها، وأعاد الورقة إلى التميمة بفرح،
وقال الأمير بيقين:

.إنه هو، أعيديوا التميمة إلى عنقه لتحترق معه.

ثم أضاف سائلاً:

.أين الوالدان؟

ركعت زكية وأمسكت إزار الأمير وهي تنشج بمرارة، واقترب سرحان ووقع على
ركبتيه والدموع تترقرق من عينيه، لم يكن يعلم هل يبكي على نفسه أم
إشفاقاً على ولده، أبعده الجنود ذراعي زكية عن إزار سيدهم الفضفاض،
وخرج صوتها المتهدج:

.الرحمة، إنه طفل بريء مثل كل الأطفال، أتى له أن يعرف السحر والخداع؟

أشاح الأمير وجهه عن المرأة حتى لا يتأثر بحالها المنكسر، وسأل الأب:

.بِمَ تفسر الأشياء الغامضة التي تحدث؟ أليس هذا هو الساحر الصغير الذي
تحدثت عنه الوثائق القديمة؟

.أيها الأمير المبجل، لا أدري من أين جلبت والدته سلطنة هذه التميمة التي
يحملها، وما أعرفه هو أننا زرنا كثيراً من الأولياء، وانتظرنا طويلاً حتى رزقنا
به، ولا أظن حرق هذا الصبي سيغير شيئاً من أقدار الناس.

.اسمع أيها القروي، أنا لا أقتل أطفال رعاياي، ولست ضد أن يكون لك ولد،
وقد عاتبت ولدي الناصر على قسوته وأمرته أن يكف عن أعماله الشنيعة،
لكن ولدك هذا هو الطفل المنشود، وهو سيدمر أمتنا وأرضنا. وهذا موجود
في التميمة التي يحملها.

حدج سرحان المحرقة العظيمة وأشار إليها بأسي قائلاً:

. هذا كثير على طفل صغير، بوسع جمرة واحدة أن تحرقه وتزهق روحه،
فيموت موتاً رحيماً.

.لن يكون وحيداً، أنتم أيضاً ستحرقون معه، ينبغي أن نركن إلى عدم ولادة
شيطان آخر.

صاح الكبير عون مشيراً إلى نفسه:

.أيها الأمير، لا تربطني صلة بهذه العائلة، ذنبي الوحيد أنني كبير القرية التي
يقطنون فيها، وأرافقهم الآن.

.خذوهم إلى السقالة.

ما أسرع الجنود في تنفيذ أوامر الحرق، لاحظ الجميع كيف هرعوا إليهم ودفعوهم بقسوة إلى سقالة الحديد، وأداروا البكرة حتى ارتفعت بهم في الهواء، كان ذلك سيضفي عليهم بعض التسلية، لو لم يكن هناك أخشاب وعيدان تحت السقالة، صعد الأمير المنتصر حاملاً البيان الذي سيفسر للجمهور سبب إقدامهم على حرق هؤلاء الأشخاص، والأمر برمته سيكون طبيعياً لولا وجود طفل صغير بين المذنبين. واستفاض في شرح أخطار الساحر الصغير، وبدأ يقرأ على الحاضرين وثائق أسلافه القدماء، ورسائل مفسر الأحلام عوفان.

كانت الحشود الآدمية تزداد مع مرور الوقت، وحجبت السحب السوداء عن أجسادهم المتعرقة حرارة الشمس اللاهبة، لذلك انغمسوا في سماع ما سجل على تلك الأوراق الغريبة الغابرة، واستمتعوا كثيراً، وحدهم الأشخاص الذين كانوا يعرفون الحكاية شعروا بالضجر. كان الأمير الأكبر والأمراء يشعرون بما تنذر به السماء الملبدة بالغيوم السوداء، كان ذلك اليوم هو أول أيام بشائر نجم نيسان الذي تسقط فيه الأمطار، لكنهم لم يحبذوا أن يقاطعوا البيان أو يكسروا شوكة الأمير أمام الجموع المحتشدة، وعجبوا من أمره، لِمَ لا يلاحظ بنفسه كيف أصبح الجو منذراً مكفهاً واعداً بالمطر؟ رفع الناس رؤوسهم إلى السماء بقلق واضح، لِمَ لا يرفع الأمير المنتصر عينيه عن ورق البردي العتيق؟ لمع البرق قوياً، وأعقبه دوي الرعد عنيفاً يصم الأذان، في تلك اللحظة فقط رفع ولي العهد رأسه إلى السماء، ثم نزل من جانب المنصة مهرولاً، وأعطى الأمر السريع بالشروع بحرق سيقان الشجر.

اقترب الزياتون وسكبوا قنانيهم على السيقان، وأشعل أحدهم النار، فاشتعلت. كانت السقالة بمن فيها قد أزيحت ووقفت فوق ركام السيقان الضخمة المتبسة، وصعد دخان كثيف غمرها وأجزاء من السور وأخفاها عن الأنظار. وتصاعدت صرخات الركاب على السقالة، وبكى الصغير مردداً:
النغاء:

.ناننننننننننننننننننن

وهطل المطر خفيفاً، وخبث النار رويداً حتى انطفأت. ثم توقف المطر فجأة، وانقشع الدخان، فظهرت السقالة من جديد سليمة من أي ضرر. أشار الأمير المنتصر بغضب أن توقد النار ثانية. وتقدم الزياتون وسكبوا آخر قنانيهم في الخشب المبلل، وأشعلوا النار، فاشتعلت ثم انطفأت، وحاولوا مراراً دون جدوى، وتفرق الجمهور يائساً، وعاد الأمير الأكبر وفي داخله غضب جرار، أخذ يتحدث مغتماً حول ما حدث، الخطاب الطويل، المطر الخفيف المفاجئ، والخشب المبلل. كانت ابنته شوق قريبة منه، دائماً تكون إلى جانبه في مثل هذه الأوقات، حين لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه، ظلت تحتضن رأسه وتداعب لحيته بأناملها كما كانت تفعل في طفولتها، ثم أدنت رأسها من رأسه بحيث وضعت جبهتها على جبهته، ونظرت في عينيه وهي تقول بنبرات حادة:

.الغد قادم والطفل وعائلته في اليد، والأخشاب بمخازن الحطابين، والشعب يجتمع بإشارة من يدك.

في النهاية أمسكت بيده وقادته كطفل وهي تقول:

.هيا نزور الأسرى وننظر في أحوالهم كما يفعل الملوك.

ألبس الأمير وجهه حلة من الصرامة، ونزع كفه من يدها كما يليق بملك. كانت خلفه تضحك من حرنه واحباطه، ومن حين لآخر يرمقها شزرا ليرى تأثير أفعاله في وجهها، وعندما لاحظ أنها مازالت تضحك وتهزل، أمسك ذراعها صارخا بسخط:

.احترسوا أمير البلاد ليس ضعيفاً كما تظنون، لا تستخفوا به.

أجفلت الأميرة شوق، أحست أن والدها في ذلك المساء شخص آخر لا تعرفه، لذا وجب عليها أن تجاري أفعاله وتلتزم الحذر. هبطا سلالم القصر نحو غرفة الأسرى، حاول الجنود والحراس الشخصيين اللحاق به، لكنه حثم بإشارة من إصبعه أن يعودوا، كان الأمير الأكبر يتقدم سائرا بعزم، وهي تتبعه كطفلة صغيرة يحاول والدها الإفلات منها لأمر أكثر إلحاحا. كان الطابق الأرضي مضاء تملأه الحركة ويسمع منه صراخ أشخاص يُعذّبون، بدا حراس ولي العهد منتشرين في أرجائه ممسكين بنادقهم بتحفز كأنهم يتوقعون هجوما، كان لديهم أوامر قاسية من سيدهم المتغطرس بعدم السماح لأي شخص بالاقتراب من غرفة الأسرى حتى لو كان ذلك الشخص والده الأمير الأكبر، حاول أولئك الجنود أن يقفوا في طريقه، لكن نظراته النارية الغاضبة جمدتهم، ولم يجرؤوا على مواجهته وإيقافه، فهو الأمير الأكبر ذو الهيبة والوقار، لكنهم لم يحنوا عند مروره، كما استطاعت الأميرة شوق المرور متسلحة بمكانتها وسلطة والدها الذي تسير خلفه.

ظهر الأمير الأكبر من باب غرفة الأسرى، وراعه المشهد، كما أُخرست الأميرة شوق، وأسندت جسدها على جدار المدخل حتى لا تسقط أرضاً. كان الكبير عون وسرحان عراة معلقين من أذرعهم بسيور تتصل بالسقف، ودماؤهم تسح من أجسادهم، وتقطر على سجاد الغرفة. كان الجلاد يضربهما بالسوط، ولم يعد يصدر عنهما أي صوت وكأنهما ميتان، بينما كانت زكية محررة الجسد عارية يتناوب على اغتصابها ثلاثة جلادين، فيما ولي العهد يجلس متجهماً على مقعد خشبي، يراقب ما يجري، كانت قدماه تدوسان على جسد الطفل الصغير، وسمعه يصرخ بصوت حاد:

. انظر أيها اللعين، إننا نغتصب أمك ونسلخ جلد والدك وصاحبه بالسياط،

ماذا ستفعل لإنقاذهم؟ أين كراماتك وأسحارك؟

في تلك اللحظة صاح الأمير الأكبر على الجلادين:

.توقفوا حالاً.

توقف الجلادون على الفور، دون أن يرتسم على ملامحهم أي شعور بالخوف،

ثم نظر الأمير الأكبر إلى ولده وتابع باستنكار:

.أيها الأمير، ماذا تفعل في غرفة الأسرى؟

استقام الأمير المنتصر وواجه أبيه حتى احتك أنفاهما وأجاب بقحة:

.أنا أفعل ما لا تجرؤ أنت على فعله، ألقن السحرة ما يستحقون من عذاب.

.أنا والدك الأمير الأكبر أيها الجاحد، هلا شاورتني في ذلك؟

.بل أنت الأمير الضعيف، لا أدري كم سأنتظر لانتهاؤ أيامك العقيمة، الشعب يريد أميراً صنديداً.

.لست إنساناً، أنت وحش.

.اخرج الآن وإلا قذفت بك عارياً إلى الجلادين.

وأعقب أمرا الجلادين:

.لا تهتموا بهذا العجوز، هيا، تابعوا عملكم.

عاد الجلادون إلى عملهم السابق، وضغطت الأميرة شوق على ذراع أبيها لتنذره بعدم المكابرة قائلة باستسلام:

.دع الأمير يفعل ما يشاء، هيا إلى جناحك لتأخذ قسطاً من الراحة.

خرج الأمير الأكبر حانقا مسرعا في الممر، صعد السلالم بخفة أرنب حتى أن الأميرة شوق عجزت عن اللحاق به، وعجبت من قدرته على المشي السريع، وهو المتعثر الخطى دائماً لفرط سمنته وكبره، وفي مجلسه دعا كبير الحراس، وسأله:

.كم لديك من الحراس الآن؟

.مئة حارس تحت خدمتك أيها المبجل.

.ليكونوا على استعداد الآن في الممر.

ثم طلب أمين الخزانة وقال له:

. بحسب أمري امنح كل جندي من جنود ولي العهد عشرة ريالات، ابعث إليهم
بالنداء الآن، ووزع المكافأة قرب الخزانة.

.في خدمتك أيها المبجل.

في الممر القريب من غرفة الأمير الأكبر كان المئة حارس يقفون متأهبين
بأسلحتهم، بينما تسرب حراس الأمير المنتصر لاستلام مكافأتهم الدسمة، وفي
تلك اللحظة، هجم حراس الأمير الأكبر على ولده وجلاديه، واعتقلوا ووضعوا
مكبلين بالقيود في غرفة الأسرى، واستدعى الأمير الأكبر جلاديه وأمرهم أن
يذيقوا الأسرى الجدد صنوف العذاب، وسمعت الأميرة شوق صراخهم إلى
حجرتها، فهبطت لترى ما يجري، وهناك وجدت والدها جالسا على ذلك
المقعد الخشبي، يتفرج على الجلادين وهم يضربون ولي العهد وجلاديه. رأت
شقيقها عاريا يضرب بالسياط، والدماء تسيل من جسده، وهو يصرخ كامرأة
متعسرة الولادة، فاستغربت من سلوك والدها العجوز المتناقض، في البداية
رأت فيه نشاطاً وخفة لم تشاهدهما فيه من قبل، بدا لها وكأن روحاً أخرى
طيبة لرجل حكيم سكنت جسده، ثم سرعان ما تحول إلى رجل شرير منتقم
بمجرد أن حقق مراده.

هزته من كتفه كأنما تدفعه ليصحو من نومه، وهي تقول بارتباك:

.أيها الأمير، أنت تعجز عن السيطرة على نفسك وتتحول إلى وحش.

أجاب والدها بصوت مبحوح غريب:

.نعم، أنا أفعل ما يجب، لن أكون ضعيفاً.

سكتت الأميرة المدللة على مضض، لم تكن راضية عن سلوكه، لكنها لم تجرؤ على مواجهته وتحدي إرادته، هناك شيء غريب يحدث له، لا تعلم شيئاً مما يدور في رأسه، أصبح الطابق الأرضي للقصر الأميري سجنًا للتعذيب، ومشفى لعلاج جروح أعداء العائلة الأميرية، ما أغرب ما يحدث! في الغرفة المجاورة، لغرفة التعذيب، يرقد من يسمون السحرة، سجناء الأمس، كل أطباء المدينة أتوا لفحصهم ومداوتهم، لكنهم في كل الأحوال سيلاقون حتفهم في الغد.

غداً اليوم التالي، كانت المحرقة قد نصبت بموضعها الأول، لكن الزيادة فيها هو السقف الواقى من المطر، ألواح خشبية عريضة ظللت سيقان الخشب، جاءت الحشود البشرية واكتظت الباحت والأسطح، وصعد الأمير الأكبر بنفسه وقرأ بياناً مثيراً مفاجئاً، اتهم فيه نجله الأمير المنتصر وجلاديه بالتعذيب والاعتصام الوحشي، ومخالفة أوامر أمير البلاد وإغلاظ الرد عليه. وتلك تهم كبيرة، وكل تهمة تجازى بالموت، وصعق الجمهور، ولم يصدقوا حتى رأوا بعيونهم ولي العهد الأمير المنتصر وجلاديه يقادون ويوضعون على السقالة، كان الأمير يرفس ويقاوم ويشتم والده ويصرخ في وجوه الناس طالباً أن يحرروه، وأشار الأمير الأكبر بإصبعه، فاشتعلت النار، وأغمضت الأميرات أعينهن، وبكين. وعاد الناس إلى منازلهم وأعمالهم، تنتابهم مشاعر شتى، بين مؤيد ومعارض. وكل له حججه ومبرراته، فالأمير المنتصر كما يشاع كان قاسياً، يأخذ من تعجبه من النساء عنوة، ويصفع الرجال على وجوههم لإذلالهم، ويفرض إتاوات على التجار، ويفعل وأتباعه ما يحلو لهم دون أن يحاسبهم أحد، حتى الأمير الأكبر كان يخشاه، ويشاع أنه لم يكن يستطيع أن

يمرر قراراً لا يوافق عليه ولي العهد، أصبح هذا الحادث هو الموضوع الأهم الذي يتحدثون عنه في أرجاء البلاد.

وفي ذلك المساء، اجتمعت العائلة الأميرية بطلب تقدم به كل الأمراء والأميرات، وأتوا وهم لابسون السواد، وبوغتوا بالأمير الأكبر يبكي كطفل صغير، ويقول بحسرة:

. لا أعلم ما جرى لي؟ كان وقحاً طائشاً، وفي كل مرة كنت أصفح عن هفواته، لكن هذه المرة طفح الكيل.

أمسكت الأميرة خالدة بتلابيب والدها وهي تصرخ:

. أيها العجوز الخرفان، أنت تخاف من ظلك! كيف ملكت الجرأة لتضع أخي في المحرقة؟

قفزت الأميرة شوق ودفعت أختها بعيداً وهي تقول:

. ارفعي أناملك المتسخة عن أمير البلاد، ينبغي أن يكون هناك حدود فاصلة بين موقعه كأب وحاكم، وما حدث كان نتيجة متوقعة لغياب هذه الحدود.

قالت الأميرة نورة:

.والآن، هل سينجو الصغير ورفاقه؟

تكلم الأمير القاسم شقيق الأمير الأكبر:

.لننصب المحرقة في الغد، ونلقي فيها هؤلاء السحرة، لن نكون بأمان إن كانوا أحياء.

.نعم المحرقة للسحرة، سألقي أمري بإنشائها الآن.

رمقت الأميرة شوق والدها بنظرة دقيقة ذات معنى خاص يفهما هو حين يكون لها رأي آخر.

.ماذا لديك يا شوق؟

.تمهلوا، لا تجعلوا منهم أبطالاً في المحرقة، وأظنها ستخيب كالمرة السابقة، لأن أسحارهم تطفئ النيران، سوف نحاربهم بنفس الأدوات التي يحاربون بها.

.كيف يا شوق؟

.دعوني أحاربهم بالسحر حروب النساء الماكرات التي ترونها الجدات للأطفال.

انبلجت أسارير المجتمعين، وقاموا من مقاعدهم وهم يؤمنون بقدرتها على محاربة السحرة، فهي امرأة هادئة وخبيثة، وتهتم لأمر هذا الصبي أكثر من الجميع، وقد قرأت وثائق المتوكل عباس منذ وقت مبكر من عمرها، وكانت تحسب الشهور والأيام واستطاعت أن تحدد زمن قدومه، وقد صارت تتزود بالتفاصيل من فريق البحث أولاً بأول، فيما لا أحد غيرها من الأمراء يملك الحماس والاهتمام لمتابعة هذا الأمر.

عملت الأميرة شوق بسرعة، فأرسلت الرسائل المختومة بالختم والتوقيع الأميري إلى كل لواء وقضاء وناحية، بأن يُجلب كل ساحر خطير إلى صنعاء، وارتفع الصوت من رؤوس القلاع والقمم العالية في كل منطقة إلى أرجاء البلاد الممتدة من حدود نجران إلى تهامة. فأقبل المئات، رجال رثو الثياب، يطوون

كتبهم وأوراقهم البالية خفية تحت أباطهم، داخل حقائب من الكتان الرمادي مربوطة إلى أعناقهم بواسطة سيور مطاطية، أو يخفونها داخل أمساب جلدية ومخالٍ جمعوا فيها طعامهم، إضافة إلى مآزر غليظة مهلهلة من ملابسهم تحسباً لرحلة طويلة يقضون فيها جزءاً من الشتاء في السجن أو في أي مكان من تلك المناطق الباردة.

كانوا خائفين من المحرقة التي تنال من أجساد التعساء منهم، أولئك الذين لا يرضى عنهم العمال أو القضاة، لاسيما (البيدات) اللواتي يحولن الناس إلى حيوانات أليفة، ولم تطب نفوسهم حتى سلمت إلى أيديهم نفقات السفر ورسائل الأميرة شوق، واطمأنت قلوبهم أكثر حين طلب منهم أن يحصنوا القصور الأميرية وأهلها بالتمائم والتعاوين والدوائر السحرية، فحصنوها بالرموز والأشكال والطلاسم الغريبة، ثم تلوا عليها الابتهالات والتهتافات الجالبة للحظ الحسن، وأظهر كل رجل منهم أعظم ما لديه ليكسب ود الأميرة الشابة الكريمة العطاء، حاولوا أن يهروها بمهاراتهم في فن السحر، فجعلوا يمشون على الجدران المرتفعة للقصور، ويخرجون النيران والأدخنة من أنوفهم وأفواههم وأذانهم، وأعظم عمل قاموا به هو القبض على شعيب حفيد عوفان بواسطة التعاوين، إذ لحقوا به ومجموعة من الجنود على ظهور الأحصنة الخفيفة، وأمسكوا به متخفياً في منطقة بعيدة عن حدود لواء زمار، وبالكاد أمسكوا به بعد مواجهة حامية بالتعاوين القاصمة، ولولا أن الرعاة رأوه في إحدى المغارات كان سيفلت من أيدي الأمراء. وجاء الجنود يجرجرنه كمتنرد كبير، بدا واضحاً من مشيته المضطربة ونظراته الزائغة، أنه

لا يرغب في المشاركة في تلك الطقوس السحرية، وقف أمام الأميرة شوق متذبذباً في مجلس فسيح فخم فقالت دون تكتم:

.أنت هنا من أجل الساحر الصغير.

أجفل وسألها متلفتاً حوله:

.أين هو؟ هل مازال في المدينة؟

.نعم، إنه في الأسفل، في حجرة صغيرة وعائلته، يمكنك أن تشاهده إن أردت.

.كلا، لا أود رؤيته، أريد الخروج من هنا، أعيدوني إلى السجن، ماذا تريدون مني؟

.أريد منك أن تبطل تأثير التميمة التي يحملها هذا الصبي، لقد خان جدك عوفان العهد، وبعث إليه تميمة الحظ الحسن على ما يبدو. وأنت نفسك اعترفت، ورويت ذلك للسجناء لتفوز بالمال.

انكب على قدميها يقبلهما، وهو يقول منتحياً:

.أتوسل إليك أيتها الأميرة، أعفيني من هذا الأمر، لست أهلاً له، ليس سهلاً القيام بهذا، لست بمهارة عوفان. أنا مجرد مفسر أحلام صغير.

.أنت ساحر خطير، وقد جمدت الجنود بالتعويدة، واختفيت من أمام أنظار السحرة، وبالكاد قبضوا عليك.

.أرجوك أيتها المبجلة، لا ترغميني على ذلك، سأخالف وصايا أجدادي...

.اسمع يا هذا، إن لم تقم بذلك ستنصب لك المحرقة الآن.

. أنتم تلعبون بالنار، تظنون الأمر يسيراً، جمع وتفريق الشياطين مجازفة لها عواقب مدمرة، تبال لك يا عوفان.

. هيا، أصلح ما أفسده جدك، ها قد أحطنا القصر بالدوائر السحرية والتعاويد، ولن تقربنا الشياطين.

قال شعيب لنفسه: "هكذا إذن، لا يكثرثون إلا بأنفسهم ولا يهتمهم ما سيصيب أهالي المدينة! وأنت يا شعيب كذلك مجرد تهامي رخيص".

. دعيني أتفاوض مع السحرة حول هذا الأمر، بوسعك أن تستشيرهم في هذا الشأن الخطير.

. كلا، ستفعل هذا منفرداً أو نضعك وعائلتك في المحرقة.

أغمض عينيه، وعب الهواء إلى رثتيه، ونظر جانباً ثم قال بأسى:

. لقد حذرتكم، هاتوا الكتب الستة الخطيرة من خزانة داري.

وجلبت إليه الكتب الستة من تهامة بعد أيام، فنفض عنها غبار قرون من النسيان، وطلب أن تحجز له غرفة خاصة وسط القصر الأميري ليمارس طقوسه السحرية، كان على يقين أنه ليس بمهارة جده عوفان، وأن بوسعه أن يجمع الشياطين، لكنه لا يستطيع تفريقهم إلى أوطانهم، لم يكن لديه حماس للقيام بهذا العمل، لكن حب الإنسان للحياة يدفعه للتشبث بقشة الأمل، لاسيما إن لم يكن لديه خيار آخر.

في البداية، وقبل أن يفتح كتاب شمس المعارف الكبرى، قرأ شروط وأدبيات قراءة هذا الكتاب، ووجد هذه القواعد في وريقات صغير ملحقة لاصقة

بالغلاف الخارجي، وهي بخط جده عوفان نفسه، لكن في نهاية هذا المخطوط قرأ تحذيراً بعدم المجازفة بقراءته دون علم بعواقبه، فلا يقوم به سوى الراسخون في علوم السحر، وهؤلاء قلائل جداً، ويكون على الجامع للشياطين أن يقرأ من أول صفحة إلى آخر صفحة، فتقترب منه الشياطين بأشكال مختلفة، حتى تضيع الكلمات والرموز من أمامه إن كان مرتبكا، وعملية جمعهم أسهل من عملية تفريقهم، وتكون الخبرة والثقة والحظ عناصر ضرورية ينبغي أن تتوفر عند المُفْرِقِ، ومن أجل تفريق وإعادة الشياطين إلى أوطانهم ينبغي أن يعاد قراءة الكتاب من آخر صفحة إلى أول صفحة، وعلى الشخص العازم على الجمع والتفريق ألا يجازف بالقراءة إذا كان متردداً أو مكرهاً، لأن موته ليس نهاية المطاف، فالكارثة العظيمة سوف تصيب المحيطين به، وتحل بالمساكن والبشر والحيوانات، وينصح صاحب المخطوط بالابتعاد إلى أرض شاسعة جرداء منقطعة، لا يسكنها بشر أو حيوان أو نبات.

صاح شعيب نائحاً:

"ماذا تريد يا عوفان؟ هيهات أن أموت وينجو الحمقى، لقد حذرتهم".

وهفت نفسه إلى البقاء، وتغذى ببعض التفاؤل، فأكل أكبر قدر من الطعام الشهي، وعب قنينة من النبيذ الأبيض، عالي الجودة، ونظر إلى السماء من نافذة غرفته الرائعة المنتقاة، وتشبع بالنظر إلى الأفق كأنه يودع الحياة، ودخل الحمام واغتسل فأحس بالانتعاش، وأطلق ضحكة مجنونة وصاح بصوت عارم: "سحقاً للحياة".

ثم فتح الكتاب ومضى يقرأ.

كانت زكية ورفاقها محشورين داخل القصور الأميرية إلى جانب عدد كبير من السحرة، وجدوا أنفسهم تحت الإقامة الجبرية، يحف بهم مئات من الدراويش والأشخاص غريبو الأشكال والأعمار، ظنوا في البداية أن هؤلاء السحرة مثلهم أسرى معرضون لخطر المحرقة، البلاد تغض بهذا الصنف من الناس، ولا تخلو قرية من رجل يعرف التعاويذ والسحر، لا ريب أن السجون امتلأت منهم، وربما جميع أفنية المنازل والقصور في صنعاء.

سمعت زكية في اليوم الأول عن وجود أمهر سحرة في قضاء يريم، خبيزان، الشيخ الزغرور، نور الدين، الفقيه الأغبر، أسناف، العوبلي، أبو فاطمة، وقاسم الوضري، وهذا الأخير هو أخطر الجميع. ذهبت إليهم في مرات متفرقة ولأسباب تتعلق بأمها، كانت صغيرة يوم ذاك، وتذكرت صور البعض منهم. كانوا يبتعدون عنها كأنها وباء لاسيما إذا كان الصغير في حجرها، فكرت في إن زواجها من سرحان قد أفقدها كثيراً من جمالها وطراوتها، ولا تلبث أن تعود إليه لتُسمعه أبشع الألفاظ.

كان الطفل في تلك الفترة يزعجهم ببكائه، ولا يدع لهم فسحة للنوم أو الراحة، أصبح مهتاجاً بعد مجيء السحرة، وما خلا ذلك كان كل شيء على ما يرام. الحليب متوفر وكذلك الطعام، وجروحه التي حفرتها قدمي ولي العهد في رأسه اندملت، وأصبح يناغي على الدوام:

.خاخخخخخخخخ

أصبحت كلمة خيانة منطبعة في رأس زكية، والخطر لم يعد في ذهنها وارداً، لقد باتت المعاملة حسنة، ولو أن سحابة من الغموض تحلق في الجو، تلمسها أحياناً في عيون الجنود والأمراء والأميرات، أو حتى في وجوه السحرة الكالحة المخيفة.

لم يعد هناك ما يشغلها إلا هياج الطفل وغياب سرحان والكبير عون المتكرر، باتت تلمحهما يتجهان ناحية قصور الأميرات العازبات والمطلقات. فلا تكثر في أغلب الأوقات، إذ باتت تنسى نوع العلاقة التي تربطها وسرحان، كانا منفصلين في الواقع، ولا تظن أنهما سيلتقيان على فراش واحد لاحقاً، لقد محق الصغير جميع رغباتها، وما عاد هناك فائض حنان لشخص سواه، رغم ذلك ما زال سرحان يحمل صفة الزوج، وقد اقتنع بما أخذه من زكية من قبل، ولا يريد منها شيئاً سوى أن تدعه وشأنه، أصبح الآن كطائر يحلق في كل سماء، ويحط على أي أرض تروق له، وعلى كل شجرة يشتهمها، أصبح والكبير عون ككلبين ضالين يمشطان فناء قصور الأميرات في المساء، ولا أحد يعترض طريقهما، صارا أشعثين مخيفين مثل كل السحرة وال دراويش الذين يغص بهم المكان، وليس لهما من عمل غير إغواء الجواري والخادמות ومعاشرتهن في الغرف الجانبية داخل الفناء، وصارا يطمعان بالمزيد، ويتطلعان إلى نساء القصور.

فتنتهما أجساد الأميرات العاريات اللواتي يظهرن في غرف نومهن الوثيرة، وأرهقا إلى درجة كبيرة، لاحظا أن هناك أشخاصا يدخلون ويخرجون إلى قصور الأميرات للخدمة، فرغبا في العمل هناك، وتقدما بالطلب إلى كبير الخدم، فأخبرهما عن الحاجة إلى خادمين مخلصين يقدمان الشراب للأميرات

الثلاث شوق وخالدة ونورة، ولكن قبل ذلك ينبغي أن يمرا على غرفة الفحص الجسدي، وعلى القاطع. ظن سرحان والكبير عون أن الخوف من الأمراض المعدية أمر مشروع، وفكرا أن القاطع هو الرجل الذي سيفحصهما أو هو شخص آخر يقوم بتلقيح العاملين الجدد آداب الخدمة في القصور، ثم يسمح لهما بالعبور، ومثل هذه الأسماء منتشرة بكثرة في أرجاء البلاد بحيث تتجرد من صفاتها، وبالوسع العثور على هذه الأسماء المجردة في ألقاب بعض العائلات المرموقة مثل الفاتك، الذابح، الباتر، لهذا لم يحمل لهما لفظ القاطع أي نذير بالخطر أو الشؤم، ومن ثم دخلا عاريين مطمئنين على رجل أسود في غرفة جانبية، جعل يدور ويحدق بلا حياء في العضو والدبر، ثم تحولوا إلى حمام شعبي حار، كانت هناك أحواض ممتلئة بالماء الساخن وأخرى باردة، ورغم ذلك لم يُسمح لهما بالاستحمام، فهو آخر عمل سيقومان به، دخلت عليهما بغتة امرأة عارية بيضاء نضرة، كأنها إحدى الحوريات التي تصفها الكتب المقدسة، اقتربت من الرجلين، وجعلت تمسح جسديهما، كل على حدة، وكان طبيعياً أن يثارا، لاسيما حين لامست بأناملها الرقيقة عضويهما، ثم قالت بصوت عذب:

.رائحتكما نتنة، لن تخرجا في القصر حتى تزولا.

وتمنيا أن يقضيا اليوم كله هناك، ولكن تلك الحورية حولتهما إلى غرفة أخرى، ونظرت إلى سرحان وعضوه المشربب مضيضة بحسرة:

.اذهبا إلى القاطع.

بدا من نبراتها إن القاطع هو اسم أو لقب أحد العاملين المميزين، لا يعرفان نوع العمل الذي يقوم به، سارا في ممر طويل بارد، ثم انحرفا يميناً صوب غرفة وحيدة، وهناك استقبلهما خدم غلاظ الأجساد كالمصارعين الرومانيين، وأوشك سرحان والكبير عون أن يخجلا، لكن أولئك الرجال كانوا مثلهما عرايا، والفارق الوحيد هو أن أعضاؤهم التناسلية مفقودة، اختلسا النظر ثانية بخجل، لكن لم يجدا أي أثر لها تحت عاناتهم المشعرة التي بدت أشبه ما تكون بفروج النساء، شعرا بعجب شديد من مظهر الرجال بشواربهم العريضة ولحاهم المنفوشة وعضلات صدورهم المفتولة، بينما غابت الأعضاء التي تدل على ذكورتهم.

خاطبهم سرحان قائلاً:

أيكم المدعو القاطع.

ظلوا صامتين كأنهم لا يفهمون لغته، ما لبثوا أن دفعوهما من منكبهما إلى حاجز خشبي عريض، عليه فجوات كثيرة متفاوتة على هيئة إنسان، بحيث يلتصق كل شخص على نموذج مطابق لجسده، ولما عثر الرجلان على نموذجيهما المطابقين على الحاجز، نظرا إلى بعضهما البعض، وهما يضحكان من غرابة هذا الوضع الغامض، وفجأة انفتحت على الحاجز فتحتان إحداهما مقابل الوجه والأخرى مقابل العضو التناسلي، وظهرت غرفة خلف الحاجز، ونساء عاريات يعرضن مفاتهن ويتحركن بإثارة، خيل إليهما أنهما يعيشان وسط حكاية شعبية سمعاها قديماً عن جنيات عاريات يعشن في مدينة عائمة فوق المياه، يخطفن الأطفال المتمردين على أمهاتهم، ويرضعنهم

من أكساستهن ويتخذنهم عبيداً بعد أن يقطعن أعضاءهم التناسلية كي لا يلحقوهن بالنطف البشرية، خطرت القصة في رأسهما في آن واحد، ونظر كل منهما إلى الآخر ووجهيهما يشعان بالفرح ويلمعان بالرغبة، قرأ كلاهما في عيني صاحبه: انظر ما ينتظرنا في القصور. بدا كل شيء مبشراً، حيث تقدمت شابتان وجعلتا تداعبان العضوين النائمين، فانتصبا أشد انتصاب، وتقدمت أخرى من تلك التي تعبت بعضو سرحان وقالت بغنج ودلال:

.دعي هذا لي، لقد أجريت معه الفحص الجسدي.

وتأوهت بحسرة وهي تمسك عضوه، تأملها، كانت الحورية السابقة، تمنى أن تجذبه إلى الداخل. كان مسحوراً ممغنطاً إلى الحاجز، يكاد يخرقه بجسده المندفع الثائر، لكنها نظرت إليه بحزن، ورفعت حاجبها الرقيقين علامة اليأس واللاجدوى، ثم سحبت أناملها، وحركت شيئاً على الحاجز، وسمع سرحان صوت طقطقة واضحة، وقال لنفسه: ما هذا الصوت؟ وقالت الحورية بصوت رقيق:

.أغمض عينيكما، وستجدان نفسيكما في الداخل سريعاً، سوف تصرخان وتشعران بقليل من الألم، ثم ينتهي كل شيء بهدوء، وفي الغد تذهبان للخدمة داخل القصور.

أغمضا عينيهما بينما ظلت الأنامل الرقيقة تجس عضويهما المشدودين، سرت في جسديهما حالة خدر واسترخاء وهما يتخيلان ما يجري، وفجأة انبثقت امرأة سوداء ضخمة من مكان ما، وشدت مقبضاً أو شيئاً ما على الحاجز مقابل الكبير عون، فصرخ بشدة، ومن ثم انفتح له الحاجز، ووقع مغشياً

عليه وسط النساء العاريات، كانت نفس سرحان تتوق إلى الدخول السريع، لكن حين سمع صرخة رفيقه فتح جفني عينيه بسرعة، رآه بالداخل منبطحاً على بطنه بلا حراك، لاحظ أيضاً أن سائلاً أحمر يتجمع قرب جذعه الضامر، ثم لمح عضواً ذابلاً في كف إحدى العاريات كانت ترفعه في الهواء وهي تضحك، اقتربت المرأة السوداء من الحاجز المقابل له، فنظر في وجه الحورية التي تمسك عضوه، وقرأ الخطر جلياً في نظراتها الكسيرة الهلعة، وأسرعت المرأة الغليظة لتجذب المقبض، فقفز سرحان للوراء، وفر صوب الباب المفتوح، لكن الرجال الضخام أمسكوه بسواعدهم الغليظة والقوية. كان خائفاً يرتجف كقط ضبط في حانوت جزار، وبالكاد استطاع أن يقول متوسلاً:

.ابتروا عضواً آخر غيره.

.....

ظلوا صامتين كأنهم لا يسمعون، أو لا يفهمون، رفع أحدهم خنجراً إلى سواء عينيه ليتأكد من مضاء شفرته، وجذب العضو بواسطة أنامله الخشنة كما يجذب الورل رأس دجاجة ميتة، ثم نظر إلى رفاقه كأنه يطلب الإذن منهم، فهزوا رؤوسهم موافقين، فجأة ارتجت الأرض من تحت أقدامهم بقوة، ومادوا ثم سقطوا جميعاً أرضاً، وعلا صراخ النساء من الداخل، وسمعوا صراخاً في الخارج. في تلك الأثناء، ركض سرحان هارباً وسط الممر الطويل، حتى خرج إلى الهواء الطلق عارياً.

كان الأمراء والأميرات والجنود والخدم والجواري وسط الفناء ينظرون إلى نيران تشب وسط غرفة في أحد القصور الأميرية، كان الدخان كثيفا يغطي القصر على شكل سحابة معتمة سوداء، وبين لحظة وأخرى تتزلزل الأرض، وتطيح بهم، ومع ذلك وقفت الحشود المذهولة صامته حائرة، ثم انفجروا يتحدثون دفعة واحدة، مصدرين ضوضاء جماعية كبيرة، انبثقت ألفاظ كثيرة وتكهينات مختلفة، لتفسير ما يجري، وترددت بين تلك الثرات المختلطة بضع كلمات، زلزال، حريق، شعيب، السحرة، والتعاويد، ولم يصمتوا حتى قرع الجنود الطبول، فساد صمت ثقيل حتى لم يعد يسمع منهم سوى أصوات شهيقيهم وزفيرهم، وخفقان قلوبهم الراجفة، جزمت الأميرة شوق وقالت:

.النار تشب من غرفة شعيب. أنقذوا شعيباً.

ارتفع على إثره صوت الأمير الأكبر:

.أطفئوا النيران وأخلوا القصر ممن فيه، ماذا تنتظرون؟

أتى الجواب من شخص مجهول من وسط ذلك الزحام الهائل:

.الباب مغلق والنار لا تبارح تلك الغرفة.

جاء صوت من الموضع الذي يتجمع فيه السحرة:

.إنها نار سحرية، هناك ساحر يعبث في الداخل، يريد أن يخدعنا.

غضب السحرة وثار أعضابهم، وشعروا بالمهانة، وقرروا أن يفعلوا شيئاً ليجبروا ذلك الساحر على التوقف، فقرأوا تعاويذهم، وقذفوا من أفواههم آلاف الجالونات من الماء على النار، لكنها لم تنطفئ، فعرفوا بحسب خبرتهم

أن النار ليس من صنع الساحر، وقام أحدهم وقرأ تعويذة التسلق على الجدران، ثم سار على الجدار، ولما اقترب من النافذة، نُفِثت النار على جسده، وسقط إلى الأرض متفحماً، وهنا فقط عوى السحرة ولطموا وجوههم حذراً على أنفسهم، وأدركوا إن الأمر أكبر مما يظنون، وليس بمستطاع ساحر أن ينفث ناراً حقيقية، ودخلوا في جدال شديد حول ما يجري، ولم يصمتوا حتى قرعت الطبول ثانية، في تلك اللحظة أشار الأمير الأكبر إلى النافذة، فالتفتوا إليها، وهناك لاح شعيب وفي يده كتاب أصفر اللون، وظهر عنوانه بخط غريب مكسر متداخل الحروف، حتى صار من الصعب عليهم قراءته رغم سماكة الحروف، شيخ واحد من السحرة قصير أشعث قدر الثياب وجد الجواب على كل ما يحيرهم، فقال باضطراب مستغلاً صمتهم:

. أقسم أنني أعرف هذا الكتاب، لا يوجد منه سوى نسخ قلائل في الأرض، ومعظمها اندثر.

قاطعوه صارخين:

. ما هو أيها الشيخ القرفان؟ الكرة النارية، الدخان والنار، التنين السحري، أي كتاب تقصد؟ السحر الأسود؟

. عدوني أن تساعدوني على الخروج من المدينة، فأنا رجل طاعن في السن، لم أر عائلتي منذ زمن.

. نعدك بشرفنا وبكل غالٍ وعظيم في قلوبنا وأرواحنا.

. هذا الرجل المجنون يقرأ في شمس المعارف الكبرى بنسخته الشاملة الأصلية،
ارتجاج الأرض يعني أن الشياطين الأرضية أخذت تخرج.

. أنت تهذي، هذا غير معقول، هذا مُحال.

. هيا اقرءوا تعويذة كشف الأرواح الخفية، إنها معقدة بعض الشيء، لكن
ينبغي أن تُقرأ.

تطوع بعض السحرة الكبار كقاسم الوضري، وقرأوا التعويذة، وحين ذلك
رأوا الشياطين، بأشكال رهيبة فوق جبال المدينة وفوق سطوح المباني،
والآلاف يحومون حول أفنية القصور الأميرية وفوق سماء المدينة، لا يحصون
لكثرتهم، يخفقون أجنحتهم كالطيور العملاقة، فأجفل قرءاء التعويذة، وعرف
بقية السحرة أن الشيخ على صواب. وأن الشياطين صارت تتجمع وينبغي
تفريقها إلى أوطانها، ومن المحتمل أن يخفق الرجل في تفريقها، فقليلون جداً
يستطيعون عمل ذلك، ولا يعلم أحد كيف تكون العواقب. عند ذلك أخذوا
الرجل الطاعن في السن، وهربوا باتجاه باب القصر، لكنهم وجدوه مغلقاً
والمئات من الجنود يقطعون طريقهم مصوبين البنادق إلى صدورهم، توصل
السحرة وجربوا صنوفاً عديدة من دغدغة المشاعر: "أيها الجنود، أنتم دائماً
وقود الأمراء، تحترقون في الحروب لكي تضيئوا دروبهم، وأنتم الجسور والمطايا
التي تنقلهم إلى غاياتهم، وماذا تحصلون في المقابل؟ لا شيء، علاوة على ذلك
يخصونكم كالبهائم خوفاً على نساءهم الشبقات المبتذلات، بينما هم
يستكثرون من النساء والمحظيات ويتنقلون بين الفروج والأرداف كالنحل فوق
الأزهار، أليس هذا صحيحاً؟ لِمَ تنظروا إلينا هكذا بلا مبالاة يا أبلد الناس؟

أتظنون أن بنادقكم الصدئة ترعبنا؟ بوسع أحدنا أن يحولها في أيديكم إلى ثعابين قاتلة تلدغكم في مؤخراتكم، بمقدورنا أن نحولكم إلى تماثيل من الطين أو الحجر، لكن ليس هذا هو الوقت المناسب لفعل ذلك، هناك خطر محقق قريب، وأي تقاعس في الهروب يعني الهلاك أو الجنون، أنتم أيضاً وكل شخص هنا معرضون للخطر، هيا انجوا بأنفسكم قبل أن تتفرق الشياطين وتغزو أجسادكم كما تغزو الحى الجسد."

ظهرت الأميرة شوق فجأة وصاحت في وجوه السحرة:

. لا جدوى من تحريض الجنود، لِمَ لا تنهون مهامكم؟

نظروا إليها بغضب وأجاب الشيخ المسن:

. هناك ساحر في تلك الغرفة يجمع الشياطين، المدينة معرضة لاجتياح هذه الكائنات الخفية، إنها على كل شبر في المدينة متأهبة للهجوم، لم نتفق على قراءة الكتب الخطيرة.

ضحكت الأميرة شوق وأجابت باستخفاف:

. الشياطين؟ شعيب يجمع الشياطين! أين هي؟ أنا لا أرى شيئاً.

. الوقت يمر وحين يصل شعيب إلى مرحلة التفريق وتضيع منه الرموز يكون كل شيء قد انتهى.

كانوا غاضبين لأن هذا الأمر تم من وراء ظهورهم، وأفصحوا للأميرة عن احتجاجهم، ووصموها بالخداع، ومع ذلك ظلت واقفة في طريقهم، وصارت تجادل في أشياء لا تفقه عنها شيئاً، لم تقبل من السحرة التهم التي يكيلونها

لها، واعترفت أنها طلبت من شعيب أن يصحح الخطأ الذي قام به جده عوفان ويبطل تميمة الصبي، أمرته أن يفعل ذلك وحسب، وأفصحت أنها لا تستطيع أن تسمح لأحد بمغادرة القصر حتى ينتهي شعيب من مهمته، وأنهم لن يغادروا كذلك حتى يتأكدوا من قيام شعيب بواجبه على أكمل وجه، ولا شأن لها بالطريقة التي يتبعها للوصول إلى غايته، أمرت الجنود بحشو بنادقهم بالبارود وإطلاق النار في حال هجم السحرة، أو مارسوا أي من حيلهم السحرية، فالبارود لا يُقهر، لأنه رسول الموت، وصاح السحرة وزادت وجوههم تجهماً واكفهراراً، وأخذوا يتناقشون، وقفوا جامدين بأماكنهم، لا يجرؤون على التقدم خطوة واحدة نحو البوابة، أو التراجع نحو القصر الملتهب. كان الخطر يحف بهم من كل جانب، وفي خضم حيرتهم وسخطهم، انتبهوا إلى وجود شخص عارٍ بينهم، فنفخ أحدهم في عضوه نفخة سحرية، وخاطبه بنزق:

اذهب يا هذا لتستر جسدك، لم يعد هناك أمل في الخروج.

كان ذلك الرجل هو سرحان، انتبه الآن إلى عريه، فأحس بالخجل وبشيء يتحرك بين فخذه، رأى عضوه على صورة أفعى، فصاح بفرع وظل يتلوى في مكانه ويدور حول جسده مرعوباً.

أرجوكم أعيديوا عضوي، أنا أكره الثعابين.

بمجرد أن ترتدي ملابسك يعود كما كان.

راح يعدو باتجاه غرفته وسط ضحكات السحرة، أخذ ينبش في مخلاته، وهو يتوقع أن يلدغ في فخذه، حتى وجد مئزره القدر الذي جاء به من القرية ولم يخلعه منذ ذلك الحين، وهو مضطر أن يلبسه لأنه لا يملك غيره، لذا ستر به

وأوضحت للجميع أنها صامدة قريهم، وأي شيء سيجري سوف يصيب الجميع، لكنهم أصرروا على خروج الرجل العجوز وقالوا بصوت ضارع:

.نحن باقون هنا، وقد قطعنا وعداً لهذا الشيخ أن يغادر، ولن نحقق أمانيك ما لم تسمحي له بالمغادرة.

تفكرت قليلاً وقالت بضيق:

.الرجل العجوز فقط.

في تلك اللحظات لم يتوقف سرحان، بل واصل سعيه للخروج متعللاً بالطفل، لن يجرؤوا على إطلاق النار، تقدم خطوة متجاوزاً الخط المرسوم الذي لا ينبغي تجاوزه، وسمع صوت التحذير:

.قف أيها المعتوه، أين تظن نفسك ذاهباً؟

وأطلق جندي البارود، فخرق البارود إزاره وأحرق فخذيته، وتلوى سرحان الماءً، وجثا على ركبتيه ومضى يتحسس فرجه ويقول:

.عضوي المسكين ماذا جنيت حتى تشوى وتحترق بالبارود؟

تبسمت الأميرة شوق لأول مرة، وتفرست في وجهه وقالت:

.هل أعرفك يا هذا؟ أين رأيتك؟

أراد أن يجيب بالموافقة، لكن الألم عصر جسده، وأرغمه أن يرد:

.لا أظن ذلك، الآن ترينني للمرة الأولى.

.لا يهم، ماذا تريد الآن؟

.أود أن ألقى نظرة على عضوي.

غضبت وقالت بنزق:

.لا تتحدث أمامي عن عضوك التافه، الأعضاء التناسلية أقدر ما خلق الله.

عصره الألم، كان يود أن يقول لها إنها ثمرة تفاعل واتصال بين عضوي والديها، وكل البشر كذلك والكائنات الحية، هز رأسه موافقاً وملامحه تتقلص وتتضرج، وطفرت الدموع إلى عينيه.

.هل تتألم كثيراً؟

.نعم، لقد احترق الجزء القدر من جسدي، ولم أعد أشعر بوجوده.

.هذا أحسن، أنت الآن رجل حر كامل النقاء.

أراد أن يحتج فأفحمه الألم، عض شفته السفلى، وانشغل بمواجهة الوجع الرهيب، كانت مسرورة ممتنة، أضافت:

.أرى أن ترحل وهذا الشيخ الطاعن؟

حدج ملامحها بارتياب كبير، لم يصدق حتى فتح الجنود لهما طريقاً إلى البوابة المغلقة، رأى الشيخ يمر دون أن يعترض طريقه أحد، فمضى يمشي ببطء كعجوز أخرق مباعداً بين ساقيه، سمعها تهتف:

.هيه، الطفل، يالك من أب لا يعول عليه.

لم يكن يرغب في الرجوع، مد ذراعه متوسلاً، فتطوع أحد السحرة وناوله الطفل، وبمجرد أن أخذه وقطع بضع خطوات حتى دوى عيار ناري، ولمح

الساحر جاثياً يتلوى أماً، هل استهوى الجنود إحراق أعضاء الآخرين
وحرمانهم مما حرموا منه! أخذ صغيره من حجر الساحر الجريح ومضى.
سار والشيخ نحو البوابة يسند كل منهما الآخر كعجوزين توأمين، فجأة جاء
صوت الأميرة الأمر:

.توقفا، لا ينبغي خروج الطفل، إنه يحمل تميمة في عنقه، أليس كذلك؟

شد الطفل إلى صدره، متشبثاً به، وأوصدت البوابة عليهما، فتقدم الشيخ
وأمسك الطفل، ونظر إلى الأب باطمئنان، وقال غامزاً بمكر:
.ثق بي، أرجوك.

ارتخى ذراعاً سرحان بحزن وارتياب، وناوله الطفل بكفين مرتعشين، رآه خلسة
ينزع التميمة عن عنقه، متمتماً بكلام غير مفهوم، ثم سلّمه بدوره لأحد
الجنود، ثم قفل عائداً حاملاً الخرق واستدرك:
.لا تلتفت إلى الوراء، هيا بنا نغادر بسرعة.

خرجا من البوابة فانغلقت وراءهما، وحين ذلك أمسك سرحان الخرق بغضب
وأراد أن يرميها، فمنعه الشيخ قائلاً:
.احترس، لا تقذف طفلك.

كان الطفل بين يديه يناغي ويحرك يديه وقدميه، فنظر إلى الشيخ بخوف
وامتنان، بدأ القلق ينخر نفسه وظهر جلياً على وجهه، وسمع رفيقه يجيب
بدهاء:

.اطمئن، إنها في حوزتي، لم تعمل التعويذة وهي في عنقه، هذا غريب.

ظل الشيخ لبرهة يهز رأسه متعجباً ثم أضاف:

.هل صنعها أحد السحرة؟

رد سرحان بارتباك:

.لا أدري، أصبحت أكره الحديث عن الصبي والتميمة، هناك أشياء كثيرة غامضة تصيبني بالصداع حين أفكر فيها.

وعبرا إلى شارع طويل يؤدي إلى بوابة المدينة، التهيا بالحركة الناشطة ووجوه المارة والباعة والبضائع الموزعة على جانبي الطريق. كان ذلك سوقاً أسبوعياً يقام كل ثلاثاء، بدت وجوه الناس هادئة مطمئنة وجادة، يقضون حوائجهم ليس في بالهم أي إدراك لما يجري خلف أسوار القصور الأميرية. صدح صوت أذان الظهر من المساجد القريبة، فانفض الباعة والمتسوقون والسابلة، وتفرقوا واختفوا حتى أوشك الشارع على النضوب من المارة، كما أغلقت الحوانيت فجأة، وصار الناس يركضون ويختفون وكأن هناك خطراً يتعقبهم، كانت قباب المساجد واضحة بيضاء كأنها نهود عذارى، والمؤمنون يتجهون إليها مسرعين، غدت الشوارع خالية مخيفة، وبدا شكلهما غريباً جاذباً الأنظار، وفجأة صاح عليهما جندي كث اللحية صارم الملامح ظهر من زقاق جانبي:

.هيه، إلى المسجد.

أراد سرحان أن يخاطبه، فقال الشيخ:

.لا تعبأ به.

.أنتما، الله ينتظركما في المسجد.

وأقبل نحوهما شاهراً بندقيته الطويلة مضيفاً:

.إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً.

ثم وجه البندقية إليهما، وأعاقهما عن السير، فنفخ الشيخ فيها، فأفلتها الجندي وولى هارباً وهو يقول:

.أنا أمسك أفعى طوال الوقت، أو يخيل لي.

حدث سرحان الشيخ عن رغبته أن يصلي في يوم من الأيام، وأن يسرع إلى المسجد مثل هؤلاء الناس الذين تطاردهم الجنود. رد الشيخ ببرود:

.إذا رأيت الناس يسرعون إلى بيوت العبادة كالمجانين، فاهرب بأقصى سرعة، لأن الكوارث تكون قريبة، وما هرومهم إلا محاولة للنجاة، لكنهم يخطئون الطريق.

مازال الشيخ حتى تلك اللحظة مجهولاً عنه، كلامه يبدو غريباً قاسياً، ورغم ذلك لا يترددان عن السير الجاد للخروج من البوابة، ولما اقتربا من سور المدينة، مال سرحان من الجزء الأسود المحروق من السور وراح يضحك ويقول:

.انظر، ها هنا تحرق أجساد السحرة.

.أسرع يا هذا لسنا في نزهة.

اقترب جندي من سرحان وسأله:

.إلامَ تنظر، هل أنت ساحر؟

دنا الشيخ وسحب كفه وأجاب بالنيابة عنه:

. أيها القائد الفذ أنا أعالجه من السحر بواسطة القرآن، نحن ضحايا السحرة، يجب أن تنصب لهم المحارق في كل مكان.

انبسطت ملامح الجندي وأجاب:

.الوقوف هنا يدعو للاشتباه، سحراً للسحرة.

وخرجا من بوابة المدينة دون عائق.

(9)

لمس سرحان وجهه فأحس بخشونة لحيته الكثة ووخزها لأنامله، أصبح شعر رأسه متجعداً ملبداً كصوف الخروف، ملابسه رثة محروقة عند الفخذين، كان يبدو في حال يرثى له، كشحاذ أكلت الشمس رداءه أو قاطع طريق يعيش في بقعة منعزلة، قطع الشيخ أفكاره قائلاً:

.الفضول يقتل في هذه المدينة، لا تقف أمام محرقة أو سجن أو قصر، هنا الناس يشكّون في أنفسهم، يرتابون من كل شيء يتحرك بقدمين.

رمق الشيخ بارتياب وإعجاب في الوقت عينه، وأحس أن مرافقة هذا الساحر مغامرة فريدة من نوعها تقتضي الحذر، يجب أن يحتاط على نفسه منه ويراقب أفعاله ويحسب حساب كل شيء.

.زدني أكثر.

.افعل شيئاً لأزيدك، تصرف على سجيتك، ولا تصدق ما يقال عن الجحيم.

ضحك سرحان والتفت إلى المدينة، كان السور يتضاءل ويبتعد، وقصور صنعاء الطويلة المتلاصقة بدت وقورة كشيوخ مصفوفين للصلاة، المنارات الشاهقة تبرز كأنياب الوحوش، قال الشيخ فجأة:

.لا تنظر بفتنة إلى مكان لا تحب العودة إليه وإلا تصبح منافقاً بغيباً.

.المأذن متزاحمة كالأسنان.

. اسمع يا بني، إذا ازدحمت المحاريب تفرقت القلوب، وإن قيل لك إن الله
والمؤمنين يقطنون أرضاً والشيطان في أرض أخرى، فاذهب إلى أرض
الشيطان، لأنها أرحم.

.مرحى لأرض الشياطين والسحرة، عسى أن نتنسم فيها قليلاً من الهراء.

.ليس هناك ما هو أكثر عبثاً مما يدور في أرض الله والأخيار. لم تذق شيئاً من
العذاب يا بني.

.هل تؤمن بشيء أمها الشيخ؟

.أتظن أن هناك ما يستحق أن نؤمن به، لدي إيمان عميق أنني قضيت في
السجن مدة ثلاثين عاماً دون ذنب يؤخذ عليه.

ساد الصمت قليلاً، وأعقب الشيخ:

.أخشى أن تكون من الأخيار، حيث لا يجدر بساحر شرير مثلي أن يمشي في
ركاب ولي من أولياء الله الصالحين، فمن تكون يا بني؟

.لست ولياً، أنا طحان فقير من قرية صغيرة في قاع الحقل، أركض خلف هذا
الصبي العجيب الأحوال، وهناك من يظنه ساحراً شريراً، وقد تعرضنا لكثير
من المتاعب بسبب ذلك.

.هناك بلا ريب خطر ما يهدد العائلة الأميرية حتى يُسمح لمجنون أن يقرأ في
كتاب شمس المعارف الكبرى.

.نعم، ذلك الرجل مجنون، يريدون منه أن يبطل تميمة الصبي، ويهددون
بحرقه في حال أخفق في إبطالها، سمعت ذلك من إحدى الجواري.

أجفل الشيخ وقال بارتباك:

.سينتحر حفيد عوفان، وقبل ذلك سيجلب شياطين الأرض إلى المدينة وحين
يفشل في إعادتهم إلى أوطانهم، ستحل الكارثة.

.الكارثة؟

.نعم، تأهب ليركب جسدك عشرات منها، لن ننجو حتى نأوي إلى موضع آمن
نبيت فيه.

فكر سرحان برهة ثم أجاب:

.هناك سمسرة في سوق قريب تملكها يهودية فاتنة، لكنها ساحرة وبدة شريرة،
تحول الأشخاص إلى أتانات، الشياطين أرحم وأشفق من تلك المرأة المهووسة.

ضحك الشيخ وأجاب مازحاً:

.لا تعلم أي شيطان سيهجم على جسدك ولا أي لغة سيتحدث، على الأقل
المرأة الساحرة جميلة ومن بلادك وتحدث لغتك، ناهيك أنني إلى جانبك
سأعيدك إلى إنسانٍ إذا كنت مصراً على ذلك.

وأضاف مؤكداً:

.أنا معالج أيضاً، أرني جروحك، لا تخجل.

توقفا تحت شجرة أثل، وأخرج الشيخ من مخلاته ذراراً غريباً ذره في المواضع
الملتببة في فخذه وعضوه. كان سرحان يتأمل الشيخ وهو يعالجه بلا
استحياء، شيخ قصير مكتنز ذو شعر أشيب طويل فاش واستطال في أجزاء

متفرقة من جسده، وحين يتحدث بانفعال تبرز شعيرات جسده وتستقيم حتى يغدو كقنفذ يشعر بخطر وشيك. وما زال يزوغ من الأسئلة التي تشير إلى حياته، بدا واضحاً أنه يريد أن يظل مجهولاً غامضاً، وحين سأله سرحان عن اسمه أجاب:

.الشيخ.

وحين ألح عليه أجاب بالرد الذي لم يتوقعه:

.لا اسم لي يا بني.

. ما اسم قرينك إذن، قضاؤك، لواؤك، لا تقل إنك نزلت من السماء بزنبيل، أو صعدت من باطن الأرض بدلو.

. يمكنك الإصغاء إلى لهجتي لتعرف اللواء الذي أنتهي إليه، ثم إن الأسئلة المباشرة هي زاد الأطفال والحراس الليليين.

سار إلى جانبه وهو يفكر بطريقة ما لإزالة الصورة الشائنة المتبلورة في ذهن الشيخ عنه، لكن الأخير أردف فجأة بضيق:

. الصمت مطية اللصوص في الليالي السوداء، وهو زاد الموتى والمتخاصمين ولحن المقابر الكئيب وعار المسافرين. المسافر الصامت هو قبر متحرك مجهول الاسم.

. أنت لا يعجبك شيء أيها الشيخ، الكلام لا يرضيك والصمت لا يستهويك، ماذا أفعل الآن؟

. افعل أي شيء غير السير يثبت أنك ما تزال على قيد الحياة، أطلق من فمك صفيراً منغوماً، أطلق الحداء كبدوي يسير خلف إبله، أو ضراطاً أو ريحاً نتنة من دبرك، طقطق إذنيك كالحمار إن تستطيع، تأوه على صديق غائب، أو قل شيئاً مما تشعر به.

تذكر الكبير عون وزكية فتأوه وأحس بمعدته تتقلص جوعاً، شفتاه جافتان بالكاد تتحركان بسبب العطش.

. فقدت امرأتي وصديقي، يا لها من أنانية أن تنجو بنفسك، فإياك أن تجادل أو تزوّق اعترافي أو تفنده.

. زدني أكثر بما تشعر هذه اللحظة.

. أخ، لا تجبرني على الكلام، أنا عطشان وجوعان، ولا أريد أن أهدر طاقتي بالثرثرة، لم يبق سوى القليل للوصول.

ضحك الشيخ الذي يجيد الاستفزاز وأجاب:

. أنت من بدأ اللعب، والبادئ أظلم كما يقال.

كان الشيخ هازلاً فكهاً، وما اعتراضه ونصائحه إلا جزء من اللعبة، بحيث يخور فيها الشخص الجاد الهائج الأعصاب، ويفوز ذو المزاج الهادئ. وبينما هما يقتربان سمعا النداء يأتي من رأس أحد التلال القريبة:

" يا أهالي حزيز بأمر الأمير الأكبر، اقبضوا على شيخ ساحر قصير القامة رث الثياب، ورجل آخر راشد كث اللحية قدر الشكل وبمعيتهما طفل صغير وهؤلاء مطلوبون فارون من السجن.."

أسرع الرجلان حين سمعا النداء، ولاحت أمامهما قرية سوق الخميس صغيرة غريبة مثل بثرة على جسد ناصع، قام الشيخ بإخفاء الطفل عن الأنظار بواسطة تعويذة الخفاء، ولولا علم سرحان المسبق بمكر الساحر المسن لظن الصبي مفقودا، لكنه كان يحس بثقل شاله على ظهره، وحين يلتفت إليه بصعوبة لا يرى شيئا، وتكفي نظرة واحدة من عيني الشيخ الواثقتين ليطمئن إلى وجوده بموضعه، دخلا السوق، ورمقهم المتسوقون بارتياب، وحدث سرحان أن النداء قد وصل إلى الناس هنا، لكن عدم ظهور الطفل المتربع على ظهره أشاح عنهم الشبهة، اقتريا من السمسرة الواسعة المربعة الشكل التي سيأويان إليها. كانت المرأة الفاتنة تقف عند المدخل كأنما لم تتحرك من موضعها منذ أسابيع، وبمجرد أن رأتهما سألتها في الحال:

"هل تحملان طفلاً؟"

رد سرحان متظاهراً بالدهشة:

"هذا سؤالٌ غريب"

"أف، ما هذه الرائحة...؟"

وسدّت أنفها حين وقف الرجلان أمامها، كانت رائحتهما الكريهة فوق ما ينبغي أن تظهره من لياقة واحترام، بدا شكل الشيخ وصاحبه لا يشجع في الظن بأنهما زبونان حيث نفخهما الجو الحار بروائح العطنة، وصبغهما السفر بوعته وحلته الغبراء، سألتها بجفاء:

.ماذا تريدان؟

أجاب سرحان:

.مكان نستظل فيه ونقضي الليل.

.السمسرة مكتظة هذا اليوم.

.أعرف أن هناك غرفة فارغة في الداخل، فقد سبق أن عملت في السمسرة

وأصبت بالريح الصفراء. أعرف أن شكلي مزيرٍ وصورتي نكراء.

انفجرت ملامحها انفراجة صغيرة وأسرعت تقول:

. نعم، أعرفك ولا ألقى عليك أي عدل بسبب ما حدث من صاحبك كبير

القرية، أصبحت أخشى من الشيوخ أكثر من غيرهم.

وحدجت الشيخ بنظرة ارتياب، فسألها بعتب:

.هل تخشين على نفسك مني يا بنيتي؟

أجابت متجاهلة الرد على سؤاله العاتب:

.على كل حال، لن أخاطر بإدخالكما إلى السمسرة وأنتما بهذا الحال، لن يجرؤ

أي زبون على الاقتراب منها.

وأطرقت صوب الأرض قليلاً، متظاهرة بالتفكير، لتعطي لقبولها وتضحيتها

مذاقاً خاصاً وجهداً يستحق الشكر، ثم رفعت رأسها وأردفت بحزم:

.اتبعاني.

سارا وراءها كطفلين مذنبين، سلكت بهما طريقاً متعرجاً حتى أطلت على بناء قديم مقضض، تتصاعد الأبخرة من بابه نصف المفتوح، صاحت بصوتها الرقيق الأسر:

.يا ناصر الحمامي.

خرج رجل عارٍ تتكاثف قطرات الماء على جسده، يلف وسطه بمنشفة خفيفة، ويمسك بيمينه ليفة تنظيف من النايلون الأسود، ولما شاهدها قفزت عيناه إلى الأمام بدهشة وأصيب بالخرس، أضافت بغنج:

.مالك متبلد قرب الباب؟

تحرك في موضعه وانفكت عقدة لسانه فقال بوله:

.هذا يوم النور والبهجة، أنا طوع أمرك.

.خذ هذين الرجلين بأوساخهما واغسلهما وابعث لهما ملابس جديدة، ويا ليت تحولهما إلى الحجّام غالب ليشذب شعورهما ولحاهما، لأنني لا أريد أن يصاب الزبائن بالغثيان، وسجل الحساب علي.

دق ناصر الحمامي صدره بقوة ونادي على رفاقه، فأقبل أربعة منهم، وقادوا الرجلين برفق إلى وسط الحمام الساخن، وبعد مدة من الشطف والتدليك والغمر عمق المياه الكبريتية الحارة خرجا بشكل جديد، كانت هناك ملابس في انتظارهما، وقام الحجّام غالب بتقليم أظفارهما وتشذيب شعرهما، فتحول سرحان إلى رجل مهيب خفيف الحركة بعد زوال طبقة سميكة من الأوساخ

عن جسده، وصغر سن الشيخ بضع سنوات، ولما وقفا ثانية أمام صاحبة
السمسرة، سألتها باحترام:

.ماذا تريدان؟

رد الشيخ بحماس:

.ها قد عدنا من الحمام ونشعر بخفة وانتعاش.

وضعت أصابعها على خادعها قائلة بدهشة:

.عجبا! لقد أنكرتكما، انظرا أي معجزة يفعلها الماء!

.أظن أن بمقدورك الآن التكرم بمنحنا غرفة هادئة للمبيت.

قال سرحان معزراً كلام الشيخ:

.حبذا تكون بعيدة عن غرفتك، ما أشأم أن أجد نفسي في الصباح على شكل
أتان.

قال الشيخ بعجب:

.البدات عجائز في الغالب، وأعجب كيف تقوم امرأة صغيرة بعمل التحويل،
حيث مازال قلبك مثل جسدك غضباً لا يجرؤ على شيء مجنون كهذا.

تمهدت المرأة وأجابت بخجل:

.ماذا أفعل؟ أنا أتعرض لكثير من التحرشات، ولم أفعل ذلك سوى مرتين ضد
شخصين أذلاني وهتكاً جسدي، الأول حولته وأنا في الخامسة عشر من عمري

حين هاجمني وأنا نائمة، ومنذ ذلك الحين قررت ألا أتزوج، وأن أعيش بين الرجال وأتصيدهم، أه كم أبطلت من الرجال المتحرشين.

ظلوا صامتين متأثرين فاستدركت مشيرة إلى سرحان بانفعال:

.لقد نجا هذا الرجل من مصيدتي، وهو أول شخص ينجو، والفضل يعود إلى الريح الصفراء، على عكس رفيقه الذي هتك جسدي، لا أظن أنه مازال يحتفظ بعضوه، لأنني قرأت عليه تعويذة البتر.

حملق سرحان في وجهها بعجب ورد بتأثر:

. نعم، لقد بُتر عضوه، وأخشى أنك لازلت تخططين للتخلص من عضوي، فأنت امرأة ماهرة، تقومين بجذب ضحاياك وتمنحينهم الإغراء اللازم.

شرح سرحان الإغراء الذي قدمته إليه، وهو إغراء كافٍ لاصطياد حيوان متوحش، لكنه وجد في نفسه نفوراً وانقباضاً، وهو رجل خبير بأحوال النساء، فالمرأة لا يمكن أن تغوي شخصين في وقت واحد، ارتاب في أمرها، وربما كان هو هدفها الأول المراد اقتناصه، لكنه أشاح نظره عنها وادعى العفاف. فانكسرت المرأة الفاتنة وجرحت في أعماقها، إذ لم يسبق أن خابت في اجتذاب رجل إلى فخ جمالها. كانت ثقمتها بنفسها عالية، لذا غضبت وانتقمت منه، وكلفته بكثير من الأعمال في وقت واحد حتى سقط مريضاً بحى شديدة أفقدته وعيه...

قاطعته صاحبة السمسة والدموع تترقرق من عينيها:

. ما يمنعني من تحويلك الآن إلى أرخص أتان في بلادك؟

تقدم الشيخ إلى أمامها وقال:

.أنا أمنعك عن إيذاء رفيقي.

انتفشت كديك متأهب للقتال، ودقت قدمها على الأرض بتحدٍ سافر، وقالت بثقة عمياء:

.أتحداك إن كنت ساحراً، فقد رضعت السحر من حليب أمي.

.اسمعي يا بني، لينسحب أحدنا قبل أن يتأذى، فأنا قد ألقيت اسمي وسيرتي وراء ظهري منذ ثلاثين عاماً، حتى اسمي طمرته ونسيته في السجن، لم أعد فخوراً بأعمالي وبطولاتي الماضية، لقد تحدثت عني الناس كثيراً كبطل، لكن ذلك كان وهماً كبيراً وفخاً نصب لي.

.أنا مصرة على كبح جماح غرورك، اكتب وصيتك الأخيرة الآن.

.أحذرك يا بني من مواجهتي، فما زال لدي تعاويذ تجعل الجبال تتحول إلى أكوام من الرماد.

.سنرى من سيحيل الآخر إلى رماد، لن تكون بارعاً كوالدي الذي يقال إنه كان يضرب دوائر سحرية حول المدن فلا تستطيع جيوش الغزاة اقتحامها.

.أنا أيضاً فعلت ذلك في الماضي، وأستطيع فعل أي شيء ما عدا إحياء الموتى.

.هل تستطيع أن تنقذ روحك من تعويذة الموت بالصقيع؟

أخذت تقرأ تعويذتها وتنفخ الهواء باتجاه الشيخ، فأبطل تعويذتها بتعويذة النار، وتعددت التعويذات وتصاعد الدخان والشرر وأصبح الجو ملبداً

مكفهرأ كما لو كانت الحرب تدور بين جيشين، وتحولت المواجهة إلى استخدام قوى الطبيعة، فاهتزت الأرض تحت أقدامهم، ومادت حتى وقع سرحان أرضاً، وسولت له نفسه بالفرار، لكن الإعصار ضرب المكان بعض الوقت، وكاد أن يطير كقرطاس في الهواء، لحسن الحظ، أمسكه الشيخ في الوقت المناسب، ثم سقطت أكوام من الثلوج فوق رؤوسهم، وهطل المطر ونزلت الصواعق وتشققت الأرض تحت أقدامهم، أحس سرحان أن جسده سيهوي وسط أخدود عميق، نظر إلى الشيخ بتوسل فمد له يده وثبته بعض الوقت، في النهاية، رفعت المرأة كفها مستسلمة، فأوقف الشيخ تعويذة قوى الطبيعة، حيث لم تقو صاحبة السمسة على مواجهة كل قوى الطبيعة في آن واحد.

صفا الجو بسرعة خاطفة، وعاد كل شيء إلى وضعه الطبيعي، كأن شيئاً لم يحدث، الشيء المختلف هو اللين والخضوع في صوت المرأة، بحيث غدت تنظر إلى الشيخ باحترام شديد، ثم سرعان ما عرضت عليهما الضيافة في منزلها ومضت تقول وهم في طريقهم إلى المنزل:

. تعلمت كل مهاراتي من أمي، لكنها كئيبة منذ أُعتقل أبي، لم تحتل المسكينة الأمر، وظلت تلوم نفسها كثيراً، وتظن أنها لو كانت قربه في المنزل وقت القيلولة لم تكن لتسمح للجنود بالقبض عليه.

. هذا غريب، الأوغاد قبضوا عليّ أيضاً أثناء النوم، يبدو أن الجبناء يحسنون اختيار مواعيد هجومهم.

أردف بعد لحظة:

.مهلاً، لازلت أذكر يوم قبض عليّ، أن جاري أبو صالح دعاني للغداء بمناسبة ختان ابنه، وحين عدت طلبت من امرأتي زكية أن تحرس قيلولتي، ولم أرها بعد ذلك اليوم أبداً.

.واعجباها، ماما زكية تحمل اسم امرأتك، وقد كانت حاملاً بي يوم اختفى أبي رعدان البهري، مكثنا ننتظر عودته خمسة عشر عاماً، ولما اغتصبني ابن حرمل حولته إلى أتان، وبعنا منزلنا وغادرنا للتو إلى هنا.

صمتت متأثرة بذكرها الأليمة ثم عاودت القول:

.هنا عرض عليّ صاحب هذه السمسرة الزواج، وكان يهودياً متديناً، ولما وجدني غير عذراء جن جنونه، ولم يؤمن بحرف واحد من حديث اغتصابي، وهدد بأن يفضحني في الصباح، وأن يرميني ملطخة السمعة، لكنني قرأت عليه تعويذة التوهان، فخرج عارياً من المنزل ولم يرجع إلا جثة هامدة بعد شهرين.

انهار الشيخ على الأرض وأخذ يهذي:

.أنا أيضاً، اسمي رعدان البهري من جبل مسار في حراز، وأعرف النذل حرمل، ومائة عائلة أخرى من اليهود والمسلمين، لم يجرؤ أي منهم على إضمار الشر لي في سريره، وكانوا يجلبون الماء إلى داري ذي الستة الطوابق.

استرد أنفاسه قليلاً ثم حدجها بنظرة متضرعة قبل أن يضيف سائلاً:

.ألست ابنتي؟

.ماذا جرى لعقلك أيها الشيخ؟

. آه، أنا أدعى رعدان المهري لا ريب في ذلك، الآن الدماء تكاد تجف في عروقي
وأنا أراك لأول مرة، يا ليت الأرض تبتلعني وأعود إلى حالة العدم، لقد رتب لنا
القدر اللقاء على غير موعد، فما أفرحني وما أحزني!

قلبت في وجهه عينين تائهتين حائرتين، ونكست رأسها نحو الأرض، وقالت
باضطراب:

. لا أفهم كلمة مما تقول.

. لا ألومك يا بني، هيا بنا إلى أمك، هي الوحيدة التي لا تخطئ في ملامحي. هل
مازالت على قيد الحياة؟

هزت الفاتنة رأسها موافقة، وسلکوا درباً ملتويّاً حتى تسمروا أمام منزل
عريض ذي باب خشبي ضخم، دلفت المرأة إلى الداخل، ودعتهم بنظرة معبرة
من عينيها، وقفوا جميعاً أمام المرأة السمينة الصامتة، ونظر إليها الشيخ
بمودة وحزن وتقدم نحوها باسطاً ذراعيه:

. عدت يا زكية، ها قد عدت، كيف حالك؟

لم يكن في نظراتها الشاردة ما يدعو للظن بأنها تدرك أن هناك شخص
يخاطبها، فأضاف:

. ما بها؟ خرساء أم طرشاء؟

. هي هكذا منذ أن فارقتها والدي.

اكتسى وجه الشيخ بالسواد، وبالكاد أجاب:

.والدك يحبك يا بني، والدك مات، أنت على صواب، سأعود إلى سجن.

وانسحب مدارياً حزنه عن الآخرين، سار خارج المنزل، لا يدري أي اتجاه يسلك بفعل تأثره، أخيراً سلك الدرب الذي جاء منه، وتبعه سرحان منادياً، رغم ذلك لم يخفف الشيخ مشيته، ثم أتى صوت صاحبة السمسة صائحا:

.أبي، أبي، مهلاً، أرجوك.

وقف الشيخ بموضعه محاولاً السيطرة على تماسكه، ولما وصلت تعلقت بثيابه وهي تلهث وتقول:

.أمي تريدك أن تعود، لقد نطقت باسمك بعد خروجك.

عاد ثانية إلى أمام المرأة السمينة، فأخذت تشمه ككلب يتفحص بقايا عظام قديمة، ونطقت أول كلمة منذ ثلاثين عاما قائلة بصوت غائر متقطع:

.رع دان.

كانت الطيور تخبط بأجنحتها على النوافذ، لكن ماما زكية تجاهلتها وانشغلت بالقادم، كانت قد نسيت الكلام، وتعذر عليها إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة، تحدثت بكلمات مشتتة عن صحتها وأحوالها، ووعدت بالمزيد من الأخبار ريثما تنفك عقدة لسانها المزممة. كان سرحان ينظر إلى الزوجين العجوزين اللذين يتجاذبان أطراف الحديث حول الآلام والأشواق التي فتكت بقواهما، وحولتهما إلى آهات وأحلام معذبة، وقال في سره بغيرة: شتان بين زكية وماما زكية، لا شك أن زكيتي المسكينة تبحث الآن عن الصبي في القصر،

أنا لم أعد أساوي شيئاً في نظرها، لقد أخذها مني، وها أنا أستعيده منها، ما
أغرب الحياة!

كان المنزل من الداخل -على خلاف شكله الخارجي البسيط- ثرياً بأثاثه ومزيناً
ببعض الرفوف الهلالية الشكل، الكؤوس الزهرية، المشغولات اليهودية
المتنوعة، النوافذ المتسعة، العتبات العاجية، الأباريز المنمنمة، المعاصر
النحاسية، العقود المرمرية الناصعة، الطين الكلسي الأبيض اللامع المحفور
بمقاطع من مزامير داوود، وأشياء أخرى لا ترى سوى في منازل السادة والأمراء
في المدينة، جلس سرحان منبهراً يحدق في كل ما حوله، مسلياً نفسه ريثما
تنتهي مراسم اللقاء بين أفراد العائلة، لكن يبدو أن هذا لن يتحقق سوى بعد
عدة أيام على أقل تقدير، وحتى تلك اللحظة يكون قد مات من الجوع
والإهمال، بعد قليل أحس ببوادر أمل حين انبعثت رائحة الطعام من مكان ما
في المنزل، من بيت النار بلا شك، فأخذت بطنه تتقلص كأنها توشك أن تأكل
نفسها، لقد أفرغ فيها كمية كبيرة من الماء البارد ولم تهدأ، أصبح يسمع بغبغة
الماء حين يتحرك، لاحظ أن الشيخ منشغل بالحديث وامراته، هل يريد أن
يعوض ما فاتته منها بالكلمات فقط؟ انضمت كذلك الابنة إليهما، وأفصحت
لأول مرة أن اسمها مريمة، واستحسن والدها الاسم، أخذوا يخوضون في
الحديث، حديث متشعب ممل، لا شيء يلهيه حتى ميعاد الوجبة، أناقة المنزل
ومقتنياته صارت تافهة في نظره، حتى طفله الصغير بجانبه لا يناغي بعد أن
نُزعت التميمة عن عنقه، وحدها الطيور في الخارج تصيح ولا أحد يكثرث
لصراخها أو لبطنه التي تتضور جوعاً، لا يجروء أن يقاطع حديثهم العقيم عن
أشياء مضت وبليت ولم يعد لذكرها أي جدوى، لكن الناس يظنونها ضرورية

وأجدى من الصمت والقُبَل، ماذا بقي لعجوزين غير الثرثرة! هكذا فكر سرحان بتهكم، ومع ذلك تعشم أن تلتفت إليه مريمة وتبادلته كلمتين، لكنها بين فينة وأخرى ترمقه بنظرات فاترة تبدو كما لو وقعت عليه سهواً. على نحو مفاجئ ومفرح حضر الطعام، جلبته امرأة مكتنزة الجسد دميمة الوجه، لكن فوح طعامها الشهي يغفر لها، ويجعلها محط أنظار الرجال الذين يحبون أن تكون منازلهم عامرة بالوجبات المحلية، أكل سرحان كالوحش، لم يحرص على آداب الأكل المعروفة لدى القرويين أكثر من غيرهم، اكتفى بالقول محتجاً:
. أنا أتضور جوعاً، وأنتم منشغلون ببعضكم، أنصحكم بمواصلة الحديث
ريثما أنهي طعامي.

ضحكوا وقال الشيخ رعدان وهو يمد ذراعه إلى الخبز الساخن:

.لديك عائلة أيضاً، بوسعك أن تناغي صغيرك مادمت قادراً على ذلك.

.عائلة، آه، نعم، هكذا يبدو الأمر، في الحقيقة لدي امرأة مختطفة، خطفها هذا الصغير وسلب عقلها، ولا أذكر آخر مرة التقيت بها على فراش واحد.

قالت مريمة بحدة مفاجئة:

.أنتم تقولون ذلك حين لا تجدون سبيلاً للاستحواذ على حياة المرأة، أنتم تختارونها ثم تقولون لم نحسن الاختيار، نحن تعساء.

أشار سرحان إلى بين فخذه بلا خجل وأجاب:

.أنا لم أختارها، هو من أختارها.

تلتخ وجه مريمة بالاحمرار، وألقت في وجه والدها نظرة معبرة وقالت بغضب المراهقات:

أبي لِمَ جلبت معك هذا الرجل؟

بل هو من جلبني إلى هنا، لقد التقينا بفضلها، فاصطبري على زلقات لسانه.

أحس سرحان أنه غير مرحب به لاسيما من مريمة، وأنهم لم يعودوا بحاجة إلى وجوده، لقد التقوا بعد ثلاثين عاماً، ولديهم أشياء كثيرة يريدون قولها لبعضهم. وهكذا خطرت في رأسه فكرة المغادرة السريعة، كان قد ابتلع كمية كافية من الطعام، فقام وأخذ طفله النائم وطواه في اللحاف، وشده بإحكام على ظهره، ثم قال لأصحاب المنزل بصوت غريب كأنه ليس صوته:

بوركتكم يا أهل الدار، وبورك طعامكم، حان وقت السفر، بسم الله.

أربكهم قراره المفاجئ، وتكلموا على التوالي:

إننا لم نقرر بعد ما سنفعل. (الشيخ رعدان)..

رافقتك السلامة يا بني. (ماما زكية)

لِمَ العجلة؟ (مريمة)

خرج هارباً من الإجابة عن سؤالها، وهو يتبسم ليداري خوفه الشديد منها، بدا واضحاً أنها تكرهه وتضمر له الشر. في الخارج رأى أسداً جاثماً قرب مدخل المنزل، كانت هناك امرأة من الجيران تنشر غسيلها باطمئنان على حبل موصول بين نافذتين، سمعها تترنم بأغنية محلية ترددتها ربات المنازل للتسرية عن أنفسهن من إرهاق العمل، لم تكن تبدو عمياء حتى أنها لا ترى الوحش،

أم تراهم هنا يدجنون الأسود ويربونها كحيوانات أليفة؟ رأى أحد الأطفال يأتي ويتمسح بالأسد، فصاحت المرأة على صغيرها:

.احذريا فراص أن تنتقل إليك الحشرات من جسد الكلب.

معك عينيه مراراً ودقق النظر في الحيوان مرات عديدة، ثم أغمضهما وفتحهما ثانية، ولم يجرؤ على الاقتراب، لاسيما حين تشاءب الحيوان، وصاح محذرا المرأة:

.هيه، الأسد.

ضحكت المرأة، في حين نهض الحيوان الرابض متحفزاً، فتراجع. فقالت:

. لا تخف، كلبنا طراش لا يؤذي أحداً، إنه يفرح بالزوار ويتشمم أجسادهم فحسب.

قال في سره: لن أسمح له أن يتشمم جسدي. إنها تهزأ بي لا شك. صارت تضحك بفعل خوفه الشديد من كليها اللطيف، فغضب وتسلل ودقات قلبه تتسارع، وهذا جعل الحيوان مثاراً، لكن المرأة وقفت في طريقه، فتمكن من الإفلات، ولما غاب المنزل عن مجال نظره تنفس الصعداء، وضحك هو الآخر على نفسه، هز رأسه متعجباً من بصره الخادع، ومع ذلك استمر الخداع، إذ أقبل ناحيته قطع ذئاب سوداء وبيضاء، يسوقها شاب يعتمر طاقية عريضة من السعف، كان الشارع هذه المرة ضيقاً، واللقاء بهذه الحيوانات صار وشيكاً، فأجفل إلى الخلف هارباً فهجمت عليه الحيوانات، فأخذ يركض بكل ما أوتي من قوة، وسمع الشاب يصيح:

.هيه، أنت، توقف، لا تستفز الأغنام.

.لست أحمقاً لأصدقك، هذه القرية أحوالها غريبة.

وحرص على تضليل الحيوانات بالانعطاف والدخول في الأزقة الصغيرة، ووجد نفسه فجأة أمام المنزل الذي غادره للتو، رأى كلب الجارة رابضاً في موضعه الأول، التفت إلى الخلف، ورأى حيواناً واحداً مازال يطارده، لم يدرك نوع هذه الحيوانات، دلف عليهم ثانية وهم مازالوا يتلمظون الطعام، فقال بصوت خجول:

.ها قد عدت كما أردتم، الناس هنا يربون الوحوش في منازلهم.

ضحكت مريمة بتشفٍ وأجابت:

.كنت أعرف أنك ستعود.

.ماذا فعلت لعيني أيتها المجنونة؟

.أبي من فعل ذلك.

حول عينيه إلى وجه الشيخ فقال:

.اسمع يا بني، مازال الخطر مستفحل في المدينة ونحن مطلوبون أيضاً، لذلك

من واجبي أن أجبرك على البقاء، وحين يزول الخطر لن يقف في طريقك أحد.

.لكن الطفل أمسى خاملاً هادئاً، لا أظنك رأيتته وهو يناغي ويقلب عينيه في

الوجوه ويتبسم.

قرأ الشيخ رعدان شيئاً ما، ومد كفه في الهواء، فإذا التميمة عالقة بين أصابعه، مد بها إلى سرحان قائلاً:
إنها تثير الطفل وتجعله مستفزاً.

علقها سرحان في عنق الصغير، فإذا به يفز من حموله وكأن شيئاً شدّه أو نخّزه، وانطلق يناغي:
خاخخخخخخ.

لو كانت زكية هنا وسمعت هذا النغاء سوف تمد أصبعها إلى وجهي وتقول "خائن". لكن الصغير في الغالب يقول ذلك حين يكون هناك "خطر" ما يترصدنا.

ضحكت مريمة وقالت:

شعور المرأة لا يكذب.

نفضت ماما زكية غبار الصمت وقالت:

ماذا جرى لي! الطيور مازالت تنتظر طعامها على النوافذ.

أخذت بقايا الطعام، ونثرته على الرف الخشبي الطويل اللاصق على النافذة من الخارج، فحدثت جلبلة وتنافس على التقاط الفتات من الرف، ثم أجفلت الطيور فجأة صافعة الهواء بأجنحتها صفعات عنيفة، وغادرت المكان مبتعدة، وقالت ماما زكية بسخط:

القطط الملعونة تهاجمها.

قال الشيخ رعدان:

.لنأخذ إنذار الصغير على محمل الجد، فقد كان جدي يردد على الدوام، إن الأطفال والحيوانات لا تكذب.

وأعقب بنبرات حادة أمرة:

.لا أظن الحمام نفرت من القبط يا زكية، لقد أخبرتك عما يدور في صنعاء من عبث، اصنعوا دوائر الحماية من الشياطين، واجلبوا أكبر قدر من الطعام والماء.

وأسرعت مريمه والطاهية إلى بيت النار، وجلبن (تورة) ضخمة ممتلئة بالكعك والخبز، وسلطانية كبيرة من الفول، وأباريق من الشاي والقهوة، وطشوت عديدة من الماء.

(10)

صار كل فرد في العائلة يقرأ تعويذة الدائرة السحرية الخاصة به، وتسمرت الطاهية قرب سرحان يراقبان قرءاء التعويذات، لا حول لهما ولا قوة. بعد قليل من الوقت أنهت مريمة تعويذتها، وأشارت إلى سرحان أن يقف إلى جوارها، وشرعت تصنع دائرته، ودائرة صغيرة في الوسط لطفله، وأشار الشيخ رعدان إلى الطاهية أن تأخذ مكانها قرب سرحان من الجهة الأخرى، بحيث تكون الدوائر على شكل دائرة كبيرة، وتم وضع الطعام والأباريق والطشوت في الوسط، ووجد سرحان نفسه محاطاً بامرأتين جامحتين، وخيل له أن النوم في دائرة صغيرة قرب المرأتين سيكون مستحيلاً، ولا يأمن على نفسه من الانصهار بفعل حرارة الجسدين الثائرين، وفكر في إمكانية التحول إلى دائرة أخرى بعيدة، فقال متعللاً:

. أنا رجل أتقلب أثناء النوم وأخشى أن أصطدم بإحدى المرأتين ويُسَاء فهمي، لذا أريد أن أقايض ماما زكية دائرتها.

قالت مريمة بنبرات حازمة:

. كل دائرة مثبتة باسم صاحبها، ولا يمكن استبدالها، وإذا كنت رجلاً يتشقلب في نومه، فأنا امرأة ترفس كل شيء يحتك بجسدها أثناء النوم، حتى الغطاء لا أتقبله.

كانت تبدو جادة في وعيدها، لكن المرأة الأخرى بدت من عينيها الضاحكتين أكثر تساهلاً وتسامحاً. عند المغيب أكلوا وشربوا وتسلموا إلى الحمام واحداً تلو الآخر، ثم استعدوا لقضاء ليلة كاملة وسط الدوائر في ظلام حالك. كان عليهم أن يلتزموا بالقواعد التي وضعها الشيخ رعدان، فالكلام ممنوع لأن الكائنات الخفية تلاحق ذبذبات الصوت، ولما كان الطفل يناغي باستمرار طلب الشيخ من سرحان أن ينزع التميمة من عنقه. فزعرها ودسها في مخلاته، وحاول أن ينام، كانت أنفاس المرأتين تلفح وجهه وقفاه، فاضطر أن يطوي رأسه بشال قطني، وفي وقت من الليل أحس بشيء يتشقلب نحوه، مد راحته بحذر فوقعت على كتلة منتفخة طرية، تحسسها مرة أخرى، واستطاع أن يميز الردفين الحارين، هزّ المؤخرة المتمردة برفق محاولاً تنبيه صاحبتهما بالابتعاد عن طريق عضوه الجريح، لكنها تماوجت مكانها ولم تتزحزح، حاول أن ينسى أمرها دون جدوى، وفوجئ بذكره الجريح يتحرك بين ساقية وينتصب كنائم دوت بجواره صرخة شديدة. وهذا ما كان يخشاه. أحس بالرغبة تهبسه من الداخل كذئب، ولم يعد يفكر في شيء آخر، في النهاية، مد أنامله المرتعشة بشكل تلقائي، ورفع الثوب عن العجيزة المستسلمة، وجدها عارية مهيأة له وسروالها قد نزل إلى الركبتين، وهذا أثاره أكثر، وأوحى إليه أن صاحبتهما ليست نائمة، بل تمنحه نفسها عن طيب خاطر وبدون شروط أو غزل، لذا دس عضوه الجريح فيها وأخذ يحركه برفق حتى لا يصدر أي صوت. كان ذلك لذيذاً مدهشاً، ولم يتوقف حتى أراق ماءه فيها، وببطء انسحبت العجيزة، وعادت أدراجها، واختلط على سرحان الأمر، لم يعد يستطيع أن يدرك الجهة التي أتت منها، ولا من تكون صاحبتهما، الآن فقط استشعر بالخطر، لعل

صاحبة السمسرة قدمت له مؤخرتها طُعماً، لتجعله يرتكب حماقة، ثم تبرر لنفسها أمر تحويله إلى أتان.

طار النوم من عينيه، وهو يفكر على هذا النحو، ثم غفا بعض الوقت، وأفاق مبكراً قبل الشروق. كانت مريمة مازالت نائمة مغمضة العينين ببراءة وفتنة أسرة، ولم يكن في ملامحها دليل على حدوث شيء في المساء، ليس هناك غير العينين اللتين تكشفان المستور، ببساطة، هي نائمة، ويجب انتظار استيقاظها. بعد قليل دخلت الطاهية بصحن كبير منتفخ من وجبة بنت الصحن معجونة بالبيض والعسل المحلي، وفي يدها الشمال إبريق من القهوة، يتصاعد البخار من عنقه. سكبت القهوة في الكؤوس، ودعت الجميع لأكل فطورها، أفاقوا وغسلوا وجوههم، وحجزوا أماكنهم حول الفطور الشهي، أخذت الطاهية تقدم لهم الكؤوس وتخدمهم بمودة، وتوزع نظراتها في وجوههم، ماعدا وجه سرحان، بدت تشيح نظرها عنه وتميل خدها قليلاً وتبتسم. بدا وجهها مشرقاً على خلاف البارحة، وحركاتها تنم عن نشاط وخجل، فخاطبتها مريمة قائلة بارتياح:

أفقت مبكرة هذا الصباح أيتها الكسولة.

هذا من أجل والدك الضيف.

وسرحان، أليس ضيفاً؟

تبسمت ونكست رأسها بخفر، وصممت كما تفعل نساء الأرياف بعد ليلة حميمة، رمق سرحان وجه الطاهية المشرق، وقال في سره: "جسدها طيب في العتمة، صدق من قال بأن الظلام يستر العيوب" ولم يخرجوا إلى أعمالهم

حتى صنع لهم الشيخ تمائم كتبها على عجل، وهي تكفي لحمايتهم من الشياطين، على الأقل حتى يؤوبون إلى دوائهم الحصينة، خرج سرحان للتجوال في قرية السوق، وعند غروب الشمس كانوا جميعاً في المنزل، جلبوا حوائجهم، وقضوا حاجاتهم، ثم دلفوا إلى دوائهم، أمضوا بعض الوقت يتقلبون في مواضعهم، ولما تصاعدت أنفاس النائمين اقتربت العجيزة ووقعت في حجر سرحان المتأهب، لكن عضوه لم ينتصب، حاول مرات عديدة دون جدوى، ارتفعت حرارة جسده إلى حد مخيف، وتصيب عرقه حتى ساح إلى الأرض، أخيراً دفع العجيزة بعيداً بضيق وخرج، وندت عن صاحبها تنهيدة عميقة تنم عن الاستياء، بقي ساهراً يفكر بحلق، أحس أن لمريمة ضلع في ما جرى، وظل يرسم في خياله مشاهد كثيرة يكون فيها هو البطل الحقيقي الذي يثار لكرامته منها، فيعنفها ويهينها، بينما هي تتوسل وتعهده أن تكون خادمتها الأبدية، ثم تتعلل بأن كل ما تفعله هو بدافع الغيرة، لأنها تحبه ولا تريد أن يذهب عضوه إلى فرج امرأة غيرها. تخيل نفسه أيضاً ساحراً عظيماً ينازلها ويصارعها بالتعويذات والحركات التي لم يسبق أن رآتها عند أحد من السحرة، وفي خطوة جريئة يجعل الجبال تتناثر حولها، ويحاصرها حتى تعلن استسلامها، عندئذٍ يمحو التعويذة.

في الصباح أفاقوا وغسلوا وجوههم، كانت الطاهية آخر من أفاق، عيناها وارمتان حمراوان وجسدها واهٍ مرهق ووجهها مقطب قاتم، اتجهت إلى بيت النار ماشية بثقل، جلبت بعض الكعك والخبز البائت، وقنينة كبيرة من اللبن الرائب، وابريق صغير من القهوة، ولم تقدم لهم الكؤوس أو تنظر في

وجوههم، أخذ الجميع قضمات باردة بلا شهية، وكسرت مريمة حاجز الصمت مخاطبة الطاهية بتهكم:

.الفطور بارد هذا الصباح، ماذا جرى لك أيتها الكسولة؟

ردت الطاهية وهي تتثائب بكسل:

.سامحيني، لقد سهرت وغلبني النوم.

ضحكت مريمة وردت عليها بتشفٍ:

.أينقصك شيء ما لتكوني نشيطة وتفريقي باكراً؟ لا تخجلي أخبريني بذلك.

.لا شيء، أنا بخير.

ظهر على ملامح الطاهية المسكينة إنكار الشخص المجبر على الكذب والمكابرة، وأكلوا قليلاً حتى اكتفوا، ونهضت مريمة بنشاط، وألقت نظرة ماكرة متشفية إلى وجه سرحان، واتجهت صوب السمسرة، لم يجرؤ هو أن ينظر في وجه الطاهية، بينما نظرت هي إلى وجهه ببرود مخيف فازداد خجلاً وازدادت هي قبحاً وضحكاً، ما لبثت أن دخلت حجرتها وأوصدت الباب، وقامت ماما زكية لتتفقد طيورها وتغذيها ببقايا الطعام، وبقي الشيخ رعدان وسرحان صامتين، أخذ الأخير يحك فروة رأسه بإصبعه، وينظر إلى الزاوية بقلق، انتبه الشيخ إليه وسأله بعجب:

.هاه، سرحان، تبدو قلقاً، أتريد أن تقول شيئاً؟

.نعم، أنا غاضب، هذا شيء مخجل...

أضاف بعد وهلة بصوت منخفض:

.لا أدري حقا، لعل مريمة أبطلت شيئاً في جسدي.

صمت الشيخ مفكراً برهته، ثم انفجر ضاحكاً وقال:

.ألهذا السبب أكلنا الفطور بارداً!

.لا تهتم، أنا المذنب...

.كلا، لست مذنباً، افعل ما يحلو لك، افعل هذا من أجلنا.

تشجع سرحان وتبسم، بينما شرع الشيخ يقرأ تعويذة فك العضو من الخمول، وبعد الانتهاء تحرك ذكّره، ففرح واستبشر، وظهر الامتنان في عينيه، أمسك الشيخ رعدان معصمه، وقاده إلى باب غرفة جانبية قريبة، وطرقه بخفة ثم فتحه، نظر سرحان إلى الداخل بعجب، وهناك رأى الطاهية مستلقية، فاندesh وانتصب عضوه، وحاول التملص، لكن الشيخ دفعه إلى الداخل وهو يقول:

. افعل شيئاً جميلاً، دعنا نأكل وجبة غداء متنوعة شهية، لقد جُعت في

السجن وعشت على قرصين من الشعير كل يوم.

وأضاف ناصحاً:

. لا تظهروا سعادتكم أمام أشخاص لم يتذوقوا طعم السعادة، هيا باشر

عملك يا بني ما دمت قادراً على العمل.

نهضت الطاهية مندهشة فاحتواها سرحان وألقاها أرضاً وباشر العمل.

حين عادت مريمة وقت الظهيرة وجدت جو المنزل يفوح بروائح الطعام، وأخذها العجب، رأت بأمر عينيها الأطباق الشهية، وكل هذه الوجبات بحاجة إلى مجهود كبير لإعدادها، تثناءت الطاهية حين رأتها، وحاولت أن تخفي اشراقها وبهجتها، لكن صاحبة السمسرة فطنت إلى حدوث أمر غير لائق داخل منزلها، وتجرات وأدخلت أصابعها تحت وشاح رأس الطاهية، فأحست بالبلل، وأدركت أن الماكرة اغتسلت، أكلوا وجباتهم الشهية في حال من التوتر والقلق، لأن مريمة بدت ممتعة الوجه وتوشك على الانفجار، وبمجرد أن انتهوا ذهب سرحان ليغتسل، والطاهية اتجهت لغسل الأطباق، حين ذلك اقتربت مريمة من والدها هامسة بغیظ:

لماذا تتدخل يا أبي في أعمالي؟

ماذا تقصدين يا بنيتي؟

لقد كنت أبطلت جسد هذا الرجل حتى لا يقترف إثماً وهذه الطاهية اللعينة.

تغضن وجه الشيخ رعدان وأجاب بحدة:

ليس من حقك أن تمنعي الآخرين أن يفعلوا ما لا يروق لك. ألا تدركين أن

هذا ممنوع في وصايا أسلافنا السحرة! ماذا جرى لعقلك يا مريمة!

أي رجل وامرأة يريدان التلطح بالرديلة عليهما اقترافها بعيداً عن منزلي.

لنحسب أنهما زوجان ضيفان حلاً في منزلنا، وما الزواج إلا التوافق والتراضي

بين طرفين، وما العقد إلا ورقة رخيصة الثمن.

. أنت تخيفني يا أبي، من أين لك هذه الأفكار الخارجة عن الفضائل والتقاليد؟
. اسمعي يا بني، ليس لديك خبرتي وتجربتي في الحياة، لعل السجن أكبر
نافذة يمكن للمرء أن يتأمل عبرها الحياة من جميع أوجهها، والأشخاص
الذين يسجنونك ويقيدون حريتك هم أولئك الذين ينادون بالفضائل، لذا من
يقولون إن هناك فضائل في الحياة فإنهم سجانون يعانون من الجمود
والبلادة.

. يا له من سجن رهيب تدخل إليه مختوماً بختم القرية التي تقطنها ومغلفاً
بتقاليدها وقيمها، ثم فجأة تخرج بختم غريب آخر.

. هذا ما يردده السجانون والجلادون في كل زمان ومكان، في كل دين أو مذهب.
أعرف أنك عانيت كثيراً في غيابي يا ابنتي، وأن ما تحملينه من استياء هو نتاج
أفعالهم القبيحة...

تساءلت ماما زكية بصوت واهٍ:

. أسمع همسا حادا، ماذا يجري هنا؟

لم يجب عليها أحد، فالأمر تافه ومخجل ولا يمكن شرحه في بضع جمل لامرأة
كبيرة السن بطيئة الفهم، هكذا ظن الشيخ رعدان، ما جعله ينهي النقاش
قائلاً بحزم:

. الآن دعونا من الثرثرة حول أشياء صغيرة، لننقُم ببعض التحريات عما يجري
في صنعاء، ها هو اليوم الثالث والأخير، إذا مضى هذا اليوم بسلام فإننا
سنكون بأمان. ادعوا سرحان والطاهية للحضور.

في تلك الأثناء أقبلت الطاهية، ورمقت مريمة إليها بحنق قائلة:

.اجلبي صاحبك إلى دائرته.

ردت الطاهية بارتباك وخجل:

.صاحبي؟ أوه، أنا لا أعرفه، إنه قادم على كل حال.

أقبل سرحان نشيطاً، واتخذ كل فرد مكانه، وبقوا منتظرين، كان الشيخ رعدان جالساً القرفصاء وسط دائرته ممسكاً مخلاته بحرص، ويبدو متهيباً ومتحفزاً لفعل شيء ما رهيب، قطعت ماما زكية الصمت قائلة باهتمام:

.ماذا تنوي أن تفعل يا رعدان؟

.سأستحضر خُدّامي يا زكية، لا أدري أهم أحياء أم أموات، لمدة ثلاثين عاماً لم أستحضرهم. اجلبوا الموقد والبخور وسراجاً مملوءً بالزيت، وابقوا صامتين في أماكنكم.

جلبت الطاهية الأشياء التي طلبها الشيخ وهي ترتجف، وقرفصت في دائرتها، وساد جو من الصمت والتهيب، وتقدم الشيخ رعدان بثقة ونفث البخور في الموقد وقرفص أمام الأدخنة الكثيفة المتصاعدة، وجعل يهتف ويقرأ بلغة غريبة، وفجأة ارتجت الأرض تحت أقدامهم، ثم هدأ كل شيء وانقشع الدخان، وظهر الشيخ رعدان يائساً مقطباً جبينه باستنكار، بعد قليل تحرك وقال بصوت متعب:

. لا فائدة، خدّامي بلا ريب محشورون في صنعاء مع غيرهم من الشياطين، ولا يستطيعون مغادرة المدينة، مازالوا ينتظرون إذن التفريق من شعيب، سأجرب وسيلة أقوى.

أخرج من مخلاته قنينة عطر صغيرة وخاتماً مطلسماً، وسكب قطرة من السائل على وجه الخاتم، ودعكه مراراً وتضوع العطر، مردداً بضع كلمات غريبة في الهواء، فمادت الأرض من تحتهم أشد من ذي قبل، وتشققت جدران المنزل وسقط الطين الكلسي الأبيض من السقوف على رؤوسهم، ثم توقف الاهتزاز، وعم الهدوء. وظهر الإحباط في وجه الشيخ رعدان، وقال بانفعال غير معهود:

. هذا غريب! كأنهم مقيدون بسلاسل فولاذية، بحيث لا يستطيعون أن يتحركوا، وما زال هناك وسيلة ثالثة أخيرة، لكنها خطيرة، سوف تقتلعهم من أماكنهم، وسيأتون مكرهين غاضبين، ولا أظن سقوف وجدران هذا المنزل سوف تصمد.

صاحت مريمة بهوس:

. احترس يا أبي، الأضرار ستكون جسيمة، لقد كلفني ترميم وتأثيث هذا المنزل الكثير من المال، ودفعت من أجله والسمسرة دم قلبي.

رمقها والدها بعينين حمراوين كالدّم قائلاً بغضب مفاجئ:

. وهل تظنين أنك ستمكثين هنا هانئة فيما لو أخفق شعيب في تفريق الشياطين؟ ستضيع عقول الناس، ولن يظلوا محتفظين بعقولهم إلا أصحاب

الدوائر السحرية، وهؤلاء ونحن سنرى أشياء فظيعة سوف تصيبنا بالجنون والتشويش.

. هل يعني هذا أن كل ما بنيته سيذهب ونعود لحالة التشرذم؟

. الأبنية والدور ستظل واقفة كما هي، لن تتزحزح السمسرة والمنزل من مكانهما، لكن أظن أن المجانين سيبيتون فيها؟ ستفقدن الزبائن يا بني، ولن تجدي رجالاً تغوينهم بعد اليوم، سنصبح جميعاً كالهائم.

خرجت ماما زكية عن صمتها وقالت متسائلة بفرع:

. هل أصبت بالجنون يا رعدان؟ إننا بالكاد التقينا، فكيف تقول إننا لن نستقر في منزل هادئ نقضي ما تبقى من حياتنا؟

. ليتني بقيت في السجن حتى لا أكون شاهداً ومشاركاً فيما يدور هنا، فخروجي مثل خروج سهم حاد من كنانته إلى بطن القوس، ثم إلى وسط كتلة ضخمة من الطين، فلا يخرج منها إلا إذا كانت الرمية قوية سديدة.

قالت الطاهية بسداجة:

. أنا لا أفهم كيف يمكن أن نكون كالهائم، أنا امرأة فقيرة لا تملك عائلة ولا حيوانات أليفة، وعلى افتراض أنني أملك دجاجات بلدية بقشء طالما حلمت باقتنائها قرب منزل خاص بي، كيف سأكون كدجاجاتي؟

اهتاج الشيخ رعدان في دائرته، وتحرك كالمجنون، حتى أفزعهم وكأنه يبحث عن شيء ما، لكنه كما توقعوا كان يبحث عن أسهل جواب يمكن أن يدخل إلى عقل الطاهية عن دجاجاتها البقشء، أخيراً قال بصوت مخيف:

. اسمعي أيتها الطاهية، لولا طعامك الشهي لحولتك الآن إلى دجاجة بقشاء
تجول في أزقة السوق وتلتهم القذارات خلف المنازل.

زفر غيظه ثم تابع القول كمعلم نافذ الصبر:

. سيتحول الناس إلى مجانين عرايا يهجرون القصور والمنازل، ويتوهون في
البراري كالحيوانات البرية بلا قيم أو أخلاق أو تقاليد.

.وماذا سيأكلون ويشربون؟

نظر الشيخ إلى سرحان صاحب هذا السؤال، وأجاب بكلمات ارتعدت لها
أوصال الجميع:

. سيأكلون أنفسهم لا محالة بعد أن تفتى الحيوانات ومخزون الطعام، ثم
تصبح الأرض خالية من البشر.

.ونحن علام سنقتات؟

رد بغضب وتهكم:

.على الخراء.

علا صوت ماما زكية الحنون الضارع:

.افعل شيئاً يا رعدان، أرجوك.

وتنازلت مريمة عن كبريائها وجثت على ركبتها:

.أبي أرجوك.

رفع الشيخ رعدان راحته في الهواء كالخطيب الذي يرجو لفت الانتباه لأهمية ما سيقول:

.عدوني ألا تتفرقوا وأن تعيشوا كعائلة واحدة، وأينما وضع هذا الرجل قدميه (أشار إلى سرحان) تضعان قدميكما خلفه، وكل ما في مخلاتي أوصي به للطفل صاحب التميمة. وإن عشت سأرافقه.

.أصدقني القول يا رعدان، ماذا تنوي أن تفعل؟

.حان الوقت لأفعل شيئاً لامعاً في تاريخي المثقل بالأخطاء، سألجأ إلى الطريقة الثالثة.

.الطريقة الثالثة؟

.نعم، المنديل السلিমاني.

اهتزت أوصال ماما زكية، ونفر الدم إلى وجه مريمة، واتضح له سريعا سبب انزعاجهما، فكلاهما تظنان أن المنديل كتاب سحري من أخطر الكتب على الإطلاق، ويقال إنه من صنيعه الشياطين أنفسهم، ولا يجرؤ أي ساحر على لمسه أو حتى التفكير في اقتنائه، لأنه في الأصل غير متوفر، ولا يوجد منه سوى صيته الذائع، وأشتات أخبار عنه هنا وهناك، هز الشيخ رعدان رأسه موافقا مفصحا إن المنديل السلیماني كاد يكون كتاباً أسطورياً متخيلاً، حتى عثر أحد أهالي قرية كولة شمر على كنز حميري في إحدى الخرائب، حيث وجده وسط حقيبة جلدية، فرماه الرجل في الجبل وهو يظنه مخطوطاً تافهاً لا أهمية له، كان ذلك المخطوط خالٍ من العنوان ومغطى بطبقة من الغبار،

وفي اليوم عينه عثر عليه راعٍ يجيد القراءة، وما إن وقع بصره على الرموز الأولى حتى وقع في غشية طويلة. انتقل بعد ذلك من كف إلى كف، حتى وقع في يد فقيه يجيد بعض فنون السحر، أدرك أهميته وخطره، لكنه لم يدرك أن بين يديه النسخة الوحيدة في الأرض من مخطوط المندل السلیماني، لذا أودعه خزانته ونسيه.

وحين مات هذا الرجل راح ورثته يقتسمون الوثائق والكتب، فوقع هذا الكتاب في يد الولد الأصغر الطائش الذي لا يجيد القراءة، فعرضه للبيع وتسلم أول بضع باولات، أنفقها في اليوم نفسه، وظن الرجل الذي ابتاعه - وهو سمسار صغير من مناخه- أنه خُدِع، ولفرط حنقه لم يفتحه أو ينظر إليه، وذهب نحو السوق ليدله للبيع، ويقبض ما يعرض عليه دون مساومة، وقبل أن يجد شاربياً، سمع عن مرض ابنته وتشنجاتها العصبية التي لا تأتي إلا بفعل عارض شيطاني سكن جسدها، وقابل أقاربه في الطريق وقادوها على متن حمار سريع إلى جبل مسار، وهناك دخلوا بها على رعدان الهري ليترد الشيطان عن جسدها، كان آنذاك معالجاً ذائع الصيت، يأتي إليه الناس زرافات ليخرج الشياطين من المسكونين ويفك السحر عن المسحورين، ولما بدأ يقرأ تعويذة صرف الشياطين صاح الشيطان من جسد الفتاة أنه لا يستطيع الخروج بسبب الكتاب الموجود في حوزة أحد الحاضرين، فطلب رعدان الكتاب وأخفاه في خزانة صغيرة، وبعد أيام أخرج الكتاب من الخزانة ونحاه جانباً في حجرته دون أن يكلف نفسه النظر إليه لراثته، ثم تذكر أن عليه أن يستحضر خُدَّامه بواسطة الخاتم لأمر ما لم يعد يتذكره، لكنهم صرخوا أن

يبعد الكتاب عن طريقهم، فأعاده إلى الخزانة، ولما سألهم عن سبب خوفهم من هذا المخطوط، قالوا بصوت واحد:

.كيف لا نخاف منه وهو المندل السليمانى!

وما لبث أن تعلم قراءة لغة المسند الحميري، وقرأ الكتاب بجرأة، فخضعت له رقاب الشياطين، وأصبح الرجل الثاني الذي استطاع أن يخضعهم لطاعته بعد الملك اليهودي سليمان، وتمكن إثر ذلك أن يضرب الدوائر السحرية حول المدن الكبيرة، ويفعل أشياء كثيرة عجز عن فعلها جميع السحرة في كل العصور. وقد أخفى هذا السر عن جميع البشر، حتى عن عائلته...

قاطعته ماما زكية صارخة بحنق:

.كيف تخفي عني شيئاً كهذا يا رعدان؟

.بم أخبرك يا زكية؟ أنا نفسي لازلت أشك أنه المندل، ثم إن هذا الكتاب هو من جعلني أصد جيوش الأتراك عن صنعاء وحراز، وفعلت ما عجزت الملوك عن فعله، حتى فكرت في لحظة طيش أن أسيطر على الأرض وأرمي سكانها في الفضاء السحيق.

.انظر كيف دبروا لك المكائد بعد كل ما فعلت من أجلهم!

.نعم، بعد خروج الغزاة ألقوا بي في السجن.

.لِمَ مكثت في السجن كل هذه المدة مادمت تملك كل هذه القدرات الخارقة؟ هل كنت حقاً في السجن أم في حضن امرأة صغيرة؟ لعلها طردتك في النهاية بعد أن أرهقت جسدها ببرودك وعجزك.

صاح الشيخ رعدان بأسى:

. اسكتي يا زكية، كيف ترتابين في نزاھتي بعد هذا العمر! لم أسألك أو ألومك على إھمالك في حراستي، لقد سجننت حقاً، كان الأوغاد يسقوني الخمر طيلة ثلاثين عاماً، حتى لا أفیق وأنكل بهم بتعاويذي، ثم إنهم سرقوا كل كتبي الخطيرة إلا هذا المخطوط الرث، فقد تركوه داخل مخلاتي، لظنهم بعدم أهميته.

. لكن كيف يتسنى لك فعل هذا بعد ثلاثين عاماً من الثمل؟

. أعرف أنني أستطيع أن أخوض بقبائلي الحرب ضد قبائل شعيب، مازالت التعاويذ تجري في دمي. احنوا رؤوسكم، لا تخرجوا عن الدوائر، ولا تتحركوا حتى لو رأيتموهم يمزقون جسدي. سترون أوھاما وخیالات كثيرة مؤثرة تهز أعماقكم فلا تهتموا.

والتفت إلى سرحان وصرخ في وجهه مضيفاً:

. وأنت أيها الأب الأخرق، ضع التميمة في عنق الطفل، لأنها ستحميه في مثل هذه الأوقات.

ورد بصره إلى وجوه الجميع مستأنفاً:

. والآن اكنموا أنفاسكم ثم اشهقوا وعبوا أكبر قدر من الهواء، لا تصدروا أي ضوضاء أو صراخ، هناك أشياء رخوة وكائنات مقززة قد تتساقط فوق أعناقكم من السقف. لا تخرجوا من دوائركم حتى يعود الهدوء.

وعب كمية كبيرة من الهواء وزفر بقوة، ثم أردف بصوت أمر:

.اجلبوا الموقد والبخور وأشعلوا السراج.

نفذوا ما طلبه بتهيب، فانتظر قليلا حتى حل الغروب، وبدأ يقرأ وكفه تنفث البخور في الموقد، شرعت أرضية المنزل تتزلزل، والجدران تتشقق، والأبواب تُصَفَق، وأوشك صرير الريح أن يصم الأذان، وصدرت أصوات شبحية مرعبة من كل مكان، وظلت النوافذ والأبواب المغلقة تُفتح وتُغلق بعنف، فانتابهم الهلع وقرفصوا في دوائرهم محاولين إشاحة الأوهام عن نفوسهم المشبعة بالخيالات الرهيبة. وظل الصبي الصغير يبكي بشكل مفاجئ ثم يتوقف ويناعي:

.خاخخخخخخخخخخ

كانوا يعرفون أنهم في خطر، ومشغولين بأنفسهم، لذلك لم يلتفت إليه أحد، لم يكن خطراً واحداً، بل أخطارا عديدة تحيط بهم من كل جانب، لا يعرفون مصدرها أو شكلها، ما لبثت أن وضحت الخيالات والأصوات بما لا يدعو للشك أنها تحدث، رعود وبروق بدون أمطار، صواعق، أضواء باهتة غريبة، شُهب يرونها عبر النوافذ القريبة تتراشق في كبد السماء، أدركوا أنهم وسط جحيم حرب مهيلة تدور حولهم بين فريقين شيطانيين، الأشياء الرخوة سقطت فوق أعناقهم من السقوف، فجأة صرخت الطاهية وخرجت من دائرتها وهي تمسح بتقزز ما علق على جسدها، فأمسكها طيف كائن ضخم وقادها خارج المنزل وصارت تتخبط كأنها مصابة بالصرع، وأخذ الطفل يناغي:

.غاغغغغغغغغغغ

سرعان ما تلاشى ضوء السراج واعتَمَت الأجواء، وغص المكان بالوحشة والأدخنة، صارت الجدران والسقوف تتصدع وتسقط، وبين لحظة وأخرى

يتوجسون سقوط حجر أو خشبة أو حتى جدار كامل فوق أجسادهم، لكن محتويات المنزل تطايرت وتناثرت حول الدوائر، وانكشفت أضواء شحيحة في السماء، وبدت النجوم كمصابيح فسفورية صفراء، ما لبثت أن اختفت وراء سحب سوداء داكنة، فأصبحوا لا يبصرون أكفهم، سمعوا عواء الذئاب، وفحيح الأفاعي يصدر عن كذب، بزغ جزء من القمر مخترقاً غيوماً سديمية قاتمة، تحيط به هالات سوداء من الأديم الغائم، وهنا رأوا الذئاب الشيطانية تمط رؤوسها نحو القرص الباهت النور، ثم اقتربت كاشفة عن أسنانها الباترة، استمرت تدور وتدور حول أجسادهم، ولا تتمكن من الوصول إليهم، إثر ذلك برزت رؤوس الأفاعي بين الحطام، بدت عيونها مستديرة ثائرة تلمع مع انعكاس الضوء من الأعلى على أجسادها الطويلة المموهة، ولا يدري سرحان كيف فطنت الحيوانات إلى انكسار دائرة الطاهية، بحيث تسلت إليها أعداد من الأفاعي وبعض الذئاب الرمادية التي وتزاحمت في تلك المساحة الضيقة، وأمست تبعث إليه نظراتها الجشعة المترقبة، فانكمش بموضعه مائلاً صوب دائرة مريمة، فيما ظلت تضاريس الأرض المحيطة بهم تظهر مع سطوع أضواء النيران، وتختفي كلما خمدت أو خبت. واستمر الشيخ رعدان يقرأ رغم العتمة حتى بح صوته وانخفض.

كانت ماما زكية وكذلك مريمة أكثر ثباتاً وفهماً لما يدور من سرحان، أما هو فقد أوشك أن يغادر دائرته حين رأى حوريات يفتحن أذرعهن وأرجلهن له خارج الدائرة، وكاد أن يغادرها حين رأى بناته الأربع يلوحن له بعتب من مكان قريب، سقطت دموعه وهو يرى حالهن السيئ، ثم استبعد أن يسافرن مسافة طويلة من أجل رؤيته، لحسن حظه أنه ظل متشبثاً بعقله. أشرق

الصباح، ولم يذق طعم النوم والراحة، على عكس المرأتين اللتين تغطان بالنوم دون خوف.

ضغط الخوف والقلق على مثانته وأمعائه، ولم يكن جميلاً أن يفرع حمولة بطنه الزائدة النتنة في ثيابه، فشجع نفسه وحبا متسللاً إلى الدائرة الوسطى الخاصة بالطعام، وأكل بعض الخبز والفاول البارد دون أن يصدر صوتاً حتى لا تفتيق المرأتان، ثم أسقط سرواله بعجل، وجلس يقضي حاجته في سلطانية الفول شبه الفارغة، ومضى يقول في سره ليخفف من غرابته وضعه: "هاأنذا أعيد إليك ما أخذته منك أيتها السلطانية".

فتحت مريمه عينها، فرأت مؤخرة الرجل أمامها، وسدت أنفها متقززة، ثم التقطت حصاه وقذفته بها، فهب فزعاً، واستدار، رأى وجهها ممتقعا يكاد ينز بالدم، فقال في سره: "مهما كابرت أيتها الفاتنة لا بد أن تكشفني مؤخرتك في هذا الموضع، أتمنى ألا يكون ذلك في الظلام، فمازال والدك في منتصف الكتاب". نظرت إليه بعبوس وتجهم غريبين، كان مشمراً ثوبه، بحيث رأت في جسده شيئاً تكرهه، بل وتخشاه وترعب من شكله كأنه أفعى سامة، ردت بصرها جانباً، وتمنت لو تجد فرصة سانحة لتبتر عضو هذا الرجل المتبجح، لكن الوقت لا يسمح. أغاظها أيضاً حين مسح دبره بقطعة خبز، وقرأ في عينها: "هذا البطران وأمثاله هم سبب المحن التي نمر بها، أعمالهم الطائشة تغضب الله وتؤدي إلى انحباس المطر".

كان سرحان على عكسها يفكر بشيء آخر، ويخاطب قطعة الخبز بصوت مسموع: "ينبغي أن أضعك في فمي وليس في دبري، لكني مجبر على فعل ذلك،

سألته مريمة بضجر:

.متى سينتهي كل هذا؟

.النصف الأخير هو الأصعب والألد.

نظر إليها ليرى الانطباع الذي تركته كلماته في وجهها، كانت متكدره ومتضايقه من ضغط ماثاتها وأمعائها، وأضاف والدها متكهنناً أسباب انزعاجها:

.لا آداب ولا قيم في مثل هذه الظروف، عند الحروب يصل الناس إلى مستوى الحيوانات المفترسة، بحيث يمزقون بعضهم البعض، لكنهم يخشون أن تنكشف مؤخراتهم أمام الآخرين.

ردت ماما زكية على زوجها باهتمام:

.لكن يا رعدان، المرأة كائن محتشم ومؤدب.

.المحتشم هو غائب، والغائب لا ينال شيئاً، لقد أدركت في السجن أن الغياب أمر خطير، بل هو الموت بعينه.

قالت مريمة:

.من اللائق أن يحتشم الرجل أيضاً، فهو يصول ويجول متباهياً بقدرته على إظهار مؤخرته المقرفة وذيله الذابل.

رد سرحان:

.طالما أفكر حول الجسد الآدمي، فأراه مجموعة أعضاء متصلة ببعضها، ثم لا أجد مبرراً حقيقياً لستر بعضها وكشف البعض الآخر.

. لا شك أنك لا تفرق بين فاك ودبرك، وهذا شأنك! لكني لا أحسب الإنسان إنساناً لو سار عارياً في الشارع.

. ما أعنيه هو أن الإنسان كلما كان بسيطاً في نظرتة لأعضاء جسده اقترب أكثر من الفطرة الكونية، قد أبدو لك مجنوناً، لكني على الأقل أفكر وأحلم بشيء مختلف عن المألوف.

. بل أنت مجنون حقاً، ومحطم من داخلك، روحك موحشة مثل خرابة تسكنها الأشباح والهوام، ولا أدري لِمَ ما زالت عالقة في جسدك بعد.

. وأنت وردة مفترسة لا رائحة لها ولا لون، تفتح براعمها لتصطاد النحل والفراش واليعاسيب، تنبت في الأراضي الجرداء وبطنون المقابر.

تدخل الشيخ رعدان لفض الملاسنة قائلاً بغضب:

. هيه، أنتما، توقفوا، مازال أمامنا وقت عصيب، فالحرب لم تحسم، والأخطار لم تأت بعد، لم تشاهدوا من الجمل غير الأذنين، والآن ينبغي أن تتصالحا، اقتريا من بعضكما، وتعانقا حتى يزول الشؤم، لقد فقدنا الطاهية ولا يتحتم أن نفقد شخصاً آخر، فالشقاق يورث الضعف والارتباك والشياطين تطارد أجساد الضعفاء والمضطربين، هيا تعانقا بإخلاص وادمجا جسديكما لكي تعود الأمور إلى نصابها.

. ماذا، نتعانق؟ هذا مُحال.

رد سرحان مكابراً:

. نتصافح بالأيدي.

.ماذا أفعل؟ غصبا، مازال في القلب بقايا مترسبة من الماضي.

.زليها حالا، واحترسي على نفسك.

عاد الشيخ رعدان إلى دائرته ثانية، ومضى يقرأ النصف الثاني من الكتاب. اهتزت الأرض بشدة، كان سرحان ومريمة غافلين مخدرين حتى هس الخطر وبش، وتبادت رؤوس الأفاعي، فركضا إلى دائرتيها واحتميا بها. جلسا هادئين في جو لطيف لا يعكره سوى أجساد طائرة وخيالات بشعة، تحوم فوق رؤوسهم كالوطاويط. تبدو على شكل أشخاص آدميين، محدودبة ظهورهم كالكهول البالغين أرذل العمر، كائنات سريعة تنقض كالأقذار المستعجلة، وفي كل انقضاض يخيل لهم أنها سوف تخطفهم كما تخطف العقبان القوارض، أو تقتلع رؤوسهم بأطرافها المعقوفة، وفي كل مرة تكاد تلامس رؤوسهم، كانت ماما زكية تئن وتتأوه بفعل ضغط مثنائها وأمعائها الشديد، وعلى نحو مباغت كشفت مؤخرتها، واتجهت إلى وسط الدائرة صائحة بألم، مرغمة على تجاوز الآداب، وما إن ابتعدت عن دائرتها قليلاً حتى خطفها كائن بشع وطار بها عالياً، وتناثرت فضلاتها في الهواء، قفزت مريمة خارج دائرتها صارخة بهلع، وهرول سرحان خلفها واحتواها بذراعيه ليحميها من الكائنات الطائرة، وغرقا في عناق حزين وعيونهما مشدودة للأعلى خلف جسد ماما زكية الصاعد نحو القمر. ثم انهارت على جسد سرحان دافنة وجهها فوق صدره، مجهشة بالبكاء، فضمها برفق وأغمض عينيه مستسلماً في انتظار الكائنات الطائرة التي هاجمتها يغيرها الضعف والحسرة في روح مريمة، ثم ارتدت عنهما بفعل قوة الحنان والحب المتدفق من جسد سرحان.

كان قلبه يخضل بالسعادة والأسى في آن، ولا يدري ما مبعث الاطمئنان الذي يشعر به. وقفا قليلاً متعانقين، ثم عاد كل منهما إلى دائرته، وبينما هما كذلك في حال من الحزن يتأملان الأفق، عاد الكائن الطائر حاملاً ماما زكية حتى وضعها خارج الدائرة، فبدأت ممدودة كالميتة، بينما الكائنات الطائرة مازالت تحوم في الجو، تحركت مريمة للأمام، وخاطر سرحان بنفسه ثانية وأعادها قسراً إلى دائرتها، ثم ربت على كتفها، وهمس في أذنها بخفوت:

.ابق مكانك، إنهم يودون أن نخرج من الدائرة.

استجابت وثبتت بموضعها، وهي تتحرق قلقاً وغماً، وسمع سرحان صغيره يناغي:

.ماممممممممممم

رآه فجأة يحبو مبتعداً، فتجمد للحظات، ثم قفز محاولاً إعادته إلى دائرته، لكن الصغير ابتعد عن المجال الذي يمكن إنقاذه. وتوقع الأب أن تخطفه الكائنات الشيطانية، وتأخذه بعيداً، وقد فوجئ بشدة أنها كانت تصرخ وتفر من طريقه، كأنه هو الذي يهاجمها، ظن في البداية أنها تسخر منهم، أو تتظاهر بالخوف، لكنها ظلت تتقهقر نافضة أجنحتها في الهواء بانزعاج واضح، لم تلبث أن اختفت عميقاً في السماء، وهرع سرحان ومريمة، وبذلاً مجهوداً كبيراً في سبيل زحزحة ماما زكية وسحبها إلى دائرتها.

كانت أمارات نجاتها ظاهرة، فتحت عينيها، ونظر الأب إلى ولده بإعجاب، بينما مازال الشيخ رعدان يقرأ، لا يلتفت إلى ما يدور حوله، في ذلك الوقت أنجز ثلثي الكتاب، في الثلث الأخير، باتت الروائح الكريهة تضرب أنوفهم، وتغشي

نفوسهم، تكورت مريمة، وأمست تقاوم ألما حادا ينبثق من المستقيم، كما
أوشكت مئانتها أن تنفجر، إلى متى تكابر؟

غاب القمر خلف سحابة رمادية، وتلاشى ضوءها، فتشجعت وزحفت إلى
وسط الدائرة، وأشارت إلى سرحان أن يوليها ظهره، ثم كشفت مؤخرتها،
وتنسمت رياحها، وفعلتها، وطال المطال. كان البول ينز ببطء، وبعد مدة ظلها
طويلة، التفت سرحان، حينئذٍ طلع القمر من وراء السحابة، وسطع نوره
باهياً، فنهضت مريمة، وأخذت تمسح إلتيمها المثيرتين بوشاح من صنع اليهود،
رأت الرجل يحملق فيها كالأبله، فاستدارت نحوه بغضب، ومضت تكيل له
الشتائم واللعنات، غافلة أن إزارها مازال مرفوعا، ولما نفذت الكلمات البذيئة
من قاموسها، وجدت بصره مازال موجهاً إلى وسطها، انتهت أخيراً، فأسقطت
ثوبها بارتباك، وصاحت وقد تورد خذاها:

. إلام تحدق أيها النذل؟

تقدم سرحان باتجاهها بلا وعي كحيوان وجذبها فدفعته بعيداً، وبسهولة
سقط قرب قدميها باكياً مشتعلاً بالرغبة، راح يقول بصوت غريب معذب
كأنما نطق به أحد الشياطين:

. أنا إنسان من لحم ودم، لست حجراً، ماذا فعلت يا إلهي حتى تمتحني
بواسطة هذه المرأة الجبارة؟ أنا أشتعل، أحترق، تحاصرني الشياطين،
سأموت قبل أن أدق جسد أنثى يهودية، جائع والثمار أمامي دانية، عطشان
ولعابك يتدفق فوق أضلعي، لكن الأشجار عالية والماء يفر من بين أصابعي.

ردت بجفاء وتهكم:

. باب الله واسع أيها الشيخ، أنصحك أن تذهب إلى المسجد، هناك كثير من المحسنين الذين يهبون الصدقات بسخاء، (وبغضب) هل كنت في يوم من الأيام شحاذاً؟ أم تحسب نفسك في بلاط الخليفة تقول شعراً وتنتظر العطاء؟

. أنا أحترق، من يطفئ ناري؟

تناولت مريمة قنينة من جوار والدتها الدائخة، وكبت الماء على رأسه وهي تقول بجنون:

. كلا، لن أدعك تحترق.

وهربت من أمامه وهي تضحك، صحا سرحان من حالته الغريبة، وانطفأ فعلاً شاعرا بحماقته، كانت عيناها تقول له مشجعة: "اتبعني إن كنت تستطيع"، لكن سرحان لم يجد في نفسه الرغبة على مجاراتها، لاسيما والأخطار مازالت محدقة بهم من كل جانب، كما أحس بعواقب مضايقتها، وخشي أن يتحول إلى أتان، فاكتفى بالقول مُخرجاً:

. لولا خوفي من الشياطين لجريت خلفك حتى نتخطى حدود البلاد.

. هيهات أن تنال مني.

. أعرف ذلك، أنت صعبة المنال.

حينئذٍ صرخت بقنوط:

. اسمع، هاأنذا أحذرك، لقد اصطدت رجالاً أصغر منك في السن، حاولوا التظاهر بأنهم مقيمون وعشاق، لكنهم في النهاية ظهروا على حقيقتهم جبناء وطامعين.

لاذ سرحان بالصمت، معاتباً نفسه كثيراً على تهوره، ظن أن المتاعب في طريقها إليه فيما لو طارد هذه المرأة، لا يبدو الطريق إلى قلبها آمناً. كان الشيخ رعدان يقرأ والطفل يناغي:

.خاخخخخخخخخخ

ومريمة تراقب خصمها بتجهم، فجأة أظلم الجو، وهبت رياح عاتية كادت تقتلعهم من أماكنهم، فتشبثا بجسد ماما زكية لأنها أضخم الجميع، وبعد الريح شبت النيران وأضاءت قرية السوق، ولمحت مريمة الصفحات القليلة المتبقية من كتاب المندل السليماني، فأيقنت أن المعركة الفاصلة بين الفريقين قد بدأت، فلجأت إلى دائرتها، وراحت تحصن نفسها بالتعاون التي تحفظها، ومع ذلك ظهرت الشياطين جهاراً، وتراشقت بصخور بأحجام المنازل، تجلى المحاربون بأجساد عملاقة كالجبال، أشكالهم فظيعة وأعدادهم غير متوقعة، بحيث سدوا الأفق وحجبوا ضوء القمر، عندما رفع سرحان بصره رأى خلال بصيص الألق الشفاف أجساداً عملاقة تناطح السحب، فأطلق صرخة وسقط في غيبوبة.

أضحت مريمة وماما زكية ترجفان بهلع وتتلوان التعاويذ المثبتة، بينما ارتفع صراخ الشياطين على بعضهم، وزلزلت أصواتهم القرى والعزب الواقعة بمحيط مدينة صنعاء، وسحقت أقدامهم الأشجار والزرور والمنازل، وبدأت

قذائفهم الضخمة تسَّاقط على السوق والقرية، ولم تكن القذائف سوى صخور بازلتية وجرانيتية اقتلعت من الجبال القريبة، وتراكمت بشكل غير طبيعي حول الدوائر السحرية.

لما توقفت المعركة، كانت المنطقة كلها قد دفنت بمئات من الصخور العملاقة. أضحى عشرات منها تحيط بأصحاب الدوائر السحرية متراكمة حولهم على شكل جدران عالية، بحيث لا يمكنهم الصعود دون معجزة. صارت الدوائر هي الثقب الوحيد المضيء المائل على السماء، وهكذا انتهت الكارثة. وهنا أغلق الشيخ رعدان الكتاب الرث، وعرج نحو رفاقه، ووجدهم مستلقين على الأرض كالموتى، وجوههم شاحبة مصفرة، تغطيهم طبقة كثيفة من الغبار، فأيقظهم، وراح يستحضر خُدامه بواسطة الخاتم، وبعد لحظات اضطربت الأرض تحت أقدامهم، وجاءوا متخفين، وقالوا بصوت ذي صدى غريب:

.مئة قبيلة في خدمتك سيدنا.

.أين التسعمائة المتبقية؟

.نفقوا في الحرب.

.هل تستطيعون إعادة الصخور إلى أماكنها وتطهير مخلفات الحرب؟

.نعم، نستطيع.

.كم يلزمكم من الوقت لفعل ذلك؟

.يوم واحد.

.ماذا! يوم واحد في حرب دامت نصف يوم..

.التعمير أصعب من التدمير، كل صخرة اقتلعت سوف نعيدها إلى مكانها،
مدينة صنعاء أضحت كمقلع الحجارة تغص بالصخور، فسُحقت قصورها
وبساتينها.

.لا ريب ستعيدون كل شيء إلى نصابه الصحيح.

.ما عدا الأرواح الفانية والاطمئنان، سيظل أهالي صنعاء وضواحيها مضطربين
مدوخين إلى الأبد.

.اذهبوا الآن.

وذهبوا لمزاولة أعمال التطهير والتعمير، وبقي الخمسة الأشخاص، إذا جاز أن
يحسب الطفل الصغير شخصاً مؤثراً، حيث ظل يناغي ويزحف حتى يصطدم
بأحد الصخور ثم يعود إلى جهة أخرى، نظروا إلى بعضهم بقلق بالغ، لأن
الصخور المتراكمة فوق رؤوسهم توشك على السقوط، ومن وهلة إلى أخرى
يسمعون أصوات تكسرات وانهيارات في محيط المكان، وفي أغلب الأحيان،
تفتت الصخرات الصغيرة تحت ضغط أخواتها العملاقة، فيحدث انهيار
صخري كبير يصل صوته وغباره إليهم، فانزوا تحت صخرة ضخمة في جانب
يظنون أنه أكثر تماسكاً من غيره، قرفصوا يلفهم الصمت والخوف، وجدوا
أنفسهم في موقف لم يتخيلوا أن يحدث لهم من قبل، ولا يظنون أنه سيتكرر،
مشهد غريب لأشخاص مختلفي الأعمار، جالسين بلا طعام أو شراب تحت
أكوام من الصخور، منتظرين الشياطين أن تنقدهم خلال يوم واحد. بعد
مرور الوقت، تفتقت الشكوك في نفس سرحان تفتق النبتة قرب ساق شجرة

موز، ماذا لو أخلف الشياطين وعودهم كما يفعل البشر، أو حدث شيء ما في عالمهم يعوقهم عن جلي الصخور.

.سيأتون، اطمئنوا.

رفع سرحان رأسه، فوجد الشيخ رعدان يحدق في وجهه بدعة واطمئنان، وأضاف بهدوء:

.لم يخذلني هؤلاء الخُدّام منذ ثلاثين عاماً.

.عجباً، البشر الأصغر والأضعف يستعبدون الشياطين الأكبر والأشد بأساً.

.لا تعجب أيها البشري، فأنت أكثر خبثاً وشرّاً من أي كائن في الكون، والشر طاقة لا يستهان بها في جسد الإنسان، لأنها تتنوع وتتلون، وأحياناً يأتي الشر مرتدياً رداء الخير، والعكس، فالشر والخير قناعان يرتدي كل منهما الآخر.

.أيوجد ما هو أكثر شرّاً مما نحن فيه الآن؟

.الأسوأ لم يحدث بعد، لقد خرجنا بأقل الخسائر الممكنة.

علقت مريمة على والدها متسائلة بعتب:

.والخير يا أشرار أين ذهبتم به؟

.لحسن الحظ أننا مازلنا أحياء بينما مئات من الصخور فوق رؤوسنا.

.هناك حكايات تقول إن أشخاصاً وقعوا في محنة تشبه محنتنا فقرروا أن يعترفوا بذنوبهم، وما إن ذكر كل شخص ذنبه بندم شديد حتى انزاحت عنهم المحنة وخرجوا سالمين.

نظر سرحان إلى المتكلم وهو الشيخ رعدان، ثم رد بصره إلى الأعلى محدقاً في الصخور، وقال بيأس:

.ذنوبي كثيرة، ولا أدري أي ذنب فادح هو الأجدر بالاعتراف، كما أنني درجت على تجاهل أخطائي حتى أتخفف من ثقلها في نفسي. إنها أثقل من الصخور التي في الأعلى.

رمقت مريمة إليه شزرا وردت باستنكار:

.هاه، ماذا؟ تتجاهل ذنوبك الآن! أليس التحرش بي ومهاجمتي فوق التورة ذنباً يستحق الاعتراف؟ ألا ينبغي أن تطلب مني الصّفح لتزول عن كاهلك أثقال الوزر؟

نفر الدم إلى وجه سرحان ومال إلى الصخرة واحتضنها منشداً:

.إذا لم تسامحني الصخرة، لن أسامح نفسي، ذنبي أنني حسبتك حصاة،

واقتربت منك بما لا يكفي لأعلم أنك صخرة، سامحيني لأنني أحبك.

ضحك الشيخ رعدان وقال:

.أتحب ابنتي العنيدة أيها المسكين؟ أنا أحبها أيضاً رغم ذلك، إنها في الثلاثين من العمر، وهي سنوات النزق والشباب، لاسيما إذا كان المرء يقف في نقطة وسطى بين معتقداته الصارمة عن الحياة وبين أحلامه ونزواته، وعند هذه الحالة يدور صراع في أعماقه، ويعيش مشوشاً.

.أرجوك يا أبي، لا تنظر إليّ كطفلة صغيرة طائشة، أنت لا تعرف شيئاً عما يجري في أعماقي، لأنك غبت مدة طويلة من الزمن في السجن.

عجز الشيخ رعدان عن الرد، ظهر الخجل على ملامحه كراية حمراء، لكنه ما لبث أن ضحك، ونظر إلى وجه سرحان المشبوب بالوله والهيام، وفكر في أمره، لا ريب أنه يهدد صفاء ذهن مريمة، ويحاول جاهداً أن يجرفها إلى عالم الرجال ونزواتهم، لكن المسكين فعلاً أمام صخرة صماء.

تابعت مريمة مخاطبة والدها بتجهم:

. لا أدري بعد، لِمَ تتحالف مع غريب، وتتغاضى عن أفعاله، بينما هو يسيء دوماً إلى ابنتك، ويتغزل بها ويصفها بالصخرة!

. لا تحسبيني جاهلاً يتصرف كيفما اتفق، كل شيء له سبب يا بني، ليست صدفة أن ألتقي بهذا الرجل وطفله، هناك أسرار ونبوءات قديمة يطول شرحها ويصعب فهمها، وتدور حول صبي وتميمة حارسة، ولا يسعفني الوقت والحال للإفصاح عنها، فنحن محشورون تحت ركام الصخور.

. هذا الصبي لديه نظرات غامضة شريرة، ويحمل تميمة تبدو قديمة جداً، أهو الصبي المنشود؟

. أين هو الآن؟

سأل الشيخ رعدان بعجب، فقفز سرحان المحتضن للصخرة، وجعل يجول هنا وهناك باحثاً عنه، وسيطر عليهم الغم والهلع، وراحوا يجولون في تلك المساحة الصغيرة، وراحوا يقلبون عيونهم يميناً ويساراً، ونحو الأعلى أيضاً.

صاحت مريمة فيهم بغضب:

. إلام تنظرون؟ للأعلى! نحن لا نبحث عن فرخ طائر، انظروا إلى أسفل الصخور.

انبطحوا جميعاً أمام الصخور، وأخذوا يتفرسون في الفجوات السفلى، وسجدت مريمة على نحو مغرٍ آثار دماء سرحان، لكنه كان منشغلاً بالصغير التائه، وأمسى الشيخ رعدان يتحرك بقلق شديد ويقول:

.هيا فكروا كيف نستعيد الصغير قبل أن تنزلق عليه صخرة.

وفكر في استدعاء الشياطين، لكنهم لا يأتون إلا مرة واحدة في اليوم. وخطرت في رأس مريمة فكرة جنونية، وهي أن يقوم والدها بتحويل أحدهم إلى سحلية صغيرة أو حردون، فيدخل لكي يستكشف مكان الصغير، وخشي سرحان أن يقع عليه الاختيار لهذه المهمة، لكن مريمة أبدت استعدادها للتحويل، وظل والدها يقرأ التعاويذ الغريبة بعض الوقت، ثم نفخ في ابنته نفخة قوية، فاخفت، ورأوها على شكل سحلية جبلية، غاصت بين الصخور وظلوا ينتظرون عودتها، وبعد وقت طويل شاهدوا السحلية تخرج من مكان قريب والطفل وراءها يحبو، فأسرع والده وحمله وسار به إلى الجهة الأخرى، وكان شيئاً ما يتعقبه. وكادوا ينسون أمر السحلية حتى انتهت ماما زكية وصرخت في زوجها:

.انس أمر الصبي، وأعد مريمة قبل أن ندوسها بأقدامنا دون أن نشعر.

.أوه، نعم.

. نعم، طفل مسكين، ستحملينه مدة كافية، تعلمين أن الرجال يضجرون من الأطفال سريعاً، قريباً سيتوسل إليك أن تساعدته على رعايته.

وحل الغروب، وأخذ الخوف والقلق ينهشان نفوسهم، فالثعابين تلوذ بالصخور بحثاً عن القوارض، ومع ذلك يمكنهم تجنب الزواحف بالتعاون، المعضلة الكبرى هي الطعام، لا يجدون ما يأكلونه، فأخذوا يجمعون الفتات من الأرض، وعثر سرحان على قطعة الخبز التي مسح بها دبره في وقت سابق، فأكلها بنهم مفرط، وظل الطفل يبكي، وسرحان يهدده، وراح يمشي ليحفزه على النوم. لكن دون جدوى، توسل إلى الشيخ رعدان أن يوقف عويل الصغير بإحدى التعاويذ، لكن الساحر أخبره أنه لا يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحياة، لأن ذلك يضعف من جاذبية السحر، على الظواهر أن تأخذ دورتها الطبيعية، وقليل من الصبر والحكمة، يكفي لإنهاء مشكلة البكاء. ولكن غضب وضجر الأب حال دون الغاية المنشودة، ولما أعياه الأمر، وضع الصغير جانباً، وتمدد على الأرض خائر القوى، وهنا واتت مريمة الفرصة، فأتت ووضعته على حجرها الناعم الدافئ، وغنت له إحدى الأغاني التي سمعت جارتها تردها على طفلها، وسرعان ما غفا الصغير. فنامت باطمئنان في وضعية مائلة، كانت الوحيدة التي استطاعت النوم، بينما بقي الرجلان يراقبان الصخور الجاثمة فوق رؤوسهم، وعند الفجر كانوا نائمين في وضعيات مختلفة، ثم لم توقظهم إلا أشعة الشمس اللاذعة التي دخلت عليهم من نوافذ منزل مريمة، وحين أفاقوا ظنوا أن ما مروا به كان حلماً فظيلاً.

خرجت زكية من الحمام وهي تدندن بصوت خفيض، شعرها ملفوف وسط منشفة صوفية عتيقة، تعجبت من السكون المحلق على الطبقة الأرضية، سارت نحو الغرفة لا يساورها أي شك، تناولت المشط وجعلت ترتب شعرها، ثم شعرت بارتجاج الأرض واهتزاز النوافذ، تذكرت أنها انزلت في الحمام وسقط وعاء الماء من يدها، لكنها ظنت أن ذلك بفعل البلل وانهماكها في الغناء، التفتت حالاً إلى زاوية الغرفة حيث يقبع صغيرها هناك، وسرعان ما استقامت بفجاعة مطلقة صوتاً مريعاً، جعلت تدور بأرجاء الغرفة كالمجنونة، ثم خرجت إلى الغرف المجاورة وفتشتها، رفعت صوتها بالنداء ولا مجيب، في ذلك الوقت من كل يوم تكون الخادومات منتشرات يكنسن وينظفن الغرف، وقد يأخذن الصغير إلى صدورهن ويلعبنه خلسة عن عيني كبيرة الخادومات الصارمة، يتحدثن إليها بتوق عن الأمومة والزواج، وأكثر الخادومات تعلقاً بالصغير هي كوكب، وقد تملك الجرأة على حمله إلى غرفتها، مضت زكية تحدث نفسها وهي تسير في الفناء الفسيح ولا تلتفت إلى الجنود المسرعين جيئةً وذهاباً، اتجهت تواءً إلى الغرف الجانبية الصغيرة، وهناك وجدت الخادومات مكومات بذعر قرب النوافذ، ينظرن إلى الخارج بانفعال، قفزت صوب خادمة سمراء رقيقة، وأمسكت بذراعها وسألتها بصوت مخنوق:

هل أخذت طفلي يا كوكب؟

أجابت الخادمة باغتمام:

.لا.. هناك أمور غريبة تحصل هذا اليوم، انظري هناك.

نظرت إلى حيث أشارت الخادمة، ورأت النيران المشتعلة في غرفة شعيب ولم تتأثر، وصرخت بتوتر:

.طفلي مفقود، لا أكثرث أن تلتهم النار كل القصور.

أخذت تستفسر الخادماوات الأخريات بصوت مشتت:

.طفلي مفقود، هل رأيت إحداكن زوجي سرحان أو رفيقه الكبير عون؟

تقدمت منها كبيرة الخادماوات السميننة الجاحظة العينين وقالت بصوت أجش كأنه لقاطع طريق:

.زوجك وصاحبه تقدما بطلب الخدمة في قصور الأميرات بعد أن شبعنا من أجساد الخادماوات الغيبات.

.أعرف أنهما كلبان، أنا لا أهتم سوى بصغيري وحسب.

قهقهت كبيرة الخادماوات قبل أن تقول بتشفٍ:

.الغبيان ذهبوا إلى القاطع ليتطهروا من الأوزار.

.لا شأن لي بهما، أريد طفلي، هل تدليني على زوجي؟

.زوجك؟ لم يعد كذلك، لم يعد رجلاً الآن، لقد خسر ذكره، هل تفهمين؟

.لا تهزئين بي، طفلي مفقود...

قاطعتها كبيرة الخادماوات وصاحت مخاطبة من حولها بغضب:

.امنحن المسكينة ملابس خادمة، لأرهبها زوجها.

ارتدت زكية ملابس خادمة، وخرجت خلف كبيرة الخادومات، وهي تتلفت حولها بيأس، اجتازت باب قصور الأميرات دون أن ينظر الحراس المرتبكون إلى وجهها، انعطفتا نحو زاوية في الفناء حتى ظهر باب صغير دخلتاه، وغاصتا وسط ممر طويل، أخيراً وقفتا أمام خادم أسود مفتول العضلات عارٍ، قفزت عينا زكية إلى بين فخذيته، ولم تر شيئاً سوى عانة مشعرة كأنها لحية رجل مشجوج الوجه، تذكرت الجندي عاكف، وفكرت بيأس في علاقتها وسرحان، وانتابها الحزن، وقفت أمام الكبير عون في غرفة جانبية، كان مستلقٍ على الأرض غارقاً في الخدر والألم، بينما كانت كبيرة الخادومات تتلفت حولها بقلق مسددة بصرها على الجدران وكأنها تبحث عن مسمار لا عن رجل، مال الكبير عون على جنبه محاولاً إخفاء عاهته الجديدة، وتحاشى النظر في وجه المرأتين بقنوط، شرعت زكية تصيح في وجهه بهوس:

.كبير عون، طفلي مفقود، أين سرحان؟

خرج صوته المرهق:

.انصرفي من أمامي، لا أريد أن أرى أي أحد.

.اختفى الصغير المبارك من الغرفة، أرجوك، دلني على زوجي.

.لا أدري، ليس هنا. ألا ترين؟ لا أحد.

قفزت إلى الخارج، وجعلت تدور في الفناء بجنون، فجأة رأت جندياً يجري حاملاً شيئاً مطويّاً داخل خِرْقٍ ملونة، عرفت القماش الذي كانت تطوي به طفلها، فانطلقت تعدو خلف الجندي وهي تصيح:

لِمَ تسرقون طفلي أيها الأوغاد، إنه طفل مبارك، ستتأذون جميعاً.

أخيراً توقفت لاهثة قرب باب الغرفة التي دخلها الجندي، انتظرت حتى خرج، وتعلقت بثيابه قائلة بضراعة:

طفلي، أرجوك..

ضربها الجندي بعقب بندقيته وهو يقول بقسوة:

ابتعدي، هذا الصبي مطلوب، وكاد أن يفر بمعية أحد السحرة خارج القصر.

أرجوك، دعني أرضعه، سيموت جوعاً.

لا شأن لي، خاطبي الأميرة شوق بذلك.

ثم دفعها بعيداً عنه، راحت تجري في الفناء، حتى رأت الأميرة شوق والسحرة يتناقشون بغضب، كانوا يشيرون إلى الغرفة المشتعلة بحنق، دون أن تعيرهم الأميرة أذناً صاغية، وفجأة تعلقت زكية بثياب الأميرة وهي تبكي:

لِمَ خطفتم طفلي؟

سحما الجنود جانباً، ونظرت الأميرة شوق إليها بغضب قبل أن تجيب:

هذا الصغير لا ينبغي أن يغادر القصر، كاد أن يفر بمعية رجل معتوه وساحر

مسن.

.ذلك المعتوه هو زوجي سرحان، لا ريب في ذلك.

.زوجك؟ لقد تنازل عن الطفل بسهولة، وقد سحبه الشيخ بعيداً، وفرا من البوابة على نحو مريب. (وصمتت قليلاً ثم صاحت على الجنود بهوس) انظروا هل مازال الطفل في الغرفة. إننا نتعامل هنا مع سحرة خطيرين.

غاب الجنود للحظات، ثم عادوا ممسكين بالجندي الحارس، وهتفوا بانكسار:

.لا شيء غير الخرق الملونة.

سألت الأميرة شوق الحارس بسخط:

.هل دخل أحد غيرك إلى الغرفة؟

.لا أيتها المبعجلة. لم يدخل أحد.

نظرت باغتمام إلى السحرة وصرخت بحسرة:

. انظروا ماذا فعلتم، لقد سمحت للشيخ المسن أن يغادر، فخدعني وأخذ

الطفل بعيداً. ماذا نفعل الآن؟

.أين طفلي؟ أريد طفلي...

. احشروها هذه المرأة الثرثارة بين الخادמות ونادوا للقبض على الشيخ المخادع

وذلك الرجل وطفله.

أخذها الجنود بالقوة وهي تقاوم عبثاً، وساروا بها إلى غرف الخادمت ورموها هناك، وأوصدوا الأبواب، فجأة اهتزت الأرض، حتى سقطت الأميرة شوق والسحرة أرضاً، وراحت تقول لهم أمرة:

.عليكم أن تقوموا بحماية جميع سكان القصور.

.والناس...

.الله وحده يحميهم، لن أسمح لأحد بمغادرة هذا المكان.

صمتوا على مضمض، وشرعوا يقيمون الدوائر السحرية حول الفناء، واستغرق هذا بعض الوقت، أرادوا أن يحموا أنفسهم أيضاً، مضت الساعات الأخيرة من اليوم بسلام، ومضى اليوم التالي على نفس المنوال، إلا أن السحرة راحوا يحسبون ويعدون الساعات الحاسمة، وفي اليوم الثالث سدوا آذانهم متوقعين النهاية، وحدث اهتزاز عنيف قذف بالأبواب والنوافذ إلى الخارج، وخرج الأمير الأكبر منحنياً صارخاً، وجميع الأمراء كذلك خرجوا والأميرات والخدم والجنود اختلطوا دون مراعاة للفوارق، لم يعد أحد يفكر إلا بنفسه، وساد الصباح، وراح السحرة يشيرون إليهم أن يصمتوا، لكن كان من المحال السيطرة على مئات من الأشخاص الخائفين المشتتين في المكان، وفي الصباح التالي، أقبلت الأشكال المرعبة من جميع الجهات، ووقفت على حواف سور الفناء، ورغم ذلك تسللت زكية وراحت تجري في الفناء، رأت الكبير عون منحنياً يتحاشى النظر إلى الكائنات المخيفة التي تحيط بهم، لكزته وهي تقول بنبرات حادة:

.كبير عون، لنخرج من هذا المكان اللعين.

.ألا ترين هذه الكائنات البشعة؟

.لا تخف منها، إنها كائنات سحرية غير مؤذية، هيا بنا نلحق بسرحان والطفل.

خرجا من البوابة، وفي الخارج كانت الكائنات تنقض على رؤوس المارة، وصار الناس يتخبطون، أرادا العودة إلى الخلف، لكن كائنان طائران انقضا عليهما، وبعد لحظات أخذا يتخبطان، وفقدا الإحساس بالزمان والمكان، وراحا يجريان في شوارع المدينة بلا هدف بين آلاف من الأهالي، قادهم السير إلى البوابة الخارجية للمدينة، وغاصا وسط زحام خانق سقط فيه العجزة والأطفال تحت الأقدام، حتى خرجا أخيراً للعراء منهكين، تنفسا الهواء النقي في فضاء مفتوح مكسو بألوان من الأشجار البرية.

وفي اليوم الرابع، وبينما هما يأكلان بعض الوريقات على شجرة غير مثمرة سمعا صوتا رهيبا يتردد خلفهم بشكل متواصل: بووووم.. بووووم.. بووووم. هربا ضمن قطع كبير من المجانين، والأصوات تطاردهم. رأيا أشخاصاً خلفهم يحملون بأيديهم شيئاً ينفجر في الهواء، ولم يتوقفا عن الجري حتى ستر بينهم وبين مطاردتهم الظلام، وبلغوا رؤوس بعض الهضاب البعيدة. ومع ذلك لم يفترقا.

كان الأمراء والسحرة قد نجوا من الكائنات الطائرة، وخرجوا إلى وسط المدينة، رأوا الناس يتسلقون حيطان المنازل، ويركضون في الأزقة،

ويتصارعون على الإناث أو يلعبون، والمراهقون منهم يحاولون القفز فوق ظهور النساء بلا حشمة محاولين التزاوج، لكن الأقوياء يهجمون عليهم بشدة ويدفعونهم بعيداً، ويحلون مكانهم ويمزقون ثيابهن المحاكة بقماش جافي من الدمس الأسود، بحيث يظهر تحته بياض البشرة الناعمة مغرياً، يرفع الذكور مآزرهم، وتظهر أعضاؤهم المنتصبة، ويتدافعون قرب المؤخرات الشابة البضة، ويقتتلون حتى تفر الإناث بعيداً وأردافهن تتماوج وأثدائهن تقفز قفزات شاذة مرتبكة، يفوز بعض المراهقين والشباب الجامحين، ويعتلون ظهورهن وينكحوهن بجموح وسرعة قبل أن يأتي الرجال المتنازعون، بدا هذا الأمر في نظر الأمير الأكبر سلوكاً خارقاً للفطرة البشرية وللشرائع السماوية، ولطم وجهه بقسوة وصرخ في وجوه السحرة قائلاً بثورة:

. ماذا جرى لرعاياي حتى يختلط الرجال والنساء هكذا ويتصرفون كالبهائم دون أي وازع ديني أو أخلاقي؟

أجاب قاسم الوضري هامساً بارتباك:

. إنهم لا يعون شيئاً أيها المبجل، لقد أعطبت الشياطين عقولهم.

. ماذا يعني ذلك؟ هل هم مرضى؟

. بل هم مجانين أيها المبجل.

. ألم تضعوا دوائر سحرية حول المدينة أيها الحمقى؟

. لا، لم يأمرنا بذلك أحد، لقد حشرنا بالداخل، ومنعتنا الأميرة شوق من الخروج.

التفت الأمير الأكبر إلى ابنته شوق، ونظر إليها بغضب، وصاح لأول مرة في وجهها:

. انظري عواقب طيشك أيتها الفاجرة، الآن نحكم قطعاناً من المجانين ينشرون الرذيلة ويتناكحون في الأزقة كالكلاب، يا لي من معتوه حين ركنت إليك في هذا الأمر، لا ريب أن الله غاضب على هذه البلاد، وأنزل علينا عذاباً لم يمس أحداً من الطغاة الأولين، غفرانك يا رب، غفرانك..

ظلت الأميرة واجمة خرساء، بينما راح والدها الأمير يتلفت حوله بذعر ويتابع مخاطباً السحرة باغتمام:

. ماذا عن أهالي الألوية الأخرى؟ هل أصيبوا بالجنون؟

. لا ندري يا سيدي.

بدوا مرتبكين خائفين، وملامحهم تشي بالتردد، فصاح الأمير بغیظ:

. أخبروني الحقيقة وإلا أمرت بحرقكم الآن.

. الحقيقة أيها المبجل، ما نعلمه هو أن لا إنسان في هذه البلاد مازال يحتفظ بعقله حتى الآن، لكن ما حدث في اليوم الرابع، كنا نتوقع حدوثه في اليوم الثالث، وهذا ينم عن شيء ما أعاق الشياطين.

التفت الأمير الأكبر إلى الجنود وصاح بيأس:

. نادوا على أصحاب القلاع المجاورة، وانظروا هل يجيبون النداء.

صعد المنادون إلى قمم المآذن، ورفعوا النداء إلى قلعة بيت بوس، ثم إلى حصن الروضة، وإلى جبل نقم، وإلى قرية سنح، وانتظروا قليلاً ثم أعادوا النداء مراراً، دون أن يسمعوهم رداً، ثم هبطوا ووجههم كالحصير الأسود، واقتربوا من الأمير الأكبر وانحنوا قائلين بانكسار المذنبين:

.أيها المبجل، لا أحد يجيب علينا.

.آآآاه، الآن أزيلوا الخراء الذي صنعتموه، واختاروا من تشاءون ليحكم هذا القطيع المجنون.

وأخذ جسد الأمير الأكبر يتمايل، فأسرع الأمراء ورجال الإمارة إليه وأمسكوه قبل أن يهوي، ثم حملوه على محفة أميرية إلى قصره، وحف حوله السحرة والمعالجون، وراحوا يسقونه عقاقيرهم المسكنة للآلام، لكنهم عجزوا عن شفائه، وبقي عليلاً على فراشه، واجتمع الأمراء في عصر ذلك اليوم، ولم يتفقوا على الشخص المناسب للحكم، لكنهم رأوا أن الأهالي لم يعودوا صالحين كرعايا، واتفقوا على تنفيذ أمر الأمير الأكبر بتطهير المدينة منهم، والقوا أوامرهم إلى الجنود بتعقب المجانين وقتلهم، وصار كل أمير يبرز نفسه، ويحاول أن يكون جديراً بالحكم، متجاهلين الأمير الناصر أمير لواء تعز الذي صار حسب التراتبية العائلية ولي العهد الشرعي، بل أفصح البعض ساخراً إنه دون شك يسير في العراء ضمن القطيع المجنون، جزء آخر من الأمراء أحجموا عن المنافسة رغم أهليتهم لها، وقالوا إن حكم شعب مجنون أمر لا يستحق النزاع، واستتوا يفكرون في حياتهم الخاصة، ومنهم الأمير محمد بن القاسم وابنة عمه الأميرة شوق، إذ أتى إليها ليحدثها عما يجول في نفسه بشأن

الخطوبة، ووافقت دون تردد بعد أن أُعِيِي في ملاحقتها زمنًا طويلاً، وقفت وإياه أمام فراش والدها المريض الذي بارك خطوبتهما، وطلب منهما تعجيل الزواج للحفاظ على تناسل العائلة الأميرية ووقايتها من الانقراض، وسألها عما يجري في الألوية الأخرى، وشعر بالاكْتئاب حين أدرك ألا أخبار جديدة، والتفت إلى قاسم الوضري وخاطبه بوهن:

.أظن أن كل شيء انتهى.

.....

هل تستطيع التنبؤ بالمستقبل يا قاسم؟

.نعم أيها المبجل، أضرب الرمل، وأقرأ الكف والجبين وأكشف الفأل.

قفزت الأميرة شوق إلى الأمام بتشاؤم وقالت متوسلة:

.لندع الأقدار وشأنها يا أبي، لا أريد أن نحك الجرح أكثر.

صاح والدها بكل ما بقي لديه من طاقة:

.بل أريد أن أعرف قبل أن أموت، تنبأ أيها الساحر بأسهل الطرق.

أخرج قاسم الوضري حبات من اللؤلؤ والكهرمان الأسود والأحمر والأبيض، وتلا عليها كلاماً غريباً، ثم نثرها على الأرض، وأشرق وجهه قليلاً ثم أربد بشدة، وظل يتأمل الحبات الملونة المستقرة على الأرض، وصدر صوت الأمير الأكبر واهناً:

.تكلم، وجهك أشرق ثم أربد، لا تخدعني كما فعل عوفان الساحر.

. نعم، هناك حبات بيضاء متناثرة هنا، ما ينم عن أن أهالي الألوية لسبب ما لم يتأثروا بما حدث في صنعاء، ولكن الكارثة الكبرى لم تحل بعد.

أشار واجماً إلى كومة كبيرة من الكهرمان الأسود تجمعت على قاع منبسط من أرضية الغرفة، ولم تشذ منها سوى حبة كهرمان سوداء صغيرة تقدمت عنها ببضع إنشات، وأوضح بدهشة:

. انظروا، هذي عشرون حبة كهرمان سوداء كبيرة، وهذه حبة واحدة صغيرة تشير إلى ما حدث الآن.

. وهل ستحدث الكارثة هنا أيضاً؟

. أيها الأحمق، لا فرق بين أن تحدث وسط مدينة أو في صحراء، لأن ضررها شامل لن ينجو منه أحد.

أمسك الجنود الساحر الغاضب بعنف، فأشار الأمير أن يتركوه له وسأله:

. أين تظنها ستحدث ولك مني العفو؟

هدأ روع قاسم الوضري، وأخذ يحسب المسافة بعينه وأخيراً أجاب وهو يهز رأسه بتوتر:

. أظنها في القاع الخصيب الذي جاء في وثائق عوفان، قريب من موضع ذلك الطفل نفسه الذي فر من هنا، نعم، هناك في قاع الحقل.. أليس ذلك الطفل من قضاء يريم؟

سكت الأمير الأكبر، ورد وجهه بياس إلى الناحية الأخرى وكأن الأمر لا يعنيه.

(12)

أخذوا حاجيات السفر وتسللوا إلى الخارج، هالهم الهدوء المسيطر على قرية السوق، مشوا مندهشين في السوق الخالي من الحركة والمتسوقين، حيث يرتاده أهالي القرى المجاورة يوم الخميس، وفي الأيام الأخرى لا يخلو أيضاً من الأهالي والمسافرين، يكون الأطفال في الغالب يتصفحون وجوه الغرباء على النوافذ، أو يلعبون قرب أبواب منازلهم. أما في هذا اليوم وهو الاثنين كان السوق هادئاً لا يظهر فيه حس لإنسان غيرهم! كانت أبواب المنازل المجاورة مفتوحة، وكذلك الزرائب، وكأن السكان وحيواناتهم هاجروا ليلاً، أو مختبئين في مخازنهم المظلمة، كانت السمسرة خالية أيضاً من المسافرين، أغراضهم فقط ما زالت قرب دكاك نومهم. أين ذهبوا يا ترى؟ تساءلت مريمة في سرها.

بمشارف القرية على أحد الشعاب، رأوا بعض الأشخاص يطاردون حيواناً. عرفتهم مريمة بأسمائهم، رأت الرجال والنساء مختلطين دون عوائق اجتماعية أو دينية، كان الذكور يقفزون ويحاولون امتطاء ظهور النساء بشكل غريب، اقتربت ونادتهم. لم يجب عليها أحد. بدوا سادرين زائغي الأبصار، ثم أجفلوا منها بعيداً، عند شجرة طولق رأت أحد الرجال راكبا الطاهية في وضع قائم، ويصدران تأوهات متتالية سعيدة، بينما بعض نزلاء السمسرة بالقرب مقرفصين كالقردة يقتاتون من ثمارها وكان شيئاً لا يحدث، اشمأزت مما رأت، ولم تجرؤ على الاقتراب لمنعهما عن ممارسة ذلك الفعل الفاضح، نظرت إلى والدها وصرخت في وجهه:

. انظر إلى ما يدور تحت الشجرة، هل يسرك ذلك؟

. هذه نزوة عابرة ستزول، أهذا كل ما يحزنك في شأنهم؟

صاحت بعصبية:

. ماذا فعلت بالناس أيها العجوز؟

أجاب بنزق مماثل:

. فعلت ما في وسعي لإنقاذ ما يمكن من البشر، هؤلاء التعساء كانوا في طريق الشياطين، كانت الكارثة ستكون أعم وأشمل، ولولا تدخلني بواسطة كتاب المندل، وإيقافي شياطين شعيب عند حدودهم، لن تجدي في الأرض إنساناً يبادلك الكلام.

أخذت تتحدث بيأس عن خسارتها لمنزلها، والاستقرار الذي كان يوفره لها المال الذي كانت تجنيه من السمسرة، أحجمت عن السير، وراحت تتساءل عن المكان الذي يقودونها إليه، مفصحة عن رفضها الشديد أن تعود إلى جبل مسار إن كان والدها يفكر في ذلك. أخيراً أصابها التعب وسكتت، فتحدث سرحان عن قريته الخصيبة، وعن منزل زكية الرحب، وعن الأهالي الطيبين الذين يبشون في وجوه الضيوف، وهناك يستطيع الشيخ رعدان أن يعالج المرضى ويطرد الشياطين من رؤوس الممسوسين، وسوف يعيشون معاً في المنزل الكبير قرب هذا الصغير، ولن يكونوا وحيدين في القرية، لأن هنالك عائلات يهودية تعيش بدعة وسلام، وظل سرحان يثرثر بأمور شتى عن شئون

قريته وأهلها، ويصفهم بالطيبة أحياناً، وفي طيات كلامه يشير إلى خبثهم
وصلفهم في بعض الأمور، وأبدت مريمة قلقها قائلة بشك:

.أخشى أن يكون أهالي القيعان خشنين مثل أهالي الجبال.

قفز سرحان إلى الخلف مقطب الوجه ورد باستنكار:

. من العار أن ترتابي من طيبة أهالي قريتي، سوف تُستقبلون بالترحاب،
وتنالون الاحترام، أوكد لك ذلك.

.لا تتحدثون عن شيء سنراه عما قريب.

وتحولوا للحديث عن موضوع آخر، ونسوا أمر القرية وأهلها، ظلوا يسرون
على طرق وعرة، وكلما عبروا قرية أو عِزْبَة وجدوا أهلها أخف جنوناً، كانت
أعراض الجنون تقل كلما ابتعدوا عن لواء صنعاء، وعثروا على أتان هزيلة
ضالة في موضع معزول، فأخذوها من أجل الطفل، وساروا في طريقهم
هابطين من الهضاب الجرداء القاحلة، استبشروا خيراً حين رأوا بعض
الفلاحين في قاع جهران يحرثون الأرض. كان الناس يباشرون أعمالهم بشكل
طبيعي، والرعاة منتشرون وأغنامهم على الهضاب الصغيرة، يرددون أغانيهم
المألوفة. استوقفهم راعٍ كبير السن، وسألهم عن أحوال المناطق الجبلية التي
جاءوا منها. وفي مدينة "معبر" سمعوا المتسوقين يتحدثون عن زلزال عنيف
ضرب تلك البقاع، وخلّف أضراراً كبيرة في المنازل الشعبية الهشة، كان الأهالي
في ذلك القاع الشاسع يبدون مرتاعين، وبالفعل رأوا الصدوع على المساكن،
وبقايا حطام على أجزاء أخرى من المدينة، ولاحظوا حركة ترميم واسعة تدب
في القرى والعزب الواقفة في طريقهم.

في ذمار كان عامل المدينة يقف وأعوانه قرب حي مدمر عتيق، يشرفون على أعمال ترميم واسعة يقوم بها أهالي الحي بمساعدة بعض العمال المهرة والمتطوعين. بينما شرع أحد الفقهاء الزيديين يؤكد أن الله غاضب على المزارعين المتقاعسين عن دفع الزكاة المشروعة على محاصيلهم، بينما أخذ العامل يهز رأسه موافقاً بيقين تام، في منطقة بيت الكوماني، كان الناس يتحدثون عن هزات أرضية خفيفة ضربت منطقتهم قبل أربعة أيام، ولم تتوقف إلا مع شروق الصباح، على مشارف يريم، كان عامل المدينة وجنوده وأعوانه يقفون في طريق المسافرين على رأس هضبة المرايم، ولما ظهر الشيخ رعدان ورفاقه، كان صاحب السعادة العامل قد أصيب باليأس، وفكر في المغادرة، ثم سمع عن قدوم مسافرين، ومكث ينتظر بملل، سرعان ما قطع الجنود طريقهم، وسألهم أحدهم بتقاعس عن المكان الذي أتوا منه، فأجابت ماما زكية بنبرات واضحة:

.لواء صنعاء.

سأل الجندي رفاقه:

.هل سمعتم؟ هل ذكرت المرأة المسنة لواء صنعاء؟

صرخ الجندي الآخر بفرح:

.نعم، مسافرون قادمون من لواء صنعاء.

ردد الجنود ذلك بصوت مرتفع، فجاء صاحب السعادة العامل مهرولاً، وقفز عن ظهر بغلته وأقبل عليهم يجري دون وقار، ثم أمر الجنود أن يجلبوا

المسافرين إلى ظل سقيف قريب يستظل تحته المسافرون. بدا السرور واضحاً على ملامحه، وأخذ يشرح ما يقلقه مذ سمعوا نداء القبض على الفارين الذي أطلقتها القلاع والحصون في أرجاء البلاد سابقاً، وقد قبض جنوده على ثلاثة رجال وامرأة وطفل يحمل تميمة على عنقه، وبعثوا بهم إلى صنعاء، كما بعثوا أيضاً بالسحرة والمعالجين المشهورين في القضاء، ومنذ ذلك الحين لم يأت إليه عنهم أي رد أو خبر. ولا يعلم ماذا يجري هناك! لقد مرّت ستة أيام بلياليها دون أن يظفروا بمسافر واحد قادم من صنعاء، وكل المسافرين الذين قابلوهم كانوا يأتون من لواء ذمار ونواحيها، ويتحدثون عن الزلزال الرهيب وحسب. يا له من أمر غريب ومريب!

جلس العامل بتواضع جم على حجر أملس، واقتدى به أعوانه، بينما ظل الجنود واقفين ينتظرون الأوامر. طلب من المسافرين المنهكين الجلوس، فجلسوا ماعدا سرحان الذي كان يمهد موضعاً للأتان الهزيلة، ثم سار حتى جلس قريهم على حجر خشن، وقال العامل ممهداً لسؤاله الملح:

. أنتم أول مسافرين أتوا من صنعاء، ولم يحدث أن انقطع خط سير الوافدين، وطالما يسلكون هذه الهضبة بالعشرات، لا أدري هل تغيرت الطرقات، أم حدث شيء ما قلب موازين السفر وعطل المسافرين؟

وصمت قليلاً يتفرس في وجوههم، ثم أضاف:

. أخبروني عما يجري في صنعاء.

فتح الجميع أفواههم، لكن الكلمات عجزت عن الخروج، ترددوا قليلاً، كيف يفسرون ما حدث، وأول من نطق هي ماما زكية، وخاطبت زوجها برجاء:

. رعدان، أخبرهم بالحقيقة، لا تكتم شيئاً، أرجوك، لا تكذب، فالحقيقة مُنْجِيَةٌ.

صاح الشيخ رعدان بغضب:

. انتظري يا زكية، الحقيقة التي تتحدثين عنها لم تعد تنجي أحداً، لقد كنت صامتة طيلة ثلاثين عاماً، لِمَ لا تصمتين لحظات قلائل حتى نسير في طريقنا دون مشاكل؟

. ماذا جرى أيها الشيخ؟ قل الحقيقة، هل مات الأمير، أم احتل الأتراك مدينة صنعاء؟

. موت الأمراء لا يقطع السفر، والاحتلال يجلب الكثير من المسافرين الفارين، ما حدث أفدح وأعظم مما تظن.

كز العامل على أسنانه بغضب ونظر إلى جنوده نظرة معبرة، فصبوا فوهات بنادقهم إلى رؤوس المسافرين، وصرخ العامل بغیظ:

. ستموتون الآن إن لم تخبروني بما حدث.

تململ الشيخ رعدان في موضعه وقال:

. أخشى ألا تؤمن بالحقيقة يا صاحب السعادة.

. سأصدقك حتى لو قلت إن الشياطين يطاردون الناس من زقاق إلى زقاق.

ومضت عيون المسافرين بذهول حين سمعوا لفظ "الشياطين" وأجاب الشيخ رعدان:

. نعم، هذا ما حدث، لقد سكنت الشياطين رؤوس أهالي صنعاء، وهم الآن يهيمون على وجوههم.

. أنت تهذي أيها الشيخ الخرفان، لقد بعثنا إليهم أبرع السحرة والمعالجين وطاردي الشياطين في القضاء.

. أرايت يا صاحب السعادة كيف صعب عليك تصديق الحقيقة؟

. أخبرني كيف حدث ذلك! هيا لا تدع شيئاً في جعبتك.

نظر إلى ماما زكية نظرة عتاب، وأخبر عامل يريم بجميع التفاصيل، ثم استغل الجمود الذي أصابهم، ونهض وأشار للمسافرين أن يلحقوا به، وقال لسرحان بنبرات خفيضة حادة:

. ضع التميمة في عنق الطفل وغادر خلفي بسرعة.

أثناء ذلك انتبه العامل إلى خطة فرارهم من الهضبة، فأطلق صيحة شديدة: . أمسكوا بهم، أطلقوا النار على الساحر الصغير.

هرع الجنود إليهم وحاصروا الأتان، وأطلقوا عليها النار، فسقطت أرضاً، وتدحرج الطفل على الأرض، وصوبت البنادق نحوه، وأجبر هذا الشيخ رعدان على استخدام التعاويذ التي عاهد نفسه على هجرها والعيش بدعة وأمان، فقرأ عليهم تعويذة الجمود، وظل العامل يردد أمره الحازم كاللبغاء:

. أطلقوا النار، أطلقوا النار.

رد الجنود صارخين بوجل:

.لا نستطيع يا صاحب السعادة، أصابعنا وأجسادنا لا تتحرك.

.أميطوا شفقة الأمهات عن قلوبكم المتحجرة، بوسعكم دهسه والقضاء عليه بأقدامكم، بغلتي أكثر جرأة منكم.

واتجه إليهم وترجل عن البغلة، وجعل يدفعهم بقوة بكفيه المتشجنين، وهو يصيح بارتباك:

.أنتم لا تتحركون، ماذا حدث لكم أيها الملاعين؟

وأسرعت مريمة وخطفت الصغير، وعادت لتستتر خلف والدها لكي يحميها، لأنها تعهدت له أثناء السير ألا تستخدم التعاويذ مرة أخرى حتى لا تصاب بالعقوبات التي تصيب المخالفين من السحرة، أخذ سرحان البغلة وهو يرتجف بفعل التوتر، وصاح العامل بنزق:

.أعد بغلتي أيها اللص.

رد سرحان وهو يتطلع في وجه الحيوان:

.ليست بغلتك، إنها مركوب الصغير التي اقتحمت فناء القلعة قبل عام، وسوف نعيدها لمالكها نجيم.

.هاااه، أنتم أهالي قرية الرباط إذا، لن تفلتوا من قبضتي، سألاحقكم وأضعكم في سجن القلعة.

كانت ماما زكية واجمة وكأنها تلوم نفسها على إصرارها على قول الحقيقة، وقال الشيخ رعدان بقلق:

.لا أدري ما سيحدث، يجب توخي الحذر.

عبروا وسط المدينة، وتشردم بعض الأهالي حول البغلة، لأنها مميزة ومسرحة بسرج باهظ الثمن، ويعرفونها، فهي مركوب العامل، ولا يركبها إلا شخص عالي الرتبة، لكن عليها طفل صغير، وقد سألوا بفضول عن الصغير، ابن من يكون، أين يذهب؟ لكن الردود أتت مخيبة للآمال وغير واضحة، وتبعهم عدد قليل من الأهالي، ثم ارتدوا عنهم يائسين، وظهر قاع الحقل الفسيح الممتد الخصب، ولاح الفلاحون يحرثون الأرض ويتأهبون لموسم جديد واعد.